



عناصر الموضوع

المجلد السادس والعشرون

مفهوم الغلو

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غلو) تدل على ارتفاع ومجاوزة قدرٍ. يقال: غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوًا، إذا جاوز حده[(١)].

ويقال: «غلا في الأمر والقول والدين غلوًا: جاوز القدر»[(٢)].

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والغلو في الدين)[(٣)]، أي: التشدد فيه ومجاوزة الحد، والحديث الآخر: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه بعض العلماء بأنه: «مجاوزة الحد، بأن يزاد في الشيء، في حمده أو ذمه على ما يستحق»[(٥)].

وعرفه الحافظ ابن حجر بأنه: «المبالغة في الشيء، والتشديد فيه بتجاوز الحد»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل، ١/ ١٤٤، رقم ٢٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، ١/ ٨٩، رقم ٨٤.

(٢) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/ ٤٤٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ١٠٠٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٢٢، رقم ٢٦٨٠.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية١/ ٢٨٩.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٧٨.

الغلو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غلو) في القرآن الكريم مرتين فقط[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]

وجاء الغلو في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو الإفراط ومجاوزة الحد[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾[المائدة:٧٧]

أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٠٤.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ١٥٩).

الألفاظ ذات الصلة

١ الطغيان:

الطغيان لغة:

كل شيء يجاوز القدر فقد طغى، مثل ما طغى الماء على قوم نوحٍ، وكما طغت الصيحة على ثمود. والطاغية: الجبار العنيد[(١)].

الطغيان اصطلاحًا:

تجاوز الحد في العصيان [(٢)].

الصلة بين الطغيان والغلو:

ومن خلال النصوص السابقة نتبين أن الطغيان هو مجاوزة القدر والحد الواجب؛ وهو بهذا لا يكاد يفترق عن الغلو إلا بما يصاحبه - غالبًا - من الاستعلاء والتكبر والتجبر كتكبر وطغيان فرعون. أما الغلو فلا يلزم معه تكبر أو استعلاء، فكثيرًا ما يغالي في دين الله تعالى قوم ضعاف من الفقراء أو العامة ونحوهم.

٢ البغي:

البغي لغة:

هو الظلم وقصد الفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة:١٧٣].

«أي غير باغ على المسلمين، مفارق لجماعتهم، ولا عاد عليهم بسيفه. ويقال: غير عاد في الأكل حتى يشبع ويتزود»[(٣)].

البغي اصطلاحًا:

البغي: طلب الاستعلاء بغير حق[(٤)].

الصلة بين البغي والغلو:

البغي هو قصد الفساد بإجماع أهل اللغة كما ذكر الزجاج، وكأن الذي يفرقه عن الاعتداء أن الاعتداء فيه قصد المجاوزة وإن لم يبغ فسادا، أما البغي فهو قصد الفساد ابتداء.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٢٠.
(٣) غريب القرآن، ابن قتيبة ص٦٥.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٨١.

٣ الوسطية:

الوسطية لغة:

ما بين طرفي الشيء أو هو النصف، يقال: جلس فلان وسط القوم، أي صار في وسطهم. وشيء بين الجيد والرديء، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، والاعتدال في النفقة: وسط بين الإسراف والتقتير أو البخل، والتوسط بين الناس: الوساطة[١].

الوسطية اصطلاحا:

الوسطية تعني الاعتدال والتوازن، ويعنى بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بدون إفراط أو تفريط بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، وهذه الوسطية هي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة[٢].

الصلة بين الوسطية والغلو:

الوسطية تعني الاعتدال بين الغلو والتساهل، والغلو تمسك بالطرف المتشدد.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٦٧، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٥٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص ١٥٦.

أضرار الغلو

للغلو في الدين أضرار كثيرة بينها القرآن الكريم وهذه الأضرار يعود أثرها على الخلق، كما تعود على الدين نفسه بالتشويه والنقص، وهي على نوعين:

أولًا: أضرار دينية:

الغلو ضلال عن الحق، وقول على الله بغير علم، وابتداع في الدين، وتشويه لصورته، وتنفير للناس منه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة:٧٧].

فبين سبحانه في هذه الآية أن هذا الغلو من أهل الكتاب إنما هو ضلال وقول بغير الحق وابتداع لا ينطلق من شرع الله؛ وإنما ينطلق من اتباع الهوى والتقليد بغير بينة، وتكرار مادة الضلال فيه ثلاث مرات يؤكد أن الغلو إمعان في الضلال.

قال الطبري: «﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل»[1].

فتبين بذلك أن الغلو تجاوز الحق إلى الباطل، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢].

فالمغالي متزيد على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه يستحسن شرعا لم يأت به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فكأنه يعتقد نقصان الشرع فراح يستدرك عليه، أو يعتقد تمامه وكماله فيلزمه اعتقاد تقصير محمد صلى الله عليه وسلم في التبليغ أو كتمانه ما أمر بتبليغه؛ ومن ثم «قال ابن الماجشون سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣].

فما لم يكن يومئذٍ دينا لا يكون اليوم دينا. وقال الشافعي رحمه الله: من استحسن -يعني: بدعة- فقد شرع. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم وترك

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٨٧.

البدع، وكل بدعة فهي ضلالة»[1].

«وتدلنا هذه الآية أيضًا أن ضلالهم هذا كان آتيًا من غلوهم في الدين. وها نحن نرى بعد ذلك كيف يفصل القرآن هذا الإجمال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:٧٣-١١٦].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠]»[2].

ثانيًا: أضرار على الخلق:

للغلو أضرار كثيرة على العباد؛ وهو من ضروب الفساد التي نهى الله تعالى عنها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

وهذه الأضرار؛ منها أضرار مجتمعية تعود على المجتمع بالخراب والدمار ويصطلي الناس بنارها، ومنها أضرار عالمية تعود على الناس كافة بصدهم عن سبيل الله تعالى، ومنعهم من الدخول في رحمة الله وفضله بصدهم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ومن ثم يمكننا أن نقسم هذه الأضرار التي تعود على البشر من جراء الغلو إلى:

١ . أضرار مجتمعية محلية.

فمن هذه الأضرار المجتمعية المحلية:

- **تفريق الأمة، وإضعاف قوتها.**

ذم القرآن التفرق ونهى عنه وبين سوء عاقبته؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

ومما لا شك فيه أن اعتقاد طائفة من الناس أنهم قد اختصوا بفهم زائد في الدين

(١) السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، الشقيري ص ٦.

(٢) المصطلحات الأربعة في القرآن، محمد عاصم الحداد ص ٤٨.

فوق ما عليه السواد الأعظم من أهل العلم وأولي الأمر منهم ممن تجب طاعتهم على عامة الأمة فإن ذلك سيؤدي بلا شك إلى تفريق الأمة وتمزيقها بين من يتبع هؤلاء الخارجين على أهل العلم وأولي الأمر، وبين من يتمسك بما عليه سواد الأمة، وهذا التفرق والتشرذم مما يضعف قوة الأمة ويذهب قوتها؛ كما هو واضح من نص الآية السابقة.

فبين الله تعالى أن عاقبة التفرق والتنازع الفشل وذهاب الريح وضعف القوى؛ «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم»، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال»[1].

- **إيقاع الناس في الحرج.**

يحدث هذا عندما يدعي طائفة من الناس - هم المغالون في الدين - أن ما هم عليه من الغلو هو الدين الحق، وهو - بلا شك - ليس في استطاعة كل واحد من الناس - هذا على فرض كونه في أصله من الحق - فما بالكم إذا كان ذلك فهما مغلوطا في أغلبه يلبس فيه الحق بالباطل لموافقة الأهواء المريضة؛ فحينئذ قد يشعر غير القادرين على متابعة هؤلاء الغلاة - وهم جمهور الأمة وسوادها الأعظم - بالحرج ظنا منهم أنهم واقعون في التقصير، والحق أن الغلاة هم الخارجون على الشرع، وهم أولى بالحرج وأحق به ولا حرج على من سلك سبيل القصد والتوسط والاعتدال.

وهؤلاء المغالون يزعمون أنهم على الحق ويدعون الناس لاتباع ما هم عليه من الغلو والابتداع، كما حكى الله تعالى عن اليهود والنصارى؛ حيث لم يكتفوا بتحريف ملة إبراهيم بل يزعمون أنهم هم وحدهم على الهدى ويدعون الناس للدخول في ملتهم حتى يحصلوا الهدى على زعمهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.

﴿مُخْلِصُونَ ۝١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٠﴾ [البقرة:١٣٥-١٤٠].

استحلال الدماء والأموال، وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار:

يترتب على الغلو آثار عديدة منها استحلال دماء الناس وأموالهم بناء على اعتقاد كفرهم ممن يغالي بتكفير المسلمين بالمعاصي كما هي عقيدة فرق الخوارج والمكفرة قديمًا وحديثًا.

وإذا كان الخوارج المعاصرون يغالون فيعتقدون أنهم أفضل وأعلم وأفهم من أهل العلم في زمانهم - فيسارعون بتخطئتهم بل وتكفيرهم في إنكارهم عليهم اعتقادهم الباطل بتكفير عصاة المسلمين مما ينتج عنه استحلال دمائهم وأموالهم - فلقد سبق أسلافهم فخطئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهموه بالعصيان وأمروه بتقوى الله.

فعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، قال: (بعث عليٌّ رضي الله عنه، إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبةٍ فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابسٍ الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدرٍ الفزاري، وزيدٍ الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلابٍ، فغضبت قريشٌ، والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجدٍ ويدعنا، قال: (إنما أتألفهم). فأقبل رجلٌ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوقٌ، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: (من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني) فسأله رجلٌ قتله، - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: (إن من ضئضئ هذا، أو: في عقب هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ)[(١)].

❁ عدم التوقير والطاعة لمن تلزم طاعتهم.

فأمثال هؤلاء الغلاة الذين لا يوقرون كبيرا، ولا يطيعون إماما هم الذين (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويشيعون الفوضى والفساد في الأرض، لا يرجعون إلى إمام عدل، ولا يوقرون عالمًا ولا أحدًا من أولي الأمر.

وماذا يرجا من انصياعهم لإمام أو توقير لعالم وقد انتقصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجابهوه بما يؤذيه وما لا يليق ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى عادٍ أخاهم هودًا)، ٤/ ١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

[التوبة:٦١].

٢. أضرار إنسانية عالمية.

تتخطى أضرار الغلو وآفاته الصعيد المحلي إلى الصعيد العالمي؛ فصاحب الغلو لا يقتصر غلوه على بني وطنه؛ بل يتعداه بالفساد إلى الناس جميعا؛ لأجل ذلك تراه يعيث في الأرض فسادًا، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ ﴾

[البقرة:٢٠٥].

حيث الكراهية الشديدة للآخر المخالف في العقيدة كراهية تخرج عن حد الكراهية لأجل الكفر؛ بل تتعدى ذلك إلى كراهية الخلق والرغبة في التعجيل بهم إلى النار عن طريق القتل وإزهاق الأرواح، دون تأن بهم لهدايتهم أو لإتاحة الفرصة لهم لرؤية سماحة الإسلام وصورته الغراء التي تغري باعتناقه والدخول فيه أو حسن الظن بأهله.

كل ذلك يشوه صورة الإسلام عند من لا يعرفه من الآخرين، ويصدهم عن الإيمان به، ويحرمهم من الدخول في رحمة الله: الرحمة المهداة للعالمين؛ وذلك بسبب ما يقوم به ذلك المغالي في بلاد غير المسلمين من تخريب أو تدمير بسبب كفرهم ظنا منه أن الحرب إنما شرعت لأجل قتل الناس لا لأجل دعوتهم وهدايتهم بصد صناديد الكفر الذين يصدون الناس عن دين الله تعالى، ويمنعون وصول الدعوة والهداية إليهم.

أنواع الغلو

الغلو في الدين يأخذ أشكالا متعددة فهناك الغلو في الاعتقاد، والغلو في العبادة، والغلو في السلوك، والاعتقادي منه الكلي والجزئي.

أولًا: الغلو الاعتقادي:

فالمراد بالغلو الاعتقادي الكلي ما يتعلق بكليات الشريعة وأصولها كالغلو في الأولياء الصالحين بما يصل إلى الكفر كاعتقاد معرفتهم الغيب، أو قدرتهم على ما لا يقدر عليه غير الله كإغاثة المضطر وقضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يعتقده الجهلة والمبتدعة، والغلو في عقيدة الولاء والبراء بالبراءة من العاصين، والغلو بتكفير العصاة، و وهذا النوع هو أشد أنواع الغلو.

وقد ذكر الله ما كان من المشركين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من غلو في الأولياء والأنبياء والصالحين - شابههم فيه بعض أهل الغلو في زماننا؛ فقال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨ ﴾ [يونس:١٨].

فقول هؤلاء المشركين كقول غيرهم من غلاة أهل زماننا «فيمن يتخذونهم وسطاء

بينهم وبين الخالق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾»[(١)].

أما الاعتقادي فهو ما يخشى فيه من فساد الاعتقاد كالغلو في الأولياء الصالحين بما لا يصل إلى الكفر كاعتقاد وجوب شد الرحال لزيارتهم مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم[(٢)]، ونحو ذلك.

ومن الغلو العقدي: ما حكاه القرآن الكريم من غلو اليهود والنصارى، وسبقت الإشارة إليه في شواهد الغلو في مواضع عديدة.

ثانيًا: الغلو التعبدي:

وهو الغلو بأحكام الشريعة العملية مثل العبادات بمختلف أشكالها القولية والفعلية، ولا شك أن هذا النوع أقل خطرًا، لكنه مدخلٌ بعد ذلك للنوع الأول «ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثيرٍ من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضةً أيضًا»[(٣)].

فمن ذلك ما كان يفعله أهل الجاهلية من طوافهم بالبيت عراة، وإدخال الصفير والتصفيق في طوافهم بالبيت، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣].

وفي تفسيرها يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرم ربي القبائح من الأشياء وهي ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فكان علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، منها فكان سرًا في خفاء»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥].

قال ابن عباسٍ والحسن: المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. قال ابن عباسٍ: كانت قريشٌ تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون»[(٥)].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٢/ ٦٠، ١١٨٩: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى).

(٣) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٧١٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٠٢.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩١.

ثالثًا: الغلو السلوكي:

فمن ذلك الغلو بالتشدد في معاملة الناس؛ بحيث لا يصبر على أخطائهم وزلاتهم، ولا يقبل أعذارهم، ولا يقيل عثراتهم، ولا يرضى منهم إلا بمثالية واستقامة تامة لا تكون إلا في النبيين والصديقين.

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى قد أمر بالتوسط والاعتدال في كل شيء؛ وهذا هو المفهوم من إطلاق الوصف بالوسطية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وأمر تعالى بالاعتدال في معاملة الناس فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

«قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم في المشركين»[(١)].

وأمر بالاعتدال في الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٢٩-٣٠].

وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

فالاعتدال والتوسط والقيام بالحق والقسط - إن لم يكن العفو والصفح والإحسان - مطلوب في كل شيء لا سيما في معاملة المرء لإخوانه.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩].

وادعاء النسخ في مثل هذه الآيات لا ينافي العمل بها في سياقات مشابهة لما نزلت فيه من حيث حال الداعين والمدعوين والظروف المحيطة بالدعوة.

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٢٩.

﴿عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

وليس ثمة أفضل من طريقة القرآن في بيان العدل والتوسط والإحسان في معاملة الناس؛ فقد ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: تقتضي الإصلاح والعفو عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»[1].

وهذا كما بينا مع جميع الناس فقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وإذا كان المرء مأمورًا بالعفو والصفح والإحسان مع جميع الخلق فمع إخوانه من باب أولى.

أسباب الغلو

أولًا: أسباب ذاتية:

للغلو أسباب ذاتية ترجع إلى الغالي نفسه منها:

١ . اتباع الهوى.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة:٧٧].

«والغلو نقيض التقصير. ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير. وقوله غير الحق صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلوًا غير الحق، أي غلوًا باطلًا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حقٍ، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطلٍ وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه -أي: عيسى عليه السلام- إلى الزنا. وإلى أنه كذابٌ، والنصارى ادعوا فيه الإلهية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧﴾. الأهواء

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

هاهنا: المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم:٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر. لا يقال: فلانٌ يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله. وقيل: سمي الهوى هوًى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وقال رجل لا بن عباسٍ: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباسٍ: كل هوًى ضلالةٌ[1].

فنلاحظ أن الله تعالى ربط بين الغلو واتباع الهوى فقال: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ فكأن الجملة الثانية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ قد وقعت بمثابة عطف البيان من الجملة الأولى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ «جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾: لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء»[2]؛ ذلك أن الغلو اتباع للهوى.

٢. اتباع خطوات الشيطان.

لا شك أن أهم أسباب الغلو بجميع أنواعه هو اتباع الشيطان؛ فهو الذي يزين الباطل لأتباعه، وهو الذي يأمر الناس بالسوء والفحشاء والضلال في العقيدة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

فقد أخبر ربنا سبحانه أن من أهم أسباب الغلو اتباع الشيطان فهو الذي يتدرج بالمرء خطوة خطوة نحو الضلال حتى يوقعه في الكفر بأن يتقول على الله ما لا يعلم؛ فينسب له سبحانه الولد والشريك ويصفه بما لا يليق به مما تنزه عنه ربنا سبحانه وتعالى جده.

قال الرازي: «احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان، وزجر المكلف بهذا الكلام عن تخطي الحلال إلى الشبه كما زجره عن تخطيه إلى الحرام لأن الشيطان إنما يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤١١.

(٢) الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي ٦/ ٤٢٥.

فيزين بذلك ما لا يحل له فزجر الله تعالى عن ذلك، ثم بين العلة في هذا: التحذير، وهو كونه عدوا مبنيا أي متظاهرٌ بالعداوة، وذلك لأن الشيطان التزم أمورًا سبعةً في العداوة.

أربعةٌ منها في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:١١٩].

وثلاثةٌ منها في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدوًا مظاهرًا بالعداوة فلهذا وصفه الله تعالى بذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا كالتفصيل لجملة عداوته، وهو مشتملٌ على أمورٍ ثلاثةٍ:

أولها: ﴿بِالسُّوءِ﴾، وهو متناولٌ جميع المعاصي سواءٌ كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب.

وثانيها: ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وهي نوعٌ من السوء، لأنها أقبح أنواعه، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي.

وثالثها: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكأنه أقبح أنواع الفحشاء، لأنه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فيدخل في الآية أن الشيطان يدعو إلى الصغائر والكبائر والكفر والجهل بالله»[1]

٣. الجهل.

هو سبب كل بلاء وسبب الغلو بصفة خاصة مع ركوب الهوى، وهو سبب كل مظاهر الغلو في حياتنا.

فالخروج على المسلمين بتكفيرهم وتقتيلهم ونحو ذلك إنما هو راجع إلى الجهل بالضبط الشرعي للأمر، وتشديد النصوص في أمر تكفير المسلم، واستحلال ماله ودمه.

وكذلك الغلو في الأولياء والصالحين بعبادتهم من دون الله إنما يرجع للجهل بما يجب نحوهم من المحبة والاقتداء دون اعتقاد قدرتهم عل التصرف في الأمور، وغيره من العقائد الفاسدة التي أورثها الجهل بالعقيدة الصحيحة.

وقد بين القرآن الكريم أن هذا الجهل كان هو السبب الأعظم في ضلال من ضل من الأمم السابقة، وفيما وقعو فيه من شرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٨٦.

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

«يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالكٌ ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[1].

فظهر من الآية أن سبب غلو بني إسرائيل في عبادة تلك الأصنام إنما كان بسبب جهلهم عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

٤ . التقليد.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:١٥-٢٥].

«ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام دينا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويخرصون ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٦٧.

وقرأ جمهور الناس: «على أمة» بضم الهمزة، وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد»[1].

فالجهل وتقليد الآباء هو ما أوقعهم فيما هم فيه من الغلو في نسبة الولد إلى الله، وادعائهم أن الملائكة بنات الله وغير ذلك من صنوف الشرك.

٥. الخوض في المتشابهات.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٧-٩].

فبين ربنا سبحانه أن سبب ضلال هؤلاء إنما جاء من قبل خوضهم في المتشابه: إما ابتغاء الفتنة، وإما ابتغاء تأويله، وهذا غالب حال أهل الغلو.

ثانيًا: أسباب مجتمعية وعالمية:

لعل من الإنصاف أن نقول أيضا: إن من أسباب الغلو كذلك: العوامل والظروف المجتمعية والعالمية مثل: محاربة الدين، المحن والابتلاء، انتشار المعاصي والفتن، ترك الحكم بما أنزل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٠٩﴾ [البقرة:١٠٩].

وهذا يكشف لنا مقدار ما يضمر أعداؤنا لنا من الحسد والحقد والبغض والعداوة؛ ولا شك أن ذلك كله مما يهيج مشاعر الغلاة؛ فيشتطون غضبا ويزدادون في تعنتهم وغلوهم، ويتخذون من تلك العداوة التي تظهر بين الحين والحين في صور شتى أيسرها ما يبدو من أفواههم من البغضاء من فلتات الألسن، وأكثرها ضررا ما يلحقون ببلاد المسلمين من غدر وتخريب وتدمير وقتل وإزهاق لنفوس الأبرياء، ولكن هذا كله لا ينبغي أن يواجه بأفعال الطيش والحماقة والتهور، وإنما يواجه بالإعداد الجيد دون

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠.

استفزاز أو استنفار للعدو في وقت لا يكون للمسلمين طاقة بمواجهة أولئك الأعداء.

لكن أهل الغلو لا ينطلقون إلا من تلك المحاذير - لا يحركهم غيرها: الطيش والحماقة والتهور.

مظاهر الغلو

للغلو مظاهر عديدة كلها تدل على التشدد والمغالاة والتطرف والانحراف عن وسطية الإسلام السمحة؛ فمن ذلك: التكفير، الابتداع في الدين، الاعتداء على الناس وأموالهم، ادعاء العلم والتدين والغلو في المحبة أو الكراهية.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

قال ابن العربي في هذه الآية «نهى الله سبحانه أهل الكتاب عن الغلو في الدين من طريقيه: في التوحيد، وفي العمل؛ فغلوهم في التوحيد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدعوه من الرهبانية في التحليل والتحريم والعبادة والتكليف. وقال صلى الله عليه وسلم: (لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه»[1].

وهذا صحيحٌ لا كلام فيه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، ٩/١٠٣، رقم ٧٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم ٢٦٦٩.

وقد ثبت في الصحاح (أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع امرأة من الليل تصلي، فقال: من هذه؟ قيل: الحولاء بنت تويتٍ لا تنام الليل كله. فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرفت الكراهية في وجهه، وقال: إن الله لا يمل حتى تملوا، اكلفوا من العمل ما تطيقون)[1][2].

فدل ذلك على شمول الغلو للاعتقاد والعمل؛ فغلوهم في الاعتقاد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدعوه من الرهبانية في التحليل والتحريم والعبادة والتكليف.

أولًا: التكفير:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١١٣﴾ [البقرة:١١٣].

فأخبر سبحانه أن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، وينكر ما معه من الحق، وهذا من الغلو الذي شابههم فيه أصحاب الفرق المبتدعة من المسلمين؛ حيث يتبرأ كل فريق من مخالفيه؛ وإن كانوا من أهل الملة يشاركونهم في أصول الدين وقواعده، وهذا من الظلم الواضح البين.

ويتدرج ذلك إلى الغلو في التكفير كما هو حال الخوارج وغيرهم من جماعات التكفير في تكفير عصاة المسلمين وإخراجهم من دائرة الإسلام إلى الكفر.

ثانيًا: الابتداع في الدين:

لما كان أهل الغلو هم الذين غالوا فانحرفوا عن سواء السبيل وقصده، وعن الصراط المستقيم الذي أمروا بلزومه لزمهم بذلك أن يكونوا من أهل البدع في الدين.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣].

«فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، وليس المراد سبل المعاصي؛ لأن المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحدٌ طريقًا تسلك دائمًا على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاصٌ بالبدع المحدثات.

ويدل على هذا ما روى إسماعيل عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من أحب الدين إلى الله أدومه، ١/ ١٧، رقم ٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته، ١/ ٥٤٢، رقم ٧٨٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٤١.

سليمان بن حربٍ، قال: حدثنا حماد بن زيدٍ عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائلٍ عن عبد الله قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا خطًا طويلًا، وخط لنا سليمان خطًا طويلًا، وخط عن يمينه وعن يساره، فقال: هذا سبيل الله ثم خط لنا خطوطًا عن يمينه ويساره وقال: هذه سبلٌ وعلى كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني الخطوط ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾)[1].

قال بكر بن العلاء: «أحسبه أراد شيطانًا من الإنس، وهي البدع، والله أعلم».

وعن عمر بن سلمة الهمداني ؛ قال: «كنا جلوسًا في حلقة ابن مسعودٍ في المسجد وهو بطحاء قبل أن يحصب، فقال له عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان أتى غازيًا: ما الصراط المستقيم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو ورب الكعبة الذي ثبت عليه أبوك حتى دخل الجنة.

ثم حلف على ذلك ثلاث أيمانٍ ولاءً، ثم خط في البطحاء خطًا بيده، وخط بجنبيه خطوطًا، وقال: ترككم نبيكم صلى الله عليه وسلم على طرفه، وطرفه الآخر في الجنة، فمن ثبت عليه، دخل الجنة، ومن أخذ في هذه الخطوط هلك.

وفي روايةٍ: «يا أبا عبد الرحمن! ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌ وعن يساره جوادٌ، وعليها رجالٌ يدعون من مر بهم: هلم لك! هلم لك! فمن أخذ منهم في تلك الطرق؛ انتهت به إلى النار، ومن استقام إلى الطريق الأعظم؛ انتهى به إلى الجنة، ثم تلا ابن مسعودٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية كلها.

وعن مجاهدٍ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، قال: البدع والشبهات.

وعن عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنسٍ عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قال بكر بن العلاء: يريد إن شاء الله حديث ابن مسعودٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم خط له خطًا»، وذكر الحديث.

فهذا التفسير يدل على شمول الآية لجميع طرق البدع، لا تختص ببدعةٍ دون أخرى.

ومن الآيات قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٢٠٨، رقم ٤١٤٢، والنسائي في الكبرى، ١٠/ ٩٥، رقم ١١١٠٩.

فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائرٌ عن الحق؛ أي: عادلٌ عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضله، وكفى بالجائر أن يحذر منه، فالمساق يدل على التحذير والنهي.

وذكر ابن وضاح ؛ قال: «سئل عاصم بن بهدلة، وقيل له: أبا بكرٍ!، هل رأيت قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩]؟ قال: حدثنا أبو وائلٍ عن عبد الله بن مسعودٍ ؛ قال: (خط عبد الله خطًا مستقيمًا، وخط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن شماله، فقال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا، فقال للخط المستقيم: هذا سبيل الله، وللخطوط التي عن يمينه وشماله: هذه سبلٌ متفرقةٌ، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه ؛ والسبيل مشتركةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إلى آخرها).

عن التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛يعني: إلى النار، وذلك الملل والبدع».

وعن مجاهدٍ: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ ؛ أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع[(١)].

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.

وكلام الشاطبي هنا فيما قرره واضح في أن أهل البدع هم أهل الغلو والجور والانحراف عن قصد السبيل، وقد أيد ذلك بما نقله عن الصحابة والتابعين من أهل العلم، قال: «وعن علي رضي الله عنه أنه كان يقرؤها أي ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾: (فمنكم جائرٌ) ؛ قالوا: يعني هذه الأمة، فكأن هذه الآية مع الآية قبلها يتواردان على معنًى واحدٍ.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأنعام:١٥٩].

هذه الآية قد جاء تفسيرها في الحديث من طريق عائشة رضي الله عنها، قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هم أصحاب الأهواء، وأصحاب البدع، وأصحاب الضلالة؛ من هذه الأمة، يا عائشة إن لكل ذنبٍ توبةً، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع، ليس لهم توبةٌ، وأنا بريءٌ منهم وهم مني برآءٌ.)[(٢)].

قال الشاطبي: «قال ابن عطية: هذه الآية

(٢) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ٢٤٥. والحديث ذكره الدارقطني في العلل، ٢/ ١٦٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، ١/ ١٣٧.

تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، هذه كلها عرضةٌ للزلل ومظنةٌ لسوء المعتقد.

ويريد والله أعلم بأهل التعمق في الفروع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في فصل ذم الرأي من «كتاب العلم» له»[(١)].

وحاصل الأمر أن المبتدع يغالي فيشق على نفسه ويلزمها ما رفعه الله تعالى عنه من الحرج والتكليف بما فيه مشقة زائدة؛ قال الشاطبي: «وحاصله أن الشارع طالبه برفع الحرج، وهو يطالب نفسه بوضعه وإدخاله على نفسه وتكليفها ما لا يستطاع، مع زيادة الإخلال بكثيرٍ من الواجبات والسنن التي هي أولى مما دخل فيه، ومعلومٌ أن هذه بدعةٌ مذمومةٌ»[(٢)].

ثالثًا: الاعتداء على الناس وأموالهم:

فهم يعتدون على جميع الناس، غلوا منهم وتشددا ورغبة في الانتقام منهم، وتعجيل عقوبتهم بدلا من الصبر على دعوتهم والترفق بهم لهدايتهم، وحالهم في ذلك حال من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٥].

وإذا كانوا كذلك مع الناس جميعا فإنهم لشططهم وغلوهم تجدهم مع أهل الإسلام أشد غلوا وعداوة، منا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ)[(٣)].

رابعًا: ادعاء العلم والتدين:

المبتدعة يدعون لأنفسهم علما لدنيا باطنيا يتميزون به عن الأمة؛ وذلك حتى لا يكون لأحد عليهم حجة؛ لأن العلم الظاهر الذي أنزله الله على رسوله وجعل فيه الحجة - لا يشهد لهم في شيء مما هم عليه من الباطل، وهم لا يستجيبون لما جاء به الله ورسوله فيما لا يوافق أهواءهم؛ وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠].

لذا لجئوا - كذبا وزورا منهم وافتراء على الله ورسوله - إلى ادعاء علم مؤداه أن الله تعالى قد اختصهم به دون خلقه جميعا

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤١٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر)، ٤/ ١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

بما في ذلك أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول أحد محققيهم[1]: «لقد فنى الصوفيه في حب مولاهم وتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بآدابه وتربوا في محاربيه وعاشوا في ذكره ومناجاته فعلمهم وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضى عنهم ففتح لقلوبهم ملكوت السموات والأرض يريهم عجائب كونه وبدائع قدرته وبدائع قدرته وأسرار خليقته وأفاض عليهم هداياه وعطاياه علوما وأذواقا أو كما يقول الصوفيه أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت.

ومن هذا الفناء جاءهم الخلود وبهذا التخلق أصبحوا ائمة يهدون إلى الله بأمره ويقفون حراسا على آياته ومشاهده مبشرين بكلماته متحدثين عن حضراته داعين إلى محبته ومناجاته مترنمين في آفاقه وجدا وشوقا بتسبيحه وذكره.

يقول العلامة الإمام الكلاباذي واصفًا لمقاماتهم وأحوالهم سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى وعزف بنفوسهم عن الدنيا صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة وخلصت علها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثه وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم أنارت أعلامهم فهموا عن الله وساروا إلى الله وأعرضوا عما سوى الله خرقت الحجب أنوارهم وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذي العرش أخطارهم وعميت عما دون العرش ابصارهم فهم أجسام روحانيون وفي الأرض سماويون ومع الخلق ربانيون»[2].

وهذا الذي ذكرناه قطرة من بحر ما ورد عن الصوفية من ادعاء باطل للعلم لا ينازعون فيه أهل العلم وحدهم؛ بل ينازعون في ذلك رب العرش العظيم في صفة علام الغيوب.

ولا يقصر أهل التشيع عن هذا الغلو الصوفي بل يزيدون عليه ويتجاوزونه بمراحل كبيرة تطفح بها كتبهم المعتمدة لديهم، وليس المجال مجال النقل عنهم في ذلك[3].

وكذلك بقية الفرق من الخوارج والمرجئة وغيرهم ممن اختص ببدعة في دين الله تعالى إنما يدعون جهلا واتباعا للهوى علما تميزوا به عن سائر الخلق.

خامسًا: الغلو في المحبة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي الحنفي ص ٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: أصول الكافي ص ١٣٤، ١٥٨-١٥٩.

﴿ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥].

«من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا أي: أمثالا. مع أن الآيات منعت من أن يكون له ند واحد فضلا عن جماعتها يسوون بينهم وبين الله إذ يحبونهم كحب الله أي: يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له.

والأنداد: إما الأوثان التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا منها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور وقربوا لها القرابين. وإما رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لا سيما في الأوامر والنواهي. ورجح هذا، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦].

وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أندادا وأمثالا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى والذين آمنوا أشد حبًا لله من المشركين لأندادهم، لأن أولئك أشركوا في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلها لله، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه، ولأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زمانا ثم يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه، كما أكلت باهلة إلهها من حيس، عام المجاعة»[1].

ومثل هذا الذي ذكره القاسمي ما يفعله العامة الذين قصدوا قبور الأولياء من ألوان الغلو فيهم؛ حيث رجوا منها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور وقربوا لها القرابين، وغير ذلك مما دعاهم إليه مغالاتهم في محبتهم باعتقاد ما لا يجوز فيهم ووصفهم بما لا يصح إلا لله تعالى؛ فدعاهم هذا الغلو الاعتقادي إلى غلو في السلوك ينافي ما أمرهم الله تعالى به من توحيده وعدم الإشراك به.

وفي هذه الآيات بين الله تعالى أن الغلو في محبة المتبوعين يفضي إلى الاتباع بغير هدى من الله، وهو يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله تعالى؛ بله الغلو في محبة المتبوعين أكثر من محبته سبحانه، وبين ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، وما آل إليه أمرهم من العذاب والحسرات التي لا تنقضي، والأمنيات الباطلة بأن يعودوا إلى الدنيا فيتبرئوا من هؤلاء المتبوعين كما تبرئوا منهم، ثم بين حالهم في الدنيا، وكيف أنهم كانوا يتركون اتباع ما انزل الله تعالى لاتباع ما وجدوا عليه آباءهم بغير دليل ولا بينة معرضين عن هدي الله تعالى تقليدا لآبائهم وأوليائهم.

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٦١.

علاج الغلو

١ . ترك اتباع الهوى والتجرد لطلب الحق.

التجرد في طلب الحق أصل مكين من أصول الهداية، وذلك أن الهوى هو الميل النفسي إلى الشيء؛ فإن وافق الهدى، وإلا هوى بصاحبه.

قال الراغب: «الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوي: سقوط من علو إلى سفل»[(١)].

ولذا نهى الله تعالى في كتابه في نصوص كثيرة عن اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص:٢١] الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦].

فهذا حوار جرى بين نبي الله داود عليه السلام وهذين الخصمين، وعاتبه الله تعالى فيه لميله لأحد الخصمين مأخوذا بقوة حجته فسارع إلى الحكم له بقوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ دون استماع للخصم الآخر، «والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل.

ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ (أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم»[(٢)].

فيمكن أن يقال: إن الله عد تسرع داود عليه السلام بالحكم دون سماع حجة الآخر من الهوى - وهو وإن كان ميلا غير مقصود بتأثير عارض سحر بيان الخصم - فإنه مما

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٢٠٨.

لا يتسامح فيه في حق الأنبياء والمصطفين الأخيار؛ فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين[(1)]؛ فحذر الله تعالى نبيه من اتباع الهوى لما يفضي إليه من الضلال عن الحق.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠].

وترك اتباع الهوى يقتضي الإخلاص والتجرد لله في طلب الحق والانصياع له، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ:٤٦].

«والقيام في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟﴾ مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمل والاجتهاد فيه كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧].

واللام للتعليل، أي لأجل الله ولذاته، أي جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة، وهذا عكس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ [العنكبوت:٢٥].

أولأجل معرفة الله والتدبر في صفاته»[(2)].

٢. ترك التقليد بغير دليل.

ترك التقليد بغير بينة أصل مكين كذلك من أصول الهداية في القرآن الكريم؛ ومن أجل ذلك نعى الله على أولئك الغلاة الذين يتبعون آباءهم أو علماءهم أو أحبارهم ورهبانهم أو سادتهم ورؤساءهم دون هدى من الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ

---

(١) هذا هو ما ندين الله به مما يليق بحق الأنبياء، لا ما ورد في كثير من كتب التفسير من الإسرائيليات من أن القصة تعريض بنبي الله داود عليه السلام من أنه أراد أن يتزوج بامرأة أوريا فقدمه في الغزو وعرضه للقتل ليتزوج امرأته، فمثل هذا لا يصح به أثر بحمد الله تعالى.
انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٤٢١.

﴿اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

فبين الله تعالى في هذه الآيات أن الاتباع بغير هدى من الله يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله تعالى.

٣. ترك التكلم بغير علم.

من وسائل الهداية كذلك لترك الغلو: ترك التكلم بغير علم، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى أن يخبر محاوريه بذلك، ويبين لهم أنه لا يتكلم بشيء من قبل نفسه بل يتبع ما يوحى إليه.

قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤-١٤٥].

فعظم سبحانه إثم من يحل أو يحرم من قبل نفسه فيضل الناس بغير علم، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه أن يعلم محاوريه بوقوفه صلى الله عليه وسلم عند حدود ما أنزل الله إليه فلا يحرم إلا ما حرم الله تعالى.

ولذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحاج محاوريه بسؤالهم عن دليل قولهم فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٥٠].

٤. ترك الأخذ بمجرد الظن والشك.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٨].

فنعى الله سبحانه على أهل الكتاب اعتقادهم قتل المسيح وصلبه بمجرد الظن دون بينة يكونون بها على يقين من أمرهم.

وربط تعالى بين اتباع الظن والوقوع في الضلال واتباع الهوى، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٦-١١٩].

فبين سبحانه أن ضلال أكثر الناس من الغلاة إنما هو بسبب اتباع الظن، واتباع الهوى بغير دليل ولا بينة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس:٣٦].

٥. الالتزام بالكتاب والسنة النبوية.

الالتزام بالكتاب والسنة هما طريق النجاة الأوكد، وسبيله الأوحد فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض)[١].

عن العرباض بن سارية، قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجلٌ: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌ، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)[٢].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ١/ ١٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، ٥/ ٤٤، رقم ٢٦٧٦.
قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

فالالتزام بالكتاب والسنة هما سبيل النجاة من الغواية ومن كل غلو وإفراط أو تفريط.

٦. سؤال أهل العلم.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما شفاء العي السؤال)[1]

وقديما قالوا: «السؤال نصف العلم»؛ فمن ثم وجب على كل من التبس عليه شيء في دين الله تعالى أن يسأل عنه أهل العلم المشهورين العاملين به.

٧. محاورة الغلاة والرد على شبهاتهم.

قال تعالى مقررا مبدأ الحوار والجدال مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقال تعالى معلمًا المؤمنين ما ينصحون به أهل الكتاب في محاورتهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

وإذا كان ذلك مع المخالف من أهل الملل الأخرى فلا شك أنه مع الموافق في الدين والعقيدة أولى وأنجع، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتناصح والتشاور والتخاطب بالتي هي أحسن؛ فقال عز من قائل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣].

ولا شك أنه لا بديل للحوار الجاد الذي تصدق فيه النوايا إلا المزيد من التباعد والفرقة؛ وذلك أن الحوار هو المتنفس الطبيعي لإخراج ما تكظمه الصدور، ومن ثم فإن انقطاع الحوار يؤدي حتما إلى الانفجار الرافض لتكميم الأفواه أو صمم الآذان عن الاستماع إلى الآخر ومحاورته وتفهمه، وما تلك الثورات التي عجت بها المنطقة العربية كلها أخيرا إلا نتيجة حتمية لضعف الحوار بين أولي الأمر وطوائف الشعب.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، ١/ ٩٣، رقم ٣٣٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٣.

٨. الاعتبار بحال الغلاة والمخالفين للكتاب والسنة ومصيرهم.

ينبغي على أهل العلم أن يلفتوا هؤلاء الغلاة للاعتبار بحال ومآل من سبقهم من الغلاة والمخالفين في الكتاب والسنة؛ فيتأملون ما نزل بأهل الكتاب قبلهم من سخط الله وغضبه بسبب غلوهم، وكيف كان التشديد سببا لتشديد الله عليهم فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق بني إسرائيل والبقرة (لو اعترضوا أدنى بقرة لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم)[(١)]

٩. استثمار الوقت بالعمل الصالح.

وذلك أن من أسباب وقوع الغلاة فيما هم فيه من الغلو والتشديد والتنطع ما يعانيه البعض منهم من فراغ يحدو بعضهم إلى زيادة التعمق فيما لا يجب عليه، والبحث عما لم يوجب ربنا علينا علمه من المتشابه، أو الميل إلى المزيد من التعبد بما لم يأت به الشرع، ونحو ذلك مما هو من آفة فراغ العقول.

وعلاج ذلك أن يعلم العبد أهمية الوقت، وأنه قد خلق لأمر عظيم وغاية شريفة، وهي ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

ومما يدل على أهمية الوقت كثرة إقسام الله تعالى به في كتابه الكريم؛ ككقسمه تعالى بالفجر، والضحى، والليل، والعصر.

والعبادة ليست منحصرة في الصلاة والصيام والزكاة والحج وتلاوة القرآن، بل تشمل سائر الفروض والواجبات التي أمرنا الله تعالى بها.

وجملة القول في ذلك، أن تعلم أن العبادة منهج شامل للحياة كلها، يقتضي أن تكون حياتك كلها وفق منهج الله تعالى، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس وفق ما تهواه نفسك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

(١) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف ١/٦٦: «قلت غريب، وأخرجه الطبري في تفسيره موقوفا على ابن عباس...وكذلك أخرجه أيضا من كلام أبي العالية، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره من كلام عبيدة السليماني، وعزاه ابن كثير في تفسيره لابن مردويه في تفسيره عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن بني إسرائيل قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما أعطوه أبدا ولو أنهم اعترضوا...إلى آخره..وروى البزار في مسنده من حديث عباد بن منصور عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم.انتهى.
والأظهر: وقف الأثر على ابن عباس، رضي الله عنه.

فما من لحظة من لحظات حياتك إلا ولله تعالى عليك فيها أمر أو نهي فالتكليف شامل للأوقات كلها وللعمر كله، لا تخلو لحظة من لحظات الحياة عن تكليف لله تعالى كلفنا به إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب والاستحباب، وإن كنا قد صرنا في زمان قد وجبت علينا فيه واجبات كثيرة، تكاد تمنع المرء من فعل كثير من المستحبات، فضلًا عن أن ينشغل عنها بالمباحات أو المكروهات، وأعاذنا الله من المحرمات أن نقع فيها ونتلهى بها عما أمرنا به من الطاعات وما أحله لنا من المباحات.

فالعجب كل العجب بعد ذلك لمن يبحث عن مزيد من الواجبات لم يوجبها الشرع، أو استحباب أمور متكلفة زائدة على ما استحبه الشرع الحنيف.

فاعلم يا عبد الله أنك لن تزول قدماك يوم القيامة من عند ربك حتى يسألك عما عملت في هذه الأوقات.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وقال أيضًا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النمل: ٨٤].

وقال سبحانه في بيان سؤاله المجرمين عن مدة لبثهم في الأرض وما عملوا فيها: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٦].

فسوف يسأل الله سبحانه عباده لا محالة عن أعمارهم وأوقاتهم وما عملوا فيها، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل في علمه)**[1].

فليسأل كل نفسه: ماذا أعد لهذا السؤال؟ وبماذا سوف يجيب يومئذ وهو موثق بالأغلال أمام ذي الجلال، فيومئذ لن ينفعه غلوه وتنطعه، ولن ينفعه إلا ما وافق فيه هدي الحبيب صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب يوم القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

(من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ)[1].

١٠ . البيئة الصالحة التي ينشر فيها العدل والحق ويؤخذ على يد الظالم.

بعد كل ما سبق، وقبل كل ما سبق تأتي قيمة البيئة الصالحة؛ فلا شك أن من أسباب انتشار الغلو ما يعانيه الغلاة من شعور بالتناقض بين ما ينبغي أن يكون في مجتمعاتهم من معاني الإسلام السامية وبين ما هو واقع فعلا من مخالفات جسيمة تعم كافة المجالات والمستويات؛ فينشأ لديهم من جراء ذلك ردة فعل عنيفة تدعوهم إلى المبالغة في كل ما فرط فيه أبناء مجتمعاتهم، حتى يؤول أمرهم إلى الغلو والتشدد واعتياد ذلك في كل شيء من قول أو فعل أو اعتقاد.

وليس أدل على أهمية عامل البيئة الصالحة وأثرها في تقويم أهلها، ومساعدة الناس على لزوم الجادة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عمن سبقنا من قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، وراح يسأل عن توبة فدله العالم على ضرورة الانتقال إلى بيئة صالحة تعينه على التوبة. **(فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوءٍ)**[2].

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٨].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الطغيان، الهداية، الوسطية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، ٩/ ١٠٧، وأخرجه موصولًا مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، ٤/ ٢١١٨، رقم ٢٧٦٦.



عناصر الموضوع

مفهوم الغم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الغين والميم أصلٌ واحد صحيح يدل على تغطية وإطباق. تقول: غممت الشيء أغمه، أي غطيته وغم الهلال، إذا لم ير. وفي الحديث: (فإن غم عليكم فاقدروا له)[1]. أي: غطي الهلال. ويقال: يومٌ غمٌّ وليلة غمة، إذا كانا مظلمين. وغمه الأمر يغمه غمًا، وهو شيء يغشى القلب»[2].

يقال: أمرٌ غمة، أي مبهمٌ ملتبسٌ[3].

و«الغم: ضد الفرج، والغمة: الضيقة»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه أبو هلال العسكري بقوله: «الغم معنىً ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو توقع ضرر يكون، أو يتوهمه. وقيل: الغم: ما لا يقدر الإنسان على إزالته كموت المحبوب»[5].

وقال ابن حجر: «هو ما يضيق على القلب»[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعا، ٣/ ٢٥، رقم ١٩٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٢/ ٧٥٩، رقم ١٠٨٠.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٧٧.

(٣) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٩٨.

(٤) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١٦٠.

(٥) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ٥٦٠.

(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٥٤.



الغم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غمم) في القرآن الكريم (٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٦	﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:١٥٣]
الاسم	١	﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس:٧١]

وجاء الغم في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسببٍ ما، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس:٧١]. وذلك من الغم؛ لأن الصدر يضيق به[٢].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٠٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٨٥٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٢٣٣.

الألفاظ ذات الصلة بالغم

١ الهم:

الهم: لغة:

ما هممت به في نفسك. تقول: أهمني هذا الأمر. والهم: الحزن. والهمة: ما هممت به من أمرٍ لتفعله. ويقال: أهمني الشيء، أي: أحزنني. والمهمات من الأمور: الشدائد[١].

الهم اصطلاحًا:

الهم الحزن الذي يذيب الإنسان. يقال: هممت الشحم فانهم، والهم: ما هممت به في نفسك، وهو الأصل[٢].

الصلة بين الهم والغم:

قال المناوي: «وقيل: الهم والغم والحزن من واد واحد؛ وهي ما يصيب القلب من الألم من فوات محبوب، إلا أن الغم أشدهما، والحزن أسهلهما»[٣].

٢ الحزن:

الحزن لغة:

أصل مادة (حزن) تدل على خشونة الشيء وشدةٌ فيه[٤].

والحُزْن والحَزَن: خلاف السرور[٥].

الحزن اصطلاحًا:

«عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[٦].

الصلة بين الحزن والغم:

قال المناوي: «وقيل: الهم والغم والحزن من واد واحد؛ وهي ما يصيب القلب من الألم من فوات محبوب، إلا أن الغم أشدهما، والحزن أسهلهما»[٧].

---

(١) العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصبهاني ص ٨٤٥.
(٣) انظر فيض القدير، المناوي ٥/ ١٤٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٥٤.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٩٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١١٧.
(٧) فيض القدير ٥/ ١٤٨.

٣ الكرب:

الكرب لغة:

في الصحاح: «الكربة بالضم: الغم الذي يأخذ بالنفس، وكذلك الكرب. تقول منه: كربه الغم، إذا اشتد عليه. والكرائب: الشدائد، الواحدة كريبة»(١).

الكرب اصطلاحًا:

قال الراغب: «الكرب: الغم الشديد. قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الأنبياء: ٧٦].

والكربة كالغمة، وأصل ذلك من: كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة ذلك»(٢).

الصلة بين الغم والكرب:

أن الكرب تكاثف الغم مع ضيق الصدر ولهذا يقال لليوم الحار يوم كرب أي كرب من فيه وقد كرب الرجل وهو مكروب وقد كربه إذا غمه وضيق صدره»(٣).

٤ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح(٤).

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»(٥).

وقيل: هو انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا(٦).

الصلة بين السرور والغم:

بينهما تضاد، فالسرور خلاف الحزن، والغم انقباض القلب مع الحزن.

---

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٢١١.
(٢) المفردات ص ٧٠٦.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٨٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٨.

الغم طبيعة بشرية

نص القرآن الكريم على أن أنبياء الله عليهم السلام أصابهم الغم كما قال عن يونس: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

فهو عليه السلام لم ينج من الغم إلا لأنه كان قد أصيب به من جراء ما حل به من البلاء.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحزن لإصرار المشركين على عنادهم وكفرهم الذي فيه هلاكهم، فينزل عليه نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣]: أي: لعلك «مهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك»[1].

وبيانه كذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦].

فقد دلت الآية على أن سبب حزنه صلى الله عليه وسلم عدم إيمان هؤلاء المشركين، «وقوله ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوفيق بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك، و «الباخع نفسه» هو مهلكها وجدا وحزنا على أمر ما وقوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾: استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان، وإعراض عن الشرع فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم، وقوله ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي بالقرآن الذي يحدثك به، ﴿أَسَفًا﴾ نصب على المصدر، قال الزجاج: و «الأسف» المبالغة في حزن أو غضب»[2].

واختار ابن عطية أن «الأسف» في الآية بمعنى الحزن لا الغضب لأنه بسبب شيء لا يملكه ولا تصرف له فيه، قال: «و «الأسف» في هذا الموضع الحزن، لأنه على من لا يملكه ولا هو تحت يد الأسف، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه لكان غضبا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف:٥٥]: أي أغضبونا وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد، وذكره منذر بن سعيد. وقال قتادة: هنا ﴿أَسَفًا﴾:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣٥.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩٦.

غضبًا، قال مجاهد ﴿أَسَفًا﴾: جزعا، وقال قتادة أيضا: حزنا»[1].

ودلت الآيات على أن أنبياء الله عليهم السلام ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أصابهم الغم، وما ذلك إلا لأنهم بشر يصيبهم ما يصيب البشر.

ومما هو صورة جلية للحزن ما قصه القرآن الكريم من خبر نبي الله يعقوب عليه السلام الذي أصابه من فراق ابنه يوسف ثم أخيه بنيامين حزن عظيم بلغ به حدا فقد معه بصره، كما قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن حاله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٤-٨٧].

والمعنى: «وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: فانيا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا. ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾ أي: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم»[2].

وتضمنت الآيات أن يعقوب عليه السلام أصابه من فراق ابنه يوسف حزن عظيم -كما تقدم- ودل على ذلك قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: «والأسف أشد الحزن، أسف كحزن. ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف. والألف عوض عن ياء المتكلم فإنها في النداء تبدل

(١) المصدر السابق.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠٤.

ألفا»[1].

وصور القرآن الكريم آثار هذا الحزن في فعله عليه السلام وقوله: فأما فعله فهو أنه أعرض عن أبنائه، وأما قوله فقد تقدم.

قال الرازي: «واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدًا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم. أما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام: وقال يا أسفى على يوسف»[2].

كما أن هذا الحزن قد أثر عليه تأثيرًا بينا بدا عليه ومن ذلك ابيضاض عينيه، «﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾: قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي، قاله مقاتل. وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب»[3].

وقد يؤيد أن بصره قد ذهب قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف:٩٣].

وتضمنت الآية أن سبب ابيضاض عينيه حزنه، قال ابن عاشور: «ومن في قوله: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ سببية. والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر. فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار»[4].

ودل ابيضاض عينيه على أنه ما زال يشعر بهذا الحزن منذ أمد طويل، ثم إن بعض الحوادث قد تؤدي إلى تجدد هذا الحزن وتجدد الشعور بألمه كما حدث له من فقد ولده الثاني «بنيامين» الذي ذكره ما أصابه من الحزن بفقد يوسف فكان الحزن على الثاني مجددا للحزن على الأول مع ما انضم إليه من مكوث الثالث أيضا بأرض مصر: «وإنما ذكر القرآن تحسره على يوسف عليه السلام ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين لأن ذلك التحسر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكره أن يعقوب عليه السلام لم يتحسر قط إلا على يوسف، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها»[5].

وأفاض الرازي في ذكر علة الاقتصار على النص على الحزن على يوسف وحده فقال: وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٤٨.
(٤) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣.
(٥) المصدر السابق ١٣/ ٤٢.

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع.

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

الوجه الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوما له، وأيضا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله[1].

والخلاصة أن يعقوب عليه السلام أصابه غم وحزن عظيم لشدة ما نزل به من البلاء حتى بدا ذلك على بدنه وفعله وقوله وهو ما قصه القرآن الكريم، قال الرازي: «واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة، فبين تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله: يا أسفى والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم»[2].

وهذا الذي بدا منه عليه السلام غير مستغرب لأنه جار على الطبيعة التي فطر عليها البشر كلهم، وما كان الأنبياء إلا بشرا كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء:٧-٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان:٢٠].

قال القرطبي: «فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٦، باختصار.

(٢) المصدر السابق ١٨/ ٤٩٩.

وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك.

والجواب الثالث: وهو أبينها، هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب)[1]»[2].

فكان حزنه جاريًا على ما فطر الله عليه البشر، ومثل ذلك لا يتعلق به حكم شرعي وإلا كان تكليفًا بما لا يطاق.

قال الشاطبي: «الأوصاف التي طبع عليها الإنسان كالشهوة إلى الطعام والشراب لا يطلب برفعها، ولا بإزالة ما غرز في الجبلة منها، فإنه من تكليف ما لا يطاق، كما لا يطلب بتحسين ما قبح من خلقة جسمه، ولا تكميل ما نقص منها فإن ذلك غير مقدور للإنسان، ومثل هذا لا يقصد الشارع طلبًا له ولا نهيًا عنه، ولكن يطلب قهر النفس عن الجنوح إلا ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل، وذلك راجع إلى ما ينشأ من الأفعال من جهة تلك الأوصاف مما هو داخل تحت الاكتساب»[3].

وقال: «إن ثبت بالدليل أن ثم أوصافا تماثل ما تقدم في كونها مطبوعا عليها الإنسان، فحكمها حكمها لأن الأوصاف المطبوع عليها ضربان:

منها: ما يكون ذلك فيه مشاهدا ومحسوسا كالذي تقدم.

ومنها: ما يكون خفيا حتى يثبت بالبرهان فيه ذلك، ومثاله العجلة، فإن ظاهر القرآن أنها مما طبع الإنسان عليه، لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء:٣٧].

وإذا ثبت هذا، فالذي تعلق به الطلب ظاهرا من الإنسان على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يكن داخلا تحت كسبه قطعا، وهذا قليل، كقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وحكمه أن الطلب به مصروف إلى ما تعلق به.

والثاني: ما كان داخلا تحت كسبه قطعا، وذلك جمهور الأفعال المكلف بها التي هي داخلة تحت كسبه، والطلب المتعلق بها على حقيقته في صحة التكليف بها سواء علينا أكانت مطلوبة لنفسها أم لغيرها.

والثالث: ما قد يشتبه أمره، كالحب والبغض وما في معناهما، فحق الناظر فيها أن ينظر في حقائقها، فحيث ثبتت له من القسمين حكم عليه بحكمه، والذي يظهر من أمر الحب والبغض والجبن والشجاعة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه، ٤/ ١٨٠٧، رقم ٢٣١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٤٨.
(٣) الموافقات الشاطبي ٢/ ١٧٥.

والغضب والخوف ونحوها أنها داخلة على الإنسان اضطرارا، إما لأنها من أصل الخلقة، فلا يطلب إلا بتوابعها، فإن ما في فطرة الإنسان من الأوصاف يتبعها بلا بد أفعال اكتسابية، فالطلب وارد على تلك الأفعال لا على ما نشأت عنه، كما لا تدخل القدرة ولا العجز تحت الطلب، وإما لأن له باعثا من غيره فتثور فيه فيقتضي لذلك أفعالا أخر، فإن كان المثير لها هو السابق وكان مما يدخل تحت كسبه، فالطلب يرد عليه كقوله: (تهادوا تحابوا)[1]»[2].

وعليه فيكون النهي في ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[فاطر:٨]. و﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]. متوجهًا لا إلى الحزن نفسه، بل إلى ما يعقبه وينتج عنه من أقوال وأفعال.

قال في التحرير: «على أن البكاء من الحزن أمر جبلي فلا يستغرب صدوره من نبيء، أو أن التصبر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية بل كان من سننهم إظهار الحزن والجزع عند المصائب. وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى عليه السلام أربعين يوما، وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع. وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية»[3].

وما ذكره ابن عاشور من أن سنة بني إسرائيل كانت إظهار الحزن والجزع وما نقل من تمزيق الأنبياء ثيابهم غير مسلم، وإذا لم نعده شيئا مفترى لا يليق بأنبياء الله فأكبر شأنه أن يكون من الإسرائيليات التي أمرنا ألا نصدقها ولا نكذبها وأن نكل علمها إلى الله لئلا نكذب بحق أو نصدق بباطل. بل إن رائحة الافتراء تفوح من مثل هذا لأن مثله لا يليق بأنبياء الله عليهم السلام. وقد نقل بعض المفسرين ذلك في معرض الرد على من ظن أن يعقوب عليه السلام جاء بما لا يليق من الجزع والشكوى.

قال الرازي: «من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل»[4].

وربما كان وراء هذا الزعم بعض الإسرائيليات والروايات المنكرة ومنها ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان ليعقوب النبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ١٤١، رقم ٩٢٥٠.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ٤٤.
(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ١٧٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٧

عليه السلام، أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك؟ قال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحيي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو)[1].

ثم رد الرازي على ذلك فقال: «وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر مالا ينبغي، وهو المراد من قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فإنه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم.

روي أن يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب؟ قال نعم قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت. قال: فهل له فيه أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد[2]»[3].

وقال أيضًا: «وأما البكاء فليس من المعاصي. وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام: بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: (إن القلب ليحزن والعين تدمع، ولا نقول: ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون)[4].

وأيضًا فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه، وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأيضا ففيه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان إذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيا أم صار ميتا، فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة»[5].

---

(١) عزاه ابن كثير في تفسره ٤/ ٤٠٦ إلى ابن أبي حاتم، وقال: وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٢٧-٢٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون)، ٢/ ٨٣، رقم ١٣٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٠٧، رقم ٢٣١٥.

(٥) المصدر السابق ١٨/ ٤٩٨.

أسباب الغم

إن من أسباب الغم إما فوات المحبوب أو توقع فواته، وإما حصول مكروه أو توقع حصوله. والقلوب تتفاوت في الهم والغم كثرة واستمرارًا بحسب ما فيها من الإيمان أو الفسوق والعصيان «فهي على قلبين: قلب هو عرش الرحمن، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير، وقلب هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم. فهو حزين علي ما مضى، مهموم بما يستقبل، مغموم في الحال»[1].

ويشهد لهذا المعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج:١٩-٢١].

أي: أنه «يحب ما يسره ويهرب مما يكره»[2]؛ فإذا فات ما يحبه أو توقع فواته، أو حصل ما يكره أو توقع حصوله حزن.

والناس يتفاوتون في الغموم بتفاوت بواعثهم وأحوالهم وما يحمله كل واحد منهم من المسئوليات.

فمن الغموم التي تدخل في فوات المحبوب أو توقع فواته، غموم سامية، ذات دلالات طيبة؛ كالحزن الذي أشار القرآن الكريم إلى نزوله بالأنبياء بسبب إعراض من يدعونهم إلى الحق وإهلاكهم أنفسهم بالصد والتكذيب كالذي دل عليه قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف:٦].

ويلحق بذلك غموم العالم في حل المعضلات التي يحتاج المسلمون فيها إلى جواب، وخصوصًا إذا استعصت المسألة واستغلقت، وكذلك غم إمام المسلمين بمشكلات رعيته. «قال مولى لعمر بن عبد العزيز له حين رجع من جنازة سليمان: مالي أراك مغتمًا؟ فقال عمر: لمثل ما أنا فيه يغتم؛ ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في شرق ولا غرب، إلا وأنا أريد أن أؤدي إليه حقه، غير كاتب إلي فيه، ولا طالبه مني»[3].

ومن الغموم الشريفة غم الداعية في نشر الدين وحمل الرسالة، والأخذ بيد المدعو إلى طريق الهداية، وغموم العابد في تصحيح عبادته في القصد والأداء، وغم المسلم بما يصيب إخوانه في أقطار الأرض.

ومن الغموم التي تدخل في حصول مكروه أو توقع حصوله، ما يكون ناشئًا عن

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٢٧.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: الهم والحزن، ابن أبي الدنيا ص ٤٩.

المعاصي، كالغموم التي تصيب المذنب بعد ذنبه، مثل الذي يحدث في غم من أصاب دمًا حرامًا، أو غم الزانية بحملها، وهو داخل ضمن عموم المصائب التي هي أثر للمعاصي، قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

ومن الغموم ما يكون بسبب ظلم الآخرين خاصة الأقرباء، كما قال الشاعر[(١)]:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

ولهذا كان الظالمون فتنة وامتحانا للمستضعفين بما ينالهم منهم من أذى نفسي وبدني، كما كانوا هم فتنة للظالمين بأن حملهم كبرهم وظلمهم عن النهي عن الحق والنأي عنه.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣].

ومن ذلك الغموم الحاصلة بسبب مصائب الدنيا، كالأمراض المزمنة والخطيرة، وعقوق الأبناء وتسلط الزوجة، واعوجاج الزوج.

ومن الغموم ما يكون بسبب الخوف من المستقبل وما يخبئه الزمان، كغموم الأب بذريته من بعده، وخاصة إذا كانوا ضعفاء وليس لديه ما يخلفه لهم. وهكذا تتنوع الغموم والهموم[(٢)].

ولقد أشار ابن القيم في بعض كتبه إلى هذه الأسباب، فقال: «والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم»[(٣)].

ويقول كذلك: «فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب ليس له سبب سواه، وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب، فلا كان حزن إذا ولا هم ولا غم ولا أذى ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب؛ ولهذا كان حزن الفقر والمرض والألم والجهل والخمول والضيق وسوء الحال ونحو ذلك على فراق المحبوب، من المال والوجد والعافية والعلم والسعة وحسن الحال؛ ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات، فقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾ [سبأ: ٥٤].

فالفرح والسرور بالظفر بالمحبوب،

(١) هو طرفة بن العبد، انظر ديوانه ص ١٨.

(٢) انظر: علاج الهموم، محمد المنجد ص ١.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٥٧.

والهم والغم والحزن والأسف بفوات المحبوب، فأطيب العيش عيش المحب الواصل إلى محبوبه، وأمر العيش عيش من حيل بينه وبين محبوبه»[1].

وفي هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالي: «الغم لا يخلو من أربعة أوجه: إما لشهوة بطنه وفرجه، وإما على ما يخلفه من ماله، وإما على جهله بحاله بعد الموت ومآله، وإما لخوفه على ما قدمه من عصيانه. فإن كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه، فهو كمشتهي داء ليقابله بداء مثله، فإن معنى لذة الطعام إزالة ألم الجوع، ولذلك إذا زال الجوع وامتلأت المعدة، كره عين ما اشتهاه، كمن يشتهي القعود في الشمس ليناله الحر، حتى يتلذذ بالرجوع إلى الظل، وكمن يشتهي الحبس في حمام حار، ليدرك لذة ماء الثلج، إذا شربه، وهو عين الرقاعة والخرق. وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله، فهو بجهله بخساسة الدنيا وحقارتها، بالإضافة إلى الملك الكبير والنعيم المقيم الموعود للمتقين.

وإن كان ذلك لجهله بعاقبة أمره بعد الموت، فعليه أن يطلب العلم الحقيقي، الذي يكشف له حال الإنسان بعد موته، كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم: **(كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتلاعنون فيها)**[2].

وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس وماهيتها، ووجه علاقتها بالبدن، ووجه خاصيتها التي خلقت لها، ووجه التذاذه بخاصيته وكماله، مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله، وقد نبه الشرع عليه في مواضع كثيرة، وأمر بالتفكر في النفس، كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والأرض. وإن كان ذلك لما سبق من عصيانه، فلا ينفع الغم فيه، بل المداواة، وهو المبادرة إلى التوبة وإصلاح ما فرط من أمره»[3].

وتلك المعاني التي ذكرها ابن القيم والغزالي دل عليها عموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

ويلزم من ذلك أن العبد إذا أعرض عن ذكر الله أحاطت الغموم بقلبه من كل جانب.

قال ابن الجوزي: «لا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة. رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عز وجل والإقبال على

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣/ ٢٦٧، رقم ٣٣٦٧، وعبد بن حميد في مسنده، ١/ ١٦٥، رقم ٤٤٥.

(٣) انظر: ميزان العمل، أبو حامد الغزالي ص ١٢٧.

الدنيا، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته»[1].

وجاء في بحر الفوائد للكلاباذي: «إن الإنسان إذا أصابه غم، فأحب أن يتسلى بشيء، أو ضاق صدره من أمر، فأراد أن يفرح، أو أصابته وحشة، فأحب إزالتها عنه، ربما يغني، وهو أن ينغم ويرجع صوته لشيء من الشعر والزجل والمنظوم من الكلام، يطلب بذلك راحة وفرحة، مما هو فيه من الوحشة أو الكرب والغم. والأنبياء والرسل وأفاضل الأولياء والصديقون همومهم هم المعاد، وكربهم كرب الدين، ووحشتهم مما دون الله، وضيق صدورهم عما يشغلهم عن الله، فهم لا يتفرحون من كربهم إلا بذكر ربهم، ولا ينسلون عن غمومهم وهمومهم إلا بمولاهم، فيرجعون أصواتهم بقراءة القرآن، الذي من محبوبهم بدأ وإليه يعود، وبخشيته من قلوبهم، ورقة من أفواه أفئدتهم، ويزان محبته بين ضلوعهم، وماء الاشتياق يجري على خدودهم، فتحسن لذلك أصواتهم؛ لأن حسن الصوت بالقرآن هو قراءته على خشية من الله»[2].

(١) صيد الخاطر ص ١١٠.
(٢) بحر الفوائد ص ٢١٠.

الغم بين التطهير والعقاب

خلق الله العباد وجعلهم يبتلون ويمتحنون ليميز الخبيث من الطيب، وليعلم المجاهدين والصابرين ومن يخافه بالغيب، وليختبرهم أيهم أحسن عملا؛ فالخير والشر يصيب الناس جميعًا في هذه الحياة الدنيا ليس يسلم منه أحد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥].

فقوله جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: «يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم، ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]»[3].

وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٣.

﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

«أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»[(١)].

ومن الابتلاء بالشر ما يصيب المؤمنين من غم بسبب ما ينالهم من أذى على ألسنة المشركين كما قال سبحانه: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

و«هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته والمعنى: لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع. والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب. وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها»[(٢)].

و«اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أي لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره. والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء وذلك في وصف الله محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ يعني بالابتلاء في الأموال بالنقصان منها وقيل بأداء ما فرض فيها من الحقوق، ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾: يعني بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذ لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها»[(٣)].

وأما الأذى المنصوص عليه في الآية فهو ما يصيب المؤمنين من الغم والحزن بسبب ما ينالهم من استهزاء وسب وتشكيك واستخفاف بهم وبدينهم على ألسنة المشركين، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة:٢١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٣.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٢٩.

﴾٣٣﴿ [المطففين:٢٩-٣٢].

«وهو الضر بالقول كقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١].

ولذلك وصفه هنا بالكثير، أي الخارج عن الحد الذي تحتمله النفوس غالبا، وكل ذلك مما يفضي إلى الفشل، فأمرهم الله بالصبر على ذلك حتى يحصل لهم النصر، وأمرهم بالتقوى أي الدوام على أمور الإيمان والإقبال على بثه وتأييده»[1].

وعطف «الأذى الكثير» في الآية على البلاء في الأموال والأنفس يدل على أنه جزء من البلاء الذي يقصد منه التمحيص ورفع منزلة العبد عند الله وتطهيره من الذنوب والآثام، وقد وقع ذلك صريحا في ما روى البخاري بسنده من طريق عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)[2].

و«أصل المصيبة الرمية بالسهم ثم استعملت في كل نازلة.

وقال الراغب: أصاب يستعمل في الخير والشر قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة:٥٠] الآية.

قال: وقيل الإصابة في الخير مأخوذة من الصوب: وهو المطر الذي ينزل بقدر الحاجة من غير ضرر، وفي الشر مأخوذة من إصابة السهم»[3].

وقال الكرماني: المصيبة في اللغة: ما ينزل بالإنسان مطلقا، وفي العرف: ما نزل به من مكروه خاصة وهو المراد هنا»[4].

و«الوصب: الوجع اللازم ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات:٩].

أي: لازم ثابت. والنصب: التعب وقد نصب ينصب نصبا -كفرح يفرح فرحا-، ونصبه غيره وأنصبه لغتان»[5].

والمعنى: «(ما يصيب المسلم من نصب) تعب (ولا وصب) مرض أو مرض دائم ملازم (ولا هم) بفتح الهاء وتشديد الميم (ولا حَزَن) بفتحتين، ولغير أبي ذر (ولا حُزْن) بضم فسكون، هما من أمراض الباطن، ولذلك ساغ عطفهما على الوصب.

وقيل الهم يختص بما هو آت والحزن بما مضى (ولا أذى) يلحقه من تعدي الغير

(١) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ٤/ ١٩٩٢، رقم ٢٥٧٢.
(٣) المفردات ص ٤٩٥.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٤.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٣٠.

عليه (ولا غم) -بالغين المعجمة- وهو ما يضيق على القلب، وقيل: إن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل. وقال المظهري: الغم الحزن الذي يغم الرجل، أي: يصيره بحيث يقرب أن يغمى عليه والحزن أسهل منه»[(١)].

وظاهر الحديث أن الله سبحانه وتعالى يحط عن المؤمن ذنوبه بسبب ما يصيبه من هم وتعب وأذى ومصائب وهو ما رجحه ابن حجر فقال: «وفي هذا الحديث تعقب على الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال: ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور، وهو خطأ صريح فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منها، بل الأجر على الصبر والرضا.

ووجه التعقب أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة، وأما الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة. قال القرافي المصائب كفارات جزما سواء اقترن بها الرضا أم لا لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير وإلا قل، -كذا قال- والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها وبالرضا يؤجر على ذلك، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه. وزعم القرافي أنه لا يجوز لأحد أن يقول للمصاب جعل الله هذه المصيبة كفارة لذنبك لأن الشارع قد جعلها كفارة فسؤال التكفير طلب لتحصيل الحاصل وهو إساءة أدب على الشارع -كذا قال-، وتعقب بما ورد من جواز الدعاء بما هو واقع كالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسؤال الوسيلة له، وأجيب عنه بأن الكلام فيما لم يرد فيه شيء وأما ما ورد فهو مشروع ليثاب من امتثل الأمر فيه على ذلك»[(٢)].

وقال في إرشاد الساري: «وفيه رد على قول القائل إن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منه بل الأجر على الصبر عليها والرضا بها، فإن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الثواب بمجرد حصولها، وأما الصبر والرضا فقدر زائد لكن الثواب عليه زيادة على ثواب المصيبة»[(٣)].

فهذه النصوص القرآنية وما يسندها من الأحاديث النبوية تدل على أن الغم قد يكون بلاء يبتلى به المؤمن ترفع به درجاته وتحط عنه بها سيئاته ويعظم به أجره.

غير أن النصوص القرآنية قد دلت أيضا على أن كل شر يصيب العبد سببه

(١) إرشاد الساري، القسطلاني ٨/ ٣٤٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٥.

(٣) إرشاد الساري، القسطلاني ٨/ ٣٤١.

شيء كسبته يداه، قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

ففي هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها»[(١)].

ولا ريب في أن الهم من هذه المصائب، وهو أثر لها أيضًا؛ فإن الإنسان يصيبه الهم والحزن لما يحل به من بلاء ومصائب.

وعن أبي قلابة، قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأبو بكر رضي الله عنه يأكل، فأمسك فقال: (يا رسول الله إني لراء ما عملت من خير أو شر؟ فقال: (أرأيت ما رأيت مما تكره فهو من مثاقيل ذر الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة)، قال: قال أبو إدريس: فأرى مصداقها في كتاب الله، قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾»[(٢)].

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. الآية، قال: «يعجل للمؤمنين عقوبتهم بذنوبهم ولا يؤاخذون بها في الآخرة»[(٣)].

وظاهر هذه النصوص أن المصائب عقوبات على الذنوب والمعاصي والآثام.

قال ابن عطية: «وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه، فقالت فرقة: هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياه، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر»[(٤)].

وقال عمران بن حصين -وقد سئل عن مرضه-: إن أحبه إلي أحبه إلي الله، وهذا بما كسبت يداي، وعفو ربي كثير. وقال مرة الهمداني: رأيت على ظهر كف شريح قرحة فقلت: ما هذا؟ قال هذا بما كسبت يدي

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٨.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٥٣٩.

(٣) المصدر السابق.
(٤) قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم...الآية»ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:«لا يصيب ابن آدم خدش عودٍ، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرقٍ إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر» جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٩.وهو مرسل كما هو واضح.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم؟ فقال لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم. وروي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله أكرم من أن يثني على عبده العقوبة إذا أصابته في الدنيا بما كسبت يداه)[1].

وقال الحسن بن أبي الحسن، معنى الآية في الحدود: أي ما أصابكم من حد من حدود الله، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه، فإنما هي بكسب أيديكم ويعفوا عن كثيرٍ، فستره على العبد حتى لا يحد عليه»[2].

ومن هذا الباب أيضًا قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤].

وظاهر الآية أن كل سوء عمله المرء جزي به يستوي في ذلك المؤمن والكافر، قال القرطبي: «قال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار، لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا»[3].

ثم استدل على ذلك بما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: (لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قاربوا، وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)[4].

وفي مسند أحمد عن أبي بكر بن أبي زهير، قال: أخبرت أن أبا بكر قال: (يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء[5]؟) قال: بلى. قال:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٧٨، رقم ٦٤٩، والترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، ٥/ ١٦، رقم ٢٦٢٦.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٧٨٣، رقم ٥٤٢٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٤.

(٥) الأذى.

(فهو ما تجزون به)[1].

والآثار في هذا الباب كثيرة[2].

وعليه فالهم والحزن ونحوها مترددة بين كونها بلاء أو عقوبة:

- فهي عقوبة عاجلة يعاقب بها الكافر في الحياة الدنيا، وما أعد الله له يوم القيامة من العذاب المهين أشد وأبقى.
- وهي شيء من العقاب الذي يصيب المؤمن في الحياة الدنيا فيحط عنه العذاب في الآخرة لأن الله لا يجمع عليه العقاب مرتين.
- وهي كذلك من البلاء الذي يرفع من درجة المؤمن عند الله ويزيد في أجره، وليس بين بلاء المؤمن وعقابه فارق إلا إن تصورنا عبدا ليس له ذنب: فبالنظر إلى أنها شيء يحط عنه عقوبة الآخرة فالغم والحزن عقاب، وبالنظر إلى أنه يعظم أجره ويرفع درجته فهو بلاء، والله أعلم.

وقد أخرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن حيان قال: صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة فقال لنافع: لا تمر بي على المصلوب -يعني ابن الزبير-، قال: فما فجئه في جوف الليل أن صك محمله جذعه[3]، فجلس يمسح عينيه ثم قال: يرحمك الله أبا خبيب إن كنت وإن كنت، ولقد سمعت أباك الزبير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعمل سوء يجز به في الدنيا أو في الآخرة)، فإن يك هذا بذاك فهيه هيه، قال الله تعالى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[4].

قال الترمذي: «وهذا عام، ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يجز به في الدنيا أو الآخرة) وليس يجمع الجزاء في الموطنين»[5].

وقال القرطبي: «فدخل فيه البر والفاجر والعدو والولي والمؤمن والكافر، ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بين الموطنين فقال: (يجز به في الدنيا أو في الآخرة) وليس يجمع عليه الجزاء في الموطنين»[6].

قال: «ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر بين الفريقين عن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٣٠، رقم ٦٨. وصححه بن حبان، كما في فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٩٦-٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٧-٤٢١.

(٣) أي: اصطدم به، وكان لا يريد أن يمر عليه.. ومعنى صك: ضرب، والمحمل: شقان على البعير يحمل فيهما، والحبل الذي يعلق به السيف.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٣٤٦.

(٤) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ١٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٩٧.

يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي قال: (لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما هذه بمبقية منا، قال: (يا أبا بكر إنما يجزى المؤمن بها في الدنيا ويجزى بها الكافر يوم القيامة)»[1].

والمعنى: أن ما يصيب الكافر من بأساء وضراء في الحياة الدنيا لا يضع عنه عقوبة الآخرة كما توضع بذلك عن المؤمن.

قال الحكيم الترمذي تعليقًا على حديث ابن عمر السابق: «فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مصلوبًا، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذلك، وذلك لأن المؤمن من يجزى بالسوء في الدنيا بالنصب والتعب ونوائب الدنيا والحزن والغم، والكافر يصيبه ذلك وليس ذاك جزاء له بالسوء الذي قد عمل، وادخر جزاؤه إلى يوم القيامة؛ لأن جميع ما يصيب الكافر من المصائب لا يصبر فيها، وإن صبر فصبره تجلد لا حسبة وتسليم.

والمؤمن في كل ذلك صابر محتسب مذعن، والكافر ساخط على ربه مضمر على عداوته، لأن المؤمن حبب إليه الإيمان وزين في قلبه فالتذت نفسه وطابت فلان القلب ورق الفؤاد وراحت النفس وطابت بلذتها فانقاد له واستسلم وألقي بيديه سلمًا، فإن جاءته أحوال المكاره تحملها وهو في ذلك راض عنه طيب النفس يحمده بلسانه ويرجوه بقلبه وطابت نفسه بما يرى من رحمة الله تعالى عليه بأنه قد محصه وطهره، وإذا خرج من الدنيا انقطع رجاؤه من جميع الخلق وكان متعلق رجائه خالقه.

فإذا أعطى صحيفته يوم القيامة فأتى على سيئاته قيل له تجاوز عن قراءتها فقد تجاوزنا عنك بما أصابك في الدنيا»[2].

(١) المصدر السابق.

(٢) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ١٧.

وسائل النجاة من الغم

لقد وصف القرآن الكريم للغم أدوية ربانية تداوي آلامه وتبدل مكانها رضا وطمأنينة وتسليمًا، ويمكن إجمالها في ما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله:

وهو من أنفع الأدوية في النجاة من الغم وعلاجه، وقد قرر القرآن الكريم أن الإيمان بالله سبب لهوان المصائب إذا ما نزلت كما هي سبب لكبح النفس عن الطغيان في حال النعمة.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وإننا -إذا تأملنا نصوص القرآن الكريم- نلمح أن هوان هذه المصائب ينتج عن أمرين:

أحدهما: ما ينبني على الإيمان من اعتقاد العبد أنه ملك لله المتصرف في شؤون خلقه بقدرته وحكمته وتدبيره، وإيمانه بأن المرجع إليه يوم القيامة الذي يعد الفوز فيه هو الفوز المبين، والخسران فيه هو الخسران العظيم، ولا تعد الدنيا كلها -إذا ما قيست به- إلا متاعًا قليلًا.

كما قال جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

«ففي قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب»[(١)].

وهذا القول إنما يصدر عن الذين تخلقوا بالصبر واستداموه حتى صار وصفا راسخا لهم، ولذلك «وصف الصابرين بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟﴾ لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر.

إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، إذ يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه فيثيبهم على ذلك.

فالمراد من القول هنا القول المطابق للاعتقاد، إذ الكلام إنما وضع للصدق، وإنما يكون ذلك القول معتبرًا إذا كان تعبيرًا عما في الضمير، فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل، وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع.

وقد علمهم الله هذه الكلمة الجامعة

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٤.

لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحس، ولأن في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليما له للناس»[1].

وهم إذا قالوا ذلك هانت المصائب في نفوسهم وخفت ألمها، ولهم فوق ذلك منحة أخرى: وهي أن يبدلهم الله خيرا مما فقدوا، فقد روى مسلم في صحيحه عن أم سلمة، أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها)[2].

والثاني: ما وعد الله عز وجل -ووعده الحق- من أن يلقي في نفس المؤمن الهدى، قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١].

وقد تضمن مطلع الآية تذكيرا بأن كل ما يصيب العبد من خير أو شر إنما هو بأمر الله، ومن علم ذلك سلم أمره لله، «وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايا وخصها بالذكر بأنها الأهم على الناس والأبين أثرا في أنفسهم، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خير وشر، وذلك أن الحكم واحد في أنها ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، والإذن في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع»[3].

وتكرر هذا في سور أخرى فأخبر سبحانه في هذه الآية «بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد:٢٢].

وهكذا قال هاهنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينا صادقا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرا منه»[4].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ قال فيه المفسرون المعنى: ومن آمن وعرف أن كل شيء بقضاء

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ٢/ ٦٣١، رقم ٩١٨.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٧.

الله وقدره، وعلمه، هانت عليه مصيبته وسلم الأمر لله تعالى»[1].

فعلى هذا القول تكون الهداية هداية الإرشاد إلى معرفة الله والإيمان بقدره وحكمته. وقد دلت الآية على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يلقي الهداية في نفس العبد ويؤيده ما «قرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مصرف: «نهد» بالنون»[2].

«وقرأ أبو بكر الصديق، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك: «يهد» بياءٍ مفتوحة. ونصب الدال «قلبه» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هدأ يهدأ: إذا سكن. فالمعنى: إذا سلم لأمر الله سكن قلبه»[3].

ومعناه حصول الطمأنينة فيه.

ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان بالقدر خيره وشره.

ثانيًا: الإيمان بالقدر:

إذا حقق المغموم الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، وآمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، ولا راد لما قدر وقضى من أحدٍ من مخلوقاته، ووقف وقفة مع نفسه عند حلول الهم والحزن بسبب ما نزل به، وتذكر بأن الذي قدر هو رب الأرض والسماء، ورب العرش العظيم، ورب الخلق أجمعين، وعرف أن هذا من تمام أركان الإيمان ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

(وتؤمن بالقدر خيره وشره)[4]؛ نزل في قلبه الطمأنينة والسكينة، وزال عنه ما حل به الغموم والهموم والأحزان.

قال ابن القيم: «وقيل: أكثر الناس همًا بالدنيا أكثرهم همًا في الآخرة، وأقلهم همًا بالدنيا أقلهم همًا في الآخرة. فالإيمان بالقدر والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن»[5].

وينتج عن الإيمان بالله وبالقدر خيره وشره قناعة العبد بما قسم الله له من رزق وصحة ونحوها.

ثالثًا: القناعة:

القناعة هي قبول الحظ المقسوم للإنسان من الرزق والمال والأولاد والقوة والصحة والمتاع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)[6].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٩٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.
(٥) مدارج السالكين ٢/ ٢٢١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ٨/ ٩٥، رقم ٦٤٤٦،

وأثر القناعة كسبب لدفع الهموم هام جدًا، إذ إن كل قنوع غير متشوف لما في أيد الناس، وغير ساخط على حاله من الفقر أو الصحة أو غيره. لذلك وصف الله أهل السعادة بالصبر حال البلاء والجود حال العافية، وجعلها خلقا لهم من دون سائر الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [هود:٩-١١].

ويروى: (الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن)[١].

قيل لبعض الحكماء: «فما سرور الدنيا؟ قال: الرضاء بما رزقت. قال: فما غمها؟ قال: الحرص على ما لعلك لا تناله»[٢].

وقال ابن القيم: «وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين، أحداهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها. والثاني: التقصير في أعمال البر والطاعة»[٣].

وقال أيضًا: «الرابع عشر (من استواء النعمة والبلية عند المؤمن في الرضى بهما؛ لأنهما من الرضى عن الله): أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة»[٤].

رابعًا: طاعة الله ورسوله:

وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فرع عن الإيمان بالله، وهو أنجح وسيلة للنجاة من الغم والهم والحزن والشفاء منه، وذلك بالالتزام بما أمر الله به ورسوله، والانتهاء عما نهى الله عنه ورسوله، ففيهما كمال السعادة، وذهاب الغموم والهموم

ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، ٢/ ٧٢٦، رقم ١٠٥١.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/ ١٧٧، رقم ٦١٢٠ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الزهد في الدنيا يريح القلب، والجسد). ثم قال: لم يرو هذا الحديث عن علي بن زيد إلا أشعث بن براز، تفرد به يحيى بن بسطام.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٦: وفيه أشعث بن نزار ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.
وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ٢٨٨ عن عبد الله الداري قال: «كان أهل العلم بالله والقبول منه يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن وإن الشبع يقسي القلب ويفتر البدن».

(٢) انظر: سراج الملوك، الطرطوشي ص ١٥٧.

(٣) عدة الصابرين ص ٢٢٧.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٠٧.

والأحزان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور:٥٤].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله قد ضمن السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله، وتوعد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك، فمناط السعادة طاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩]»[1].

وقال ابن القيم: «قال بعض العلماء: فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم؛ فهذا في الأكل والشرب، وهذا في التجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلًا اليه.

بل لعل أكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده، ومعالمته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء، فإن سالك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنى الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذا الطريق، ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعادته. وبالله التوفيق»[2].

وقال أيضًا في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

«وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى

(١) منهاج السنة ٣/ ٢٤٤.

(٢) الجواب الكافي ص ١٣٦.

سنته بعد وفاته؛ سعادة الدارين. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إلي وإلى رسولي، خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم، وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلًا وآجلًا، ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه، علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها، إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه.

فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة، والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول؛ ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين؛ فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا: بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم علمًا، والقيام به عملًا كمال السعادة»[(١)].

وقد خص القرآن الكريم في هذا الباب من عموم الطاعات ثنتين: الصبر والصلاة.

خامسًا وسادسًا: الصبر والصلاة:

أمر القرآن الكريم المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر بني إسرائيل بأن يستعينوا على ما نزل بهم من البلاء بالصبر والصلاة، فقال سبحانه مخاطبا بني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن جرير: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾: استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري، واتباع رسولي محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر عليه والصلاة»[(٢)].

و«الصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف، وصبرت

(١) زاد المهاجر إلى ربه ص ٤٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٠.

فلانًا: خلفته خلفة لا خروج له منها.

والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضاده المذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرًا»[1].

ولما عطف الصبر على الصلاة قال بعض المفسرين إن المقصود به الصيام، وذلك لتضمن الصيام للصبر.

قال ابن جرير: «وقد قيل: إن معنى «الصبر» في هذا الموضع: الصوم، و«الصوم» بعض معاني «الصبر». وتأويل من تأول ذلك عندنا أن الله تعالى ذكره أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله، وترك معاصيه. وأصل الصبر: منع النفس محابها، وكفها عن هواها؛ ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر، لكفه نفسه عن الجزع؛ وقيل لشهر رمضان «شهر الصبر»، لصبر صائميه عن المطاعم والمشارب نهارا، وصبره إياهم عن ذلك: حبسه لهم، وكفه إياهم عنه، كما تصبر الرجل المسيء للقتل فتحبسه عليه حتى تقتله. ولذلك قيل: قتل فلان فلانًا صبرًا، يعني به: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول «مصبور»، والقاتل «صابر»»[2].

ويحتمل أن يكون الصبر على إطلاقه وحينئذ «ففيما أمروا بالصبر عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث: عدم الرئاسة»[3].

وأما الأمر الثاني الذي أمروا أن يستعينوا به فهو الصلاة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

و«خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها وكان عليه السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[4].

قال ابن جرير: «فإن قال لنا قائل: قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله، وترك معاصيه، والتعري عن الرياسة، وترك الدنيا؟ قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا

(١) المفردات ص ٤٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١١.

(٣) زاد المسير ١/ ٦١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٧١.

وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعد الله فيها لأهلها. ففي الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة الله على الجد فيها، كما روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]»[2].

هذا ومع أن الله عز وجل قد أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، غير أنه أخبر أنها ستثقل على كثير من الناس: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: «﴿وَإِنَّهَا﴾: يعني الصلاة وقيل الاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يعني المؤمنين، وقيل: الخائفين، وقيل: المطيعين المتواضعين لله، وأصل الخشوع السكون؛ فالخاشع ساكن إلى الطاعة، وقيل: الخشوع الضراعة، وأكثر ما تستعمل في الجوارح.

وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لأن من لا يرجو لها ثوابًا ولا يخاف على تركها عقابًا فهي ثقيلة عليه. وأما الخاشع الذي يرجو لها ثوابا ويخاف على تركها عقابا فهي سهلة عليه»[3].

فلما كان الصبر والصلاة عونا على البلاء بأنواعه ومخففا لوقعه في النفس «أمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبار بني إسرائيل أن يجعلوا مفزعهم في الوفاء بعهد الله الذي عاهدوه إلى الاستعانة بالصبر والصلاة كما أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال له: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:١٣٠].

فأمره جل ثناؤه في نوائبه بالفزع إلى الصبر والصلاة»[4].

وكما توجه هذا الأمر لأهل الكتاب، فقد أمر به المسلمون أيضا كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٣-١٥٤].

وهو ما يؤكد أن هذه الوصية الإلهية قد توجهت إلى المؤمنين من أتباع جميع أنبياء الله عليهم السلام.

سابعًا: الدعاء:

في معرض خبره سبحانه عن الذين أمرنا أن نقتدي بهم من الأنبياء، قص القرآن الكريم دعوة يونس عليه السلام في بطن

---

(١) عن حذيفة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة). أخرجه أبو داود في سننه، أبواب قيام الليل، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، ٢/ ٣٥، رقم ١٣١٩، وأحمد في مسنده، ٣٨/ ٣٣٠، رقم ٢٣٢٩٩.وحسنه الألباني.

(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٢.

(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ١/ ١٤.

الحوت.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

أما «النون» فهو: الحوت ولقب به يونس لأنه التقمه ولبث في بطنه[١].

ومعنى أنه ذهب مغاضبًا: أي لقومه، «وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم»[٢].

قال السعدي: «والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، ظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته. قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[الصافات:١٤٣-١٤٤].

ولهذا قال هنا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ أي الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ«يونس» عليه السلام»[٣].

وقد تضمنت الآية أن يونس عليه السلام قد أصابه من البلاء الذي نزل به غم فكشفه عز وجل عنه بكشف أسبابه حين توجه إليه داعيا مخلصا، كما تضمنت أن هذا الدعاء مستجاب من جميع المؤمنين كما استجيب منه عليه السلام.

وقد وقع النص على ذلك صراحة في ما روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)**[٤].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٢٩، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح

وفي رواية للحاكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا بها يونس حيث ناداه في الظلمات الثلاث، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين). فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾)[1].

وعليه فالدعاء من أعظم أسباب علاج الغم وتفريج الكربة لمن توجه إلى الله مخلصًا متضرعًا. وقد تضمنت السنة -في هذا الباب- أدعية نبوية مأثورة كثيرة جدًا مبثوثة في كتب الأدعية والأذكار، منها:

١. ما روى الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرض رب العرش الكريم)[2].

٢. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال)[3].

٣. وعنه كذلك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)[4].

٤. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)[5].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ١/ ٦٨٥، رقم ١٨٦٥. والذكر، ١/ ٦٨٤، رقم ١٨٦٢. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، ٨/ ٧٥، رقم ٦٣٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الدعاء عند الكرب، ٤/ ٢٠٩٢، رقم ٢٧٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، ٤/ ٣٦، رقم ٢٨٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، ٥/ ٥٢٠، رقم ٣٤٨٤. وحسنه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٣٢٤، رقم ٥٠٩٠. وحسنه الألباني في الكلم الطيب ص١١٧.

٥. وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أعلمك كلماتٍ تقوليهن عند الكرب أو في الكرب: الله الله ربي لا أشرك به شيئًا)[١]. وفي رواية أنها تقال سبع مرات.

٦. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما قال عبدٌ قط إذا أصابه همٌ وحزنٌ: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحًا)[٢].

٧. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فإنه لم يدع بها مسلمٌ ربه في شيءٍ قط إلا استجاب له)[٣].

٨. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه). قال أبيٌّ: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: (ما شئت). قال: قلت الربع؟ قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك). قلت: النصف؟ قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك). قال: قلت فالثلثين؟ قال: (ما شئت فإن زدت فهو خيرٌ لك). قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: (إذًا تكفى همك ويغفر لك ذنبك)[٤].

ثامنًا: الذكر والاستغفار والتوبة:

من أسباب النجاة من الغم: المداومة

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب في الاستغفار، ٢/ ٨٧، رقم ١٥٢٥.
وصححه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢٤٦، رقم ٣٧١٢.
وصححه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٦٥، رقم ١٤٦٢.
وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٩٩.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٦٣٦، رقم ٢٤٥٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٤.



على الذكر الشرعي: كقراءة القرآن الكريم مع التدبر والتفكر، والإكثار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتوبة والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مصحوبًا كل ذلك بالتذلل والخضوع لمالك الملك، ومفرج الكروب، وكاشف الهم والغم، الرب العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وذلك في كل حال من الأحوال، وفي كل وقت من الأوقات، ليلًا ونهارًا؛ فيزيل بذلك الهم والغم عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور والبسط.

ويشهد لذلك قوله سبحانه عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

أي: «واذكر قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن متى عليه السلام، أرسله الله إلى قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعدهم بالعذاب فلم ينيبوا، ولم يصبر عليهم كما أمره الله، وخرج من بينهم غاضبًا عليهم، ضائقًا صدره بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة، فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس، والتقمه الحوت في البحر، فنادى ربه في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت تائبًا معترفًا بظلمه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له دعاءه، وخلصناه من غم هذه الشدة، وكذلك ننجي المصدقين العاملين بشرعنا»[1].

وقد روى ابن جرير بسنده عن سعد بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصةً، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) فهو شرط الله لمن دعاه بها)[2].

هذا ومع تضمن كلام يونس عليه السلام لمعنى الدعاء فإنه لم يكن صريحًا.

كما نص على ذلك القرطبي في تفسير الآية، قال: «وليس هاهنا صريح دعاء وإنما هو مضمون قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاعترف بالظلم فكان تلويحا»[3].

وقد نص القرآن الكريم على أنه تسبيح

(١) التفسير الميسر ص ٣٢٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥١٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤.

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وتضمنت كلام يونس عليه السلام السالف إشارة إلى التوبة والاعتراف بالتقصير أيضا فإنها سبب في زوال الغموم.

وهو نص على أن الذكر والاستغفار سبب لرفع الكروب ورفع أسبابها.

وذكر ابن القيم رحمه الله خمسة عشر نوعًا من الدواء يذهب الله بها الهم والحزن وهي[1]:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الإلهية.

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات واللهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة. **الخامس عشر:** البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى من هما بيده.

موضوعات ذات صلة:

البشرى، البكاء، الحزن، الرضا، السعادة، الفرح، اليأس

(١) انظر: زاد المعاد ٤/ ١٨٠.





عناصر الموضوع

المجلد السادس والعشرون

مفهوم الغيب

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غيب) تدل على تستر الشيء عن العيون، فالغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله، ويقال: ووقعنا في غيبةٍ وغيابة، أي: هبطة من الأرض يغاب فيها، والغابة: الأجمة[(١)].

والغيب: خلاف الشهادة، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى: الغائب، وكل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيبٌ، وجمعه غيوب.

والغيب: المطمئن من الأرض؛ لأنه غاب عن الأبصار، و(الغيبة): الوقيعة في الناس؛ لأنها لا تقال إلا في غيبة، مأخوذة من الاغتياب، ويقال: اغتاب فلانٌ فلانًا يغتابه اغتيابًا وغيبة، وقال بعضهم: بدا غيبان الشجرة، وهي عروقها التي تغيبت في الأرض، فحفرت عنها حتى ظهرت[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الواحدي: «الغيب هو ما غاب علمه عن الحس والضرورة، مما يدرك بالدليل»[(٣)].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو مالا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداثة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد»[(٤)].

وقال المناوي: «الغيب ما غاب عن الحس، ولم يكن عليه علم يهتدي به العقل، فيحصل به العلم»[(٥)].

إذًا فالغيب: ما غاب عن الحواس، أو ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداثة العقول، بحيث لا يدرك بواحدٍ منهما ابتداء، ونتوصل إلى معرفته بالخبر الصادق، وبالآثار التي تدل عليه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٩٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٩٨-٥٠٢.

(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٦٩.

(٤) المفردات ص ٣٦٦.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٤٤.

الغيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غيب) في القرآن الكريم (٥٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم فاعل	٤	﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٧]
مصدر	٥٣	﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن:٢٦]
اسم	٢	﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠]

وذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الغيب في القرآن على أحد عشر وجهًا[٢]، لكن بالتأمل في هذه الوجوه نجد أن الغيب في الاستعمال القرآني يرجع إلى وجهين:

الأول: كل ما غاب عن العيون: سواء كان محصلًا في القلوب أو غير محصل، مما لا يعلمه إلا الله[٣]، قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه[٤]؛ لأنهم لم يروها ولم يعاينوها، فهي غيب لهم[٥].

الثاني: الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٥٣]. يعني: يرمون بالظن.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٠٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٥٠، ٣٥١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٥٧-٤٥٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى: الخلق، والقضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، القضاء المقرون بالقدر، والمراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق[(١)].

القضاء اصطلاحًا:

«عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد»[(٢)].

وقيل: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[(٣)].

الصلة بين الغيب والقضاء:

القضاء جزء من الأمور الغيبية، فالغيب أعم من القضاء.

٢ القدر:

القدر لغة:

من القدرة، فالله القادر والمقتدر والقدير، يقال: قدر الإله كذا تقديرًا، وإذا وافق الشيء الشيء قلت: جاءه قدره، والقدر القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور[(٤)].

القدر اصطلاحًا:

«القدر خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد، مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال»[(٥)].

وقيل: هو علم الله تعالى بالأشياء وكتابته لها قبل كونها، على ما هي عليه، ووجودها على

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٧٧.
(٣) انظر: رسائل في العقيدة، ابن عثيمين ص٣٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٧٤.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٧٤.



ما سبق به علمه، وكتابته بمشيئته وخلقه[١].

الصلة بين الغيب والقدر:

الغيب أعم من القدر، فالقدر جزء من الغيب.

٣ الشهادة:

الشهادة لغة:

أصل معنى الشهادة في اللغة يدل على حضور وعلم وإعلام، والشاهد هو الحاضر[٢].

الشهادة اصطلاحًا:

والمشاهدة هي الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة، والمشاهدات هي المحسات، أي: الأمور التي نحكم عليها بإحدى الحواس، والمراد بـعالم الشهادة: كل ما هو حاضر مشاهد، نستطيع أن ندركه بحواسنا ونحكم عليه بها[٣].

الصلة بين الغيب والشهادة:

هما ضدان، فالغيب مالا يقع تحت الحواس، والمشاهد المحسوس.

---

(١) انظر: تعريف القضاء والقدر وحكم الإيمان به، محمد الشاوي، شبكة الألوكة.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢١.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٢٠٨، التعريفات، الجرجاني ص ١٠٩، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ١/ ١٠٤٣.

منزلة الايمان بالغيب

إن القرآن الكريم دعوةٌ للناس جميعًا على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير؛ لذا كان منه ما يتجه للقلب ليتفتح للموعظة، وكان منه ما يتجه للعقل ليذعن للمنطق والدليل، وكان منه -بجانب هذا وذاك- ما يشتمل على الحقيقة سافرةً يفهمها الجميع، وكان منه ما يجيء في شكل أمثالٍ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهذا «لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار»[١].

فكان لابد إذًا من أن يتجه القرآن الكريم لتصحيح العقيدة قبل كل شيء، وبيان منزلة الإيمان بالغيب والحث عليه، ولبيان الحق في هذه القضية العقدية الخطيرة المؤثرة في الحياة البشرية، بوسائل وأساليب متنوعة، ونهج في ذلك منهجًا متكاملًا متوافقًا مع الفطرة والعقل[٢].

ويمكن إجمال هذه الأساليب في الآتي:

أولًا: اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب:

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩١.

(٢) انظر: لعقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، عثمان جمعة ضميرية، ص٢٦-٦٢.

تضافرت الآيات القرآنية الكريمة في بيان اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب المطلق، بما لا يدع مجالًا للشك والريب، فهو سبحانه وحده الذي يعلم ذلك ويحيط به إحاطة شامله، وما كان لأحدٍ أن يطلع على شيء منه إلا باطلاع الله تعالى له عليه وفق حكمته ومشيئته. وسنجتزئ هنا ببعض النصوص الكريمة في ذلك، وسيأتي مزيد بيانٍ ينطوي على جملة من الأحاديث.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال إمام المفسرين أبو جعفرٍ الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية؛ فقال السدي: وما كان الله ليطلع محمدًا على الغيب، ولكن الله اجتباه فجعله رسولًا.

وقال ابن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فيما يريد أن يبتليكم به، لتحذروا ما يدخل عليكم فيه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيصطفيه ويعلمه.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق

والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء -كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد- وجهاد عدوه، وما أشبه ذلك من صنوف المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، غير أنه -تعالى ذكره- قال: ﴿يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيصطفيه، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم، بوحيه ذلك إليه ورسالته»[(١)].

ولئن ذكر الطبري رحمه الله بعضًا مما تصدق عليه الآية الكريمة، فإنها تبقى أبعد مدىً في الدلالة والشمول، قال ابن سعدي رحمه الله: «ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم. فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين؛ ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه»[(٢)].

ثم جاءت آية مفاتح الغيب تحصر علم الغيب بالله تعالى[(٣)]، فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٥٨.
وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤/ ١٧٩: «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ يعني: أنه أراد أن يميز لكم الخبيث فتعرفوا أعداءكم، ولم يكن من شأن الله إطلاعكم على الغيب، فلذلك جعل أسبابًا من شأنها أن تستفز أعداءكم فيظهروا لكم العداوة فتطلعوا عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسسًا على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها».

(٣) وليس في الآية الكريمة أداة حصر، كما في حديث مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ الآية الكريمة كما سيأتي.ووجه الحصر في هذه الأمور الخمسة: أن الفعل إذا كان عظيم الخطر، وما ينبني عليه الفعل رفيع الشأن، فهم منه الحصر على سبيل الكناية، لاسيما إذا لوحظ فيه ما ذكر في أسباب النزول من أن العرب كانوا يدعون علم نزول الغيث، فيشعر بأن المراد من الآية نفي علمهم بذلك واختصاصه بالله سبحانه وتعالى وحده، وفي تقديم قوله: ﴿وَعِندَهُۥ﴾ ما يشعر بذلك أيضًا.
انظر:فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، عمدة القاري، العيني ٢/ ٢٩٣.

كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثيرٌ منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

ولما طلب كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم آية تدل على صدقه عندما ظنوا أنه غير مؤيد من الله، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة -وإن كانت أعلى من مداركهم- جوابًا فيه تعريض بالتهديد لهم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

أي: إن الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله تعالى وحده.

وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه من أمور الغيب؛ ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام[١].

ثم جاء الحصر والقصر بأسلوب آخر في موضع آخر، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ولله ملك كل ما غاب عنك في السموات والأرض فلم تطلع ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم، من إقامة على الشرك، أو إقلاعٍ عنه وتوبة، وإلى الله معاد كل عاملٍ وعمله، وهو مجازٍ جميعهم بأعمالهم[٢].

ففي الآية الكريمة بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب لأن اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لام الملك، وهو ملك إحاطة العلم، أي: لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيب عنهم، ونذارة المشركين بما توعدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة. وتقديم المجرورين في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٤٤-٥٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ لإفادة الاختصاص، أي: إن الله تعالى لا غيره، يملك غيب السماوات والأرض؛ لأن ذلك مما لا يشاركه فيه أحد[1].

ثم يخبر الله تعالى في آية أخرى بأنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض، فيقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فالغيوب كلها -كتلك التي تقدمت الإشارة إليها في الآيات السابقة- اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له[2].

وقد تقتضي حكمة الله تعالى أن يطلع أحد رسله على طرف من هذا الغيب، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وذلك لأن علم الغيب لله وحده، فلا يطلع على غيبه الذي يعلمه أحدًا من الناس ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾؛ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب. والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من بين يدي الرسول، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يجعل له حفظةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم الناس. وقال الزجاج: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ﴾ يدي الملك ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾. وقيل: يسلك من بين يدي الوحي. فـ (الرصد) من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمع ما ينزل من الوحي»[3].

ثانيًا: الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين:

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، فيجعل هذه الصفة قاعدةً من قواعد الإيمان الأساسية وركنًا من أركانه، وهذا منهج قرآني ونبويٌّ، فكثيرًا ما يجعل الركن صفةً للمؤمنين ملازمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٩٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٠٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٨٤.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وهذا مشهد وديع أليف، رضي جميل، ترسمه الآيات الكريمة. إنه مشهد الجنة، تقرب من المتقين؛ حتى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٠-٣٣].

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة، فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون[1].

قال محيي السنة الإمام البغوي رحمه الله: «﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قربت وأدنيت، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ينظرون إليها قبل أن يدخلوها. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء والآخرون بالتاء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الطاعة عن المعاصي.

قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الشعبي ومجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها.

وقال الضحاك: هو التواب.

وقال ابن عباس وعطاء: المسبح.

ومعنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلصٍ مقبلٍ إلى طاعة الله.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها. أي: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ بسلامة من العذاب والهموم. وقيل بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٦٥.

الكريم»[1].

وهو المعنى نفسه يتكرر في آيات أخرى تجعل الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين والمؤمنات، وترتب على ذلك آثاره الهائلة العظيمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

ثالثًا: التلازم بين أركان الإيمان والغيب:

والإيمان بالله سبحانه وتعالى وهو أعظم أركان الإيمان وأصلها، هو إيمانٌ بالغيب.

فذات الله سبحانه غيب بالقياس إلى البشر، فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله.

والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب؛ فالساعة بالقياس إلى البشر غيب، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، تصديقًا لخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

والإيمان بالملائكة عليهم السلام إيمان بالغيب، لا يعرف عنهم البشر إلا ما يخبرهم به الله تعالى، على قدر طاقتهم وحاجتهم، وما كان البشر حاضرين شاهدين على خلق الملائكة وإيجادهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٤].

والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٢-٤٦٣.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنجد في هذا النص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، كلٌّ آمن بالله -وهو غيب- وآمن بما أنزل الله على رسوله، وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من اطلاعه صلى الله عليه وسلم على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله سبحانه كما قال في الآية الأخرى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ويبقى من الغيب الذي لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به: قدر الله -وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع- كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وهذا التلازم بين الإيمان بالغيب وسائر أركان الإيمان يدل عليه أيضًا ويؤكده: أن الله تعالى جعل الكفر بشيء من الأركان، وهو أيضًا غيب، جعله كفرًا بالله تعالى يستحق صاحبه العذاب المهين[1].

فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

رابعًا: حسن عاقبة الذين يؤمنون بالغيب:

قال سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦١ - ٦٣].

قال السمين الحلبي في (الدر المصون): «قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن الباء حاليةٌ. وفي صاحب الحال احتمالان، أحدهما: ضمير الجنة وهو عائدُ الموصول، أي: وعدها، وهي غائبةٌ عنهم لا يشاهدونها. والثاني: أن يكون من ﴿عِبَادَهُ﴾، أي: وهم غائبون عنها لا يرونها، إنما آمنوا بمجرد الإخبار منه. والوجه الثاني: أن الباء سببيةٌ، أي: بسبب تصديق الغيب، وبسبب الإيمان به»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٥٢-٣٥٣، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٨٥، دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ١٠٢، الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، عثمان ضميرية، ص٢٢-٢٥.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٦١٢.

وهذا الوجه الثاني ألصق وأوضح في الدلالة علة ما نريد في هذه السطور، فإن إيمانهم بالغيب، وهو أول صفات المؤمنين المتقين المهتدين، هو سبب دخولهم تلك الجنة التي وعدها الله تعالى عباده المؤمنين.

و لا بأس بمقتطفات من أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

أي: كائنًا لا محالة. وقوله هاهنا: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه»[١].

ثم يأتي البيان بأن عاقبة الإيمان بالغيب هي دخول الجنة التي يورثها الله عباده الصالحين المتقين. ولا نزال نذكر أن مفتتح سورة البقرة جعلت الكتاب الكريم هدىً للمتقين الذين يأتي في أول صفاتهم صفة الإيمان بالغيب. وهنا يأتي قوله تعالى:

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾

أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا! ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بـ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا! ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٧-٢٤٨.

والمعاني كلها صحيحة ثابتة»[١].

ولا يقتصر حسن عاقبة المؤمنين على ما تستقيم به حياتهم الأخروية فحسب، بل إن العاقبة الحسنة تظهر وتبرز هنا في الدنيا قبل الآخرة، فالمؤمنات الصالحات القانتات الحافظات للغيب، تستقيم حياتهن مع أزواجهن في بيوتهن، وهن موضع عناية ووصية يوصي الله تعالى بها الأزواج رعيةً لهن بما حفظن بالغيب.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فإنه يعني: حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء امرأةٌ إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك). قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية)[٢].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله:

«وهذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على صحة ما قلنا في تأويل ذلك، وأن معناه: صالحاتٌ في أديانهن، مطيعاتٌ لأزواجهن، حافظات لهم في أنفسهن وأموالهم. وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره، ومعناه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فأحسنوا إليهن وأصلحوا. قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إذا كن هكذا، فأصلحوا إليهن»[٣].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «هذا تفصيل لحال النساء في هذه الحياة المنزلية التي تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل، ذكر أنهن فيها قسمان: صالحات وغير صالحات.

وأن من صفة الصالحات القنوت، وهو السكون والطاعة لله تعالى، وكذا لأزواجهن بالمعروف وحفظ الغيب. أي: حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج.

ويدخل في هذا وجوب كتمان ما يكون

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ص ٣٠٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦١، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٩٥-٢٩٨، ومعالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٠٧-٢٠٨.

بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولا سيما حديث الرفث، فما بالك بحفظ العرض، و هذه العبارة هي أبلغ ما في القرآن من دقائق كنايات النزاهة، تقرؤها خرائد العذارى جهرًا، ويفهمن ما تومئ إليه مما يكون سرًّا، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق بأطراف أناملها، فلقلوبهن الأمان من تلك الخلجات التي تدفع الدم إلى الوجنات.

ناهيك بوصل حفظ الغيب بما حفظ الله، فالانتقال السريع من ذكر ذلك الغيب الخفي إلى ذكر الله الجلي، يصرف النفس عن التمادي في التفكر فيما يكون وراء الأستار من تلك الخفايا والأسرار، وتشغلها بمراقبته عز وجل.

والمعنى: حافظات للغيب بحفظ الله أي: بالحفظ الذي يؤتيهن الله إياه بصلاحهن، فإن الصالحة يكون لها من مراقبة الله تعالى وتقواه ما يجعلها محفوظة من الخيانة، قوية على حفظ الأمانة، أو حافظات له بسبب أمر الله بحفظه، فهن يطعنه ويعصين الهوى، فعسى أن يصل معنى هذه الآية إلى نساء عصرنا اللواتي يتفكهن بإفشاء أسرار الزوجية، ولا يحفظن الغيب فيها».

وقال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ شروع في تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، أي: فالصالحات منهن ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: لمواجب الغيب، أي: لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال. وقيل: حافظات لأسرارهم.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ما مصدرية، أي: بحفظه تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو موصولة أي: بالذي حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن.

وقرىء ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ﴾ بالنصب على حذف المضاف أي: بالأمر الذي حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال»[1].

وفي هذا المعنى نفسه تتضافر الآيات الكريمة، في بيان ما ينتظر المؤمنين بالغيب من نعيم دائم لا ينقطع، ومن مزيد لهذا النعيم مما ادخره الله تعالى لهم من رؤية الله تعالى، وهي من أعلى وأعظم أنواع النعيم بعد دخول الجنة، مع ما أكرمهم الله تعالى به من الفوز والمغفرة والأجر الكريم، فقال

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٧٧.
وأفاض في هذا المعنى السيد رشيد رضا في المنار ٥/ ٥٥-٥٨.

الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

خامسًا: طريقة القرآن في عرض علم الله الشامل للغيب:

السياق القرآني يعرض المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري، كهذه المؤثرات الغيبية، في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب من الزمان ومغيب في المجهول، وموضع الموت والدفن، وهو مبعد في الظنون.

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء، ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها، تدق في أطرافها، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول، وتقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد، و لانكشف منها القاصي والداني، ولكنها تظل مغلقة في وجه الإنسان ووراء علم الإنسان، تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره، إلا بإذن منه وإلا بمقدار[1].

«وفي مجال الغيب المكنون، كما في كل مجال من مجالات الكون وآفاقه وآماده، يحيط علم الله سبحانه، وهو العليم بكل شيء، بكل ما في الوجود، كبيره وصغيره، ظاهره وخفيه، دقه وجله، في مجال الزمان: ماضيًا وحاضرًا مهما بلغت كثرة وعظمة، ذاك كله يحيط الله سبحانه وتعالى به علمًا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان والمكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب، ولكن أين هذا الذي نقوله نحن -بأسلوبنا البشري المعهود- من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح،

(١) في ظلال القرآن ٢١/ ٢٧٩٩.

ووراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجٍ ووادٍ، وهو يرتاد -أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيد الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عدٌّ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول، جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصرف آمادها الخيال، وهي ترسم هكذا دقيقةً كاملة شاملة في بضع كلمات، ألا إنه الإعجاز!

وننظر في هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر، إن الفكر البشري -حيث يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته- لا يرتاد هذه الآفاق، إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر، ولها حدود، إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته، فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبأة في ظلمات الأرض؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبؤونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته، فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، فما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الاطلاق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس ما بين أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه

البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأنٌ يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ، فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الواسع العميق الرائع، مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعًا، والحب المخبوء في أطوار الأرض جميعًا والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعًا، إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية ولا تلم به النظرة البشرية، إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده المشرف على كل شيء المحيط بكل شيء الحافظ لكل شيء الذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شيء، الصغير كالكبير، والحقير كالجليل والمخبوء كالظاهر والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيدًا حدود التصور البشري وحدود التعبير البشري أيضًا، ويعلمون -من تجربتهم البشرية- أن مثل هذا المشهد لا يخطر على القلب البشري، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضًا والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله؛ ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلًا!»[(١)].

(١) في ظلال القرآن ٧/ ١١١١-١١١٣.

أنواع الغيب ومفاتحه

الغيب نوعان رئيسان:

- نوعٌ أقام الله تعالى عليه دليلًا عقليًا أو سمعيًا، كالخالق وصفاته تبارك وتعالى، واليوم الآخر وأحواله. وهو المراد بالغيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.
- ونوعٌ لم يجعل عليه دليلًا، لا عقليًا ولا سمعيًا، وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

وكل منهما يندرج تحته مراتب فرعية، من حيث إمكانية الاطلاع عليه ومعرفته، وعدم إمكانية ذلك[1].

وفيما يلي إيجاز لهذين النوعين الرئيسين، وما يتفرع عنهما، ثم بيان مفاتح الغيب. وذلك فيما يأتي:

أولًا: الغيب المطلق الحقيقي:

وهو ما يغيب عن الحواس والعقول معًا، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فهو محجوب عن الخلق جميعًا، ولا يمكن لمخلوق أن يعلمه.

وهذا هو الغيب الذي تتناوله الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثم إن الغيب من هذا النوع ينطوي على مرتبتين اثنتين:

المرتبة الأولى: ما ورد فيه نصٌّ صريح بأن الله تعالى قد كتمه عن الخلق جميعًا، حتى الأنبياء والملائكة، كعلم قيام الساعة، وسائر الأمور الخمسة التي هي مفاتح الغيب.

فهذا النوع لا سبيل إلى علمه بالوحي ولا بغير الوحي، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه الآية الكريمة من سورة لقمان تفسيرٌ لآية سورة الأنعام السابقة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ٥٩].

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله؛ لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ١٠٩٠، وأصله في أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٨.

متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[(١)].

وعنه أيضًا رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾)[(٢)].

وعن بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: (خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾)[(٣)].

ومفاتح الغيب هذه، التي جاءت في سورة لقمان، وفي الأحاديث السالفة، لا مطمع لأحدٍ في علم شيء منها، فمن ادعى علم شيء منها غير مسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كاذبًا في دعواه[(٤)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد ١٣/ ٣٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ١/ ٣٩-٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ٨/ ٢٩١، رقم ٥١٣-٥١٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٥٣، والبزار ١٠/ ٢٥، ورجال أحمد رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠-٨٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤.

وعلى هذه المرتبة من الغيب يحمل نفي العلم الذي جاء في سورة النمل، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فهو محجوب حتى عن أنبياء الله تعالى ورسله وملائكته المقربين. وسيأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى أن هذا العموم قد يدخله التخصيص في بعض الحالات والمراحل.

المرتبة الثانية: ما لم يرد فيه نصٌ صريح في أن الله كتمه عن الخلق جميعًا، فلله سبحانه وتعالى أن يطلع من شاء من رسله على ما شاء منه، ولا يطلع على هذا النوع أحدًا غير الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر مرفوعًا، وعن ابن مسعود موقوفًا رضي الله عنهم قال: (أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيءٍ غير الخمس)[(٥)].

وأخرج الطيالسي في (مسنده) عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر: (أوتي نبيكم مفاتيح الغيب إلا الخمس)[(٦)].

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٨.و الطيالسي، ص٥١ و٢٤٩.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٣: «أخرجه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح».

(٦) مسند الطيالسي، ص٢٤٩ رقم ١٨٠٩.
وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥١٤، وذكره ابن كثير في التفسير: ٣/ ٤٥٥، وقال:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أوتيت مفاتيح كل شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية)[1].

وهذا النوع من الغيب هو الذي يشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن: ٢٦-٢٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والمراد بالاطلاع على الغيب -في الآية الكريمة- علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله، فلا يدخل في هذا ما يكشف لهم عن الأمور المغيبة عنهم[2].

فالمدعى في هذا النوع شيئان:

- أنه لا سبيل إلى علمه من غير إخبار الله تعالى.
- أنه لا يصل إلى علمه عن الله تعالى أحدٌ غير الأنبياء.

وعلى هذا الفهم لهذا النوع من الغيب بحصر معرفته بإعلام الله تعالى لمن ارتضى من أنبيائه ورسله ينزل قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام فيما أعطاه الله من المعجزات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْىِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكذلك إخباره عليه السلام عن أشياء كثيرة مما أطلعه الله تعالى عليه من فتوحاتٍ إسلامية وقعت كما أخبر بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهاد بعض الصحابة، والشهادة لبعضهم وبشارتهم بالجنة، وما يكون من علامات بين يدي الساعة، في أمور كثيرة جدًا واردة في الصحاح وغيرها[3].

ثانيًا: الغيب النسبي أو الإضافي:

وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، أو غاب عنهم في حال دون حال، بحيث يمكن التعريف به في الدنيا، إما

«هذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه».

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٨٥، وأبو يعلى في المسند رقم ٥١٥٣. ويشهد له ما في الصحيحين كما تقدم.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٦٤.

(٣) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨-٣٠٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢-٤٢٦ وما بعدها، الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٢٠٨.

مطلقًا، أو بشروط واستعدادات لذلك. وهو ينطوي على أربع مراتب.

المرتبة الأولى: أن يغيب الشيء عن حواسك، ولكن يتناوله غيرك بالمشاهدة، كالعلم بالأقطار النائية، والطبقات الأرضية، والأجهزة الداخلية للإنسان والحيوان.

فهذا غيب بالنسبة لبعض الخلق دون بعض، وقد يعلمه الغائب عنه بسماع أخباره المتواترة عمن شاهده وعلمه، فيمكن معرفة هذا النوع مطلقًا، وعندئذ لا يكون غيبًا، أي: بعد هذه المعرفة[1].

المرتبة الثانية: أن يغيب الشيء عن الحواس، ولا يمكن التعريف به في الدنيا بحال من الأحوال؛ إذ تختلف طبيعته عما عرفناه نحن في حياتنا الدنيا، كالحياة البرزخية وما فيها.

فهذا غيبٌ عنا، ولا نستطيع أن نتعرف عليه حاليًا، بل نعقل وجوده بالخبر الصادق، ولم نمر بتجربة أو حال تعرفنا على هذا النوع من عالم الغيب، فهذا يعرفه من يعيش في العالم البرزخي، وكذلك كل ما يعلمه الملائكة عليهم الصلاة والسلام من أمر عالمهم، لا يعلمه البشر مثلًا.

المرتبة الثالثة: أن يغيب الشيء عن حواسنا، ولا يمكننا التعرف عليه في الدنيا إلا على وجه مجمل، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وخمرًا، ونحو ذلك. وهذا يشبه ما في الدنيا لفظًا ومعنى، ولكنه ليس مثله ولا هو حقيقته. والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في عالم الشهادة، و هذه يعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز بينهما، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في عالمنا المشاهد. وفي الغائب ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (**يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾)[3].

فما لا يخطر بالقلوب، إذا عرفت به لم تعرفه إلا إذا كان له نظير، وإلا لم يمكن

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٥/ ٧٣، والمنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، و المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز، ص ٢٩٨.

(٢) الرسالة التدمرية، ابن تيمية، ص٦١-٦٢، وهي في مجموع الفتاوى أيضًا ٣/ ١-١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٦/ ٣١٨، وفي التفسير ٨/ ٥١٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٧٤.

التعريف به على وجهه[1].

المرتبة الرابعة: أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعًا، ولكنه يكون في متناول عقولهم، يعرفونه بشروط واستعدادٍ لذلك؛ فإن لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها.

ومن هذه الشروط والأسباب:

١. **التجربة والمقايسة.**

كعلم ما سيقع في العام أو الأعوام المقبلة من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل الشمس والقمر، ونحو ذلك، استنباطًا من التجارب الكونية، التي أجرى الله تعالى بها سنته في سير الكواكب، وقال في شأنها: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

٢. **الاستدلالات العقلية.**

كما نعلم حياة الجنين بتجربته، وكما نستدل على عقل الرجل بمنطقه، أو بالخلق على خالقه.

فهذا كله من الغيب الذي يتناوله العلم، بل يتناوله الإيمان الذي هو أخص من العلم؛ فإنه علمٌ يطمئن إليه القلب ويرتاح له الوجدان[2].

مفاتح الغيب:

إن مفاتح الغيب التي سبقت الإشارة إليها، هي الطرق والوسائل التي يتوصل بها للغيب أو على خزائن الغيب؛ لأن علمها كلها خاصٌ به تعالى، وأما الأمور التي لها أمارات، مثل: أمارات الأنواء، وعلامات الأمراض عند الطبيب، فتلك ليست من الغيب، بل من أمور الشهادة الغامضة، وغموضها متفاوت، والناس في التوصل إليها متفاوتون، ومعرفتهم بها من قبيل الظن لا من قبيل اليقين، فلا تسمى علمًا.

وقيل: المفاتح جمع مفتح -بفتح الميم- وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يغلق على ما فيه ثم يفتح عند الحاجة إلى ما فيه. ونقل هذا عن السدي، فيكون استعارة مصرحة، والمشبه هو العلم بالغيب، شبه في إحاطته وحجبه المغيبات ببيت الخزن تشبيه

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣، ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٥٦: «أما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف، فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح». وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، المختار من كنوز السنة، د.محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ١/ ٦٢.

معقولٍ بمحسوس[1].

وقد جاء النص صريحًا أن هذه المفاتح لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يقف الإنسان -مهما أوتي من العلم- عاجزًا عن إدراك شيء منها، بل إن أحدًا من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام لا يعرف عنها شيئًا[2].

فقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن رجل من بني عامر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: (قد علمني الله عز وجل خيرًا، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية)[3].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: (جاء رجل من أهل البادية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني متى تلد؟ وبلادنا مجدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾)[4].

وفيما يلي إلماعة موجزة إلى كل هذه المفاتح، وبالله التوفيق.

٣. علم الساعة.

كانت قضية البعث وقيام الساعة وما فيها أمرًا من أشد الأمور غرابة على حس المشركين الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ابتعدوا عن دين إبراهيم الخليل عليه السلام دين التوحيد، وكانوا يستبعدون وقوعها، ويعجبون لذلك أشد العجب، ويستنكرون ذلك أشد الاستنكار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧-٨].

ولقد أنفق الرسول صلى الله عليه وسلم جهدًا كبيرًا في تقرير حقيقة البعث والقيامة في نفوس الناس؛ إذ لا تستقيم حياة أمة من الأمم ما لم يستقم أمر الآخرة، عقيدةً راسخةً في ضميرها.

وفي هذا يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن العقيدة في الآخرة فسحة التصور،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٦/ ١٣٦.

(٢) ولا يفهم من هذا أن الغيب محصور في تلك الخمس التي ذكرها الله تعالى من سورة لقمان وفسر بها النبي عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب، فقد صرح الله تعالى في القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة من ذلك: حقيقة الروح، وتفصيل بدء الخلق وتفصيل النشأة...إلى غير ذلك. وإنما اقتصرت الآية على تلك الخمس؛ لأن النفوس كلها تتطلع وتتشوق إلى معرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي كما سيأتي في السياق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٨/ ٣٠٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة، رقم ٣١٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٤٧٧، رقم ٢٧١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٨٨.

وسعة النفس، وامتداد في الحياة ضروريٌ في تكوين النفس البشرية ذاتها لتصلح أن تناط بها وظيفة القيادة للبشرية والشهادة عليها.

كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة، ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضي في التبشير بالخير وفعل الخير، والقيادة إلى الخير على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة، وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة.

والاعتقاد في الآخرة مفرق الطريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس الإنسان، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك الحيوان، وما يصلح إدراك الحيوان في قيادة البشرية والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة»[1].

والساعة غيبٌ اختص الله تعالى به واستأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه جميعًا، بما فيهم الأنبياء المرسلون والملائكة المقربون، رغم ما كان من إكثار المشركين من السؤال عنها، استبعادًا لوقوعها وتعنتًا منهم وجحودًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٥].

وعندما سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم، في البنيان في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾)[2].

وإذا استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة، فلا فائدة تتحقق من وراء البحث عن زمن وقوعها؛ لأن هذا خارج عن طوق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٠٦٨-١٠٧٣، ٩/ ١٤٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٤٠، رقم ١٠.

العلم البشري، فحريٌّ بالعاقل أن يكون على استعداد لها وتهيؤ، فما كان إخفاؤها إلا لحكمة كبرى، فلا يتشاغل الناس عنها إذا كانت بعيدة عنهم، ولا ينصرفون عن العمل للحياة الدنيا إذا كانت قريبة لهم. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن يسأله عن الساعة: **(ويحك! إن الساعة آتيةٌ، فما أعددت لها؟)**[1].

ولئن حجب الله تعالى علم الساعة عن الخلق، فإن حكمته جل شأنه اقتضت أن يكون بين يدي الساعة أمارات وأشراط، تأتي مقدمة لها بين يديها؛ إيقاظًا للغافلين وحثًا لهم على التوبة والاستعداد، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٣].

فبعثة الرسول محمدٍ صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة و أشراطها؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر عن علامات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه، بما لم يؤته نبيٌّ قبله؛ ولهذا جاء في أسمائه عليه السلام: نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، و العاقب الذي ليس بعده نبيٌّ.

وهذه العلامات إما أن تكون علاماتٍ على قرب الساعة ووقوعها، وإما على حصولها.

فمن النوع الأول: الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، والخسف

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس[2].

وهذه العلامات والعلم بها لا ينافي ما سبق من اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة؛ لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معينًا.

وكذلك فإن معرفة هذه العلامات لا تعطي الإنسان علمًا بوقت وقوعها متى يكون؟ فهي تأتي بغتة تفجأ الناس وتبغتهم، وهم عنها غافلون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه، ١٢/٥، رقم ٣٦٨٨.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٥٢-٣٥٣.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[١].

وروى سهل وأنس وأبو هريرة رضي الله عنهم أن الرسول عليه السلام قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين) يشير بإصبعيه)[٢].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت في نفس الساعة فسبقتها، كما سبقت هذه لهذه) لأصبعيه السبابة والوسطى)[٣].

وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابةٌ كصبابةِ الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دارٍ لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»[٤].

٤. إنزال الغيث.

والمفتاح الثاني من مفاتح الغيب بعد علم الساعة هو إنزال الغيث، وهو آية الله في خلقه على إمكانية قيام الساعة حيث يحيي به الأرض بعد موتها.

والله سبحانه وتعالى وحده الذي ينزل الغيث ويختص بالقدرة على إنزاله، ويختص بعلمه علمًا كاملًا شاملًا. فهو ينزله في إبانه من غير تقديم و لا تأخير في بلد لا يتجاوزه به، وبالقدر الذي يريده وتقتضيه حكمته، فهو اختصاص قدرة واختصاص علم.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، ٨/ ١٠٦، رقم ٦٥٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٧٠، رقم ٢٩٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٦٨، رقم ٢٩٥١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء في قول النبي: (بعث أنا والساعة كهاتين)، ٤/ ٤٩٦، ٢٢١٣.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٤٥، رقم ٢٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، ٤/ ٢٢٧٨، رقم ٢٩٦٧.

﴿٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقد تجري بعض المحاولات البشرية، فيما أسموه (المطر الصناعي)، والمقصود منه حتى الآن هو: عصر السحب الممطرة أو القابلة للإمطار، وذلك بتوليد حالات من فوق التشبع داخلها بطرق صناعية، كقذف بلورات من الثلج الجاف مباشرة بواسطة الطائرات أعلى السحب الركامية، لا تلبث أن تسقط إلى المناطق الوسطى من تلك السحب لتبدأ قصة سقوط المطر الصناعي. أو بقذف مسحوق بدلًا من بلورات الثلج، أو حرقه بحيث يكون سحبًا كثيفة، أو برش نقاط من الماء أسفل السحب وأعلاها. ولكلٍ من هذه الطرق ظروفها الخاصة[(١)].

وهذا لا يعني أن البشر يستطيعون إنزال الغيث، أو أن ذلك بمقدورهم، فالله تعالى وحده هو الذي خلق الأسباب الكونية لإنزال المطر، وجعل تلك الخصائص للسحب وتركيبها بعامة، والسحب الركامية خاصة، التي خصها الله تعالى بنزول البرد ونشوء الرعد والبرق، وكذلك توفير الظروف المناخية لنزول الغيث، والهواء الصاعد المحمل ببخار الماء، كل هذا خلقه الله تعالى وليس بإمكان البشر ذلك.

فكان إنزال الغيث مختصًا بالله تعالى وحده. وليس هنالك عاقل يزعم أن ذلك بمقدوره، وحتى الكفار قديمًا حكى الله تعالى إقرارهم بذلك فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ولئن حاول بعض الناس التعرف بالتجارب والمقاييس والعادات قرب نزول المطر، ظنًا لا علمًا يقينيًا، إنهم لا يقدرون على علم ذلك يقينًا؛ إذ إن التنبؤات الجوية كثيرًا ما تخيب، والتجارب كثيرًا ما تختلف، والعادة قد تخرق، والظنون تخطئ.

فلا يستطيع البشر أن يجزموا بشيء في موعد نزول المطر وكميته أو عمومه على الأرض، أو خصوصه لبقعة معينة، أو غير ذلك من الصفات في إنزال المطر. ويبقى العلم اليقيني لله وحده. وشتان بين علم الله المحيط الشامل اليقيني وأوهام البشر وظنونهم!

ولكن إن حجب الله تعالى هذا العلم عن الخلق قبل إعلام الملائكة الموكلة بالمطر، فإنه إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله تعالى من خلقه، فلا

(١) انظر: الله والكون، محمد جمال الدين الفندي، ص١٧٩.

يكون عندئذ بعد هذا الإعلام غيبًا بالنسبة لمن أعلمه الله تعالى به.

ويلاحظ أن الآية الكريمة عن مفاتح الغيب قال الله تعالى فيها: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فصيغة الآية لا تنفي أن أحدًا غير الله تعالى يعلم إنزاله، بخلاف أول الآية في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الذي يفيد الاختصاص. ولكن جاء الحديث الصحيح وفسر ذلك، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس في سورة لقمان بأنها هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن هنا جاء التشديد عن النبي صلى الله عليه وسلم على من يزعم معرفة شيء من ذلك لمعرفته بالأنواء، فينسبه إلى منازل القمر مثلًا، ففي حديث زيد بن خالد أنه قال: (صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)[1].

والخلاصة: أن علم البشر متى يكون نزول المطر هو أمرٌ مستحيل. ولا يرد على ذلك أن بعض الناس يدرك نزول المطر متى انعقدت أسبابه، بحيث يغلب على الظن ذلك، إذا نشأ السحاب الممطر عادة، وهبت الرياح التي يصاحب هبوبها نزول المطر، وتهيأ الجو المشبع بالرطوبة، والذي تعتمد عليه -وعلى غيره من الأسباب الأخرى- الأرصاد الجوية في حدسها وظنونها، وما لم تنعقد هذه الأسباب فلا أحد يعلم متى ينزل المطر.

٥. ما في الأرحام.

والمفتاح الثالث من مفاتح الغيب هو علم الأجنة. فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم علمًا يقينيًا محيطًا شاملًا بما في الأرحام، في كل لحظة وفي كل طور، فيعلم قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، يعلم نوع الجنين الذي يقدر الله تعالى خلقه: هل هو ذكر أو أنثى؟ وهل هو تام الخلقة أم ناقص الخلقة؟ وهل هو سليم من التشوهات أو غير سليم؟ هل هو واحد أو أكثر؟ وما هي طبائع هذا الجنين بعد الولادة؟ إلى ما هنالك من اختلاف في المقادير والصفات والطبائع والأخلاق والشمائل والكسب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاستسقاء، باب قول الله: (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ١/ ٨٣، رقم ٧١.

والصنائع، والتقلبات في مقدار العمر والرزق والأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارئ النسم ومحيي الرمم سبحانه.

ولما كانت للخلق في ذلك -لكثرة الملابسات والمعالجات- ظنون في وجود الحمل أولًا، ثم في كونه ذكرًا أو أنثى ثانيًا، ونحو ذلك بسبب ما أقام الله تعالى من الأمارات الناشئة عن طول التجارب وكثرة الممارسة عبر بالعلم فقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أي: من ذكر أو أنثى، حي أو ميت وغير ذلك، وبصيغة المضارع التي تدل على التجدد وحدوث الفعل شيئًا فشيئًا، ووقتًا بعد وقت[1].

٦. الكسب بالمستقبل.

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾،

هذا هو المفتاح الرابع، الكسب فيما يستقبل من الزمن، من خير، أو شر، من شقاء أو سعادة، ومن كسبٍ مادي أو معنوي، ومن صداقة أو عداوة، ومن صحة أو مرض، ومن أحوال الناس وتقلباتهم في معاملته لهم ومعاملتهم له، وغير ذلك من الأحوال والكسب بعامة، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد جعل الله كل ذلك غيبًا مغلقًا أمام الإنسان، يتطلع المرء لمعرفة شيء منه، ولكنه لن يستطيع أن يعود من ذلك بشيء - إلا أن يكون ذلك الشيء جملة من الأوهام والظنون، مهما حاول بكل وسيلة، ومهما أوسع الحيلة ليتعرف على ما يتشوق إليه من ذلك الغيب المجهول الذي يحيط به.

يقول الإمام البقاعي رحمه الله: «ولكون الإنسان -مع أنه ألصق الأشياء وألزمه له- لا يعلمه مع إيساعه الحيلة في معرفته، عبر فيه بالدراية؛ لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي -كما تقدم في سورة يوسف عليه السلام أن مادة (درى) تدور على الدوران، ومن لوازمه إعمال الحيلة وإمعان النظر، فهي أخص من مطلق العلم فقال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾ أي: من الأنفس البشرية وغيرها ﴿مَّا﴾ وأكد المعنى بـ ﴿ذَا﴾ وتجريد الفعل فقال: ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ أي: في المستقبل من خير أو شرٍ بوجه من الوجوه، وفي نفي علم ذلك من العبد -مع كونه ألصق الأشياء به- دليلٌ ظاهر على نفي علم ما قبله عنه؛ لأنه أخفى منه، وقد تقدم إثبات علمه له سبحانه وتعالى، فصار على طريق الحصر، وعلم أيضًا أنه لا يسند إلى العبد إلا على طريق الكسب؛ لأنه لو كان مخلوقًا له لعلمه قطعًا، فثبت أنه سبحانه وتعالى خالقه، فعلم اختصاصه بعلمه من هذا الوجه أيضًا»[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٧.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢١٨-٢١٩.

٧. مكان الموت.

وهذا هو المفتاح الخامس من مفاتح الغيب: مكان الموت و نهاية المرحلة في هذه الحياة الدنيا، وهي المصير المحتوم لكل مخلوق، ومع ذلك لا يستطيع الإنسان ولا تستطيع أي نفس كانت أن تدري مكان موتها، هل هو في الأرض التي ولدت فيها أم في غيرها؟ في هذا البلد أو ذاك من بلاد الله الواسعة المترامية الأطراف، وفي أي بقعة أو مكان من هذا البلد أو ذاك؟ و هل يكون ذلك في بر أو بحر أو سهل أو جبل..، إلى غير ذلك مما يقف الإنسان أمامه عاجزًا، إذ لا يعلم ذلك كله إلا الخالق سبحانه الذي أحاط بكل شيء علمًا.

وقد جاء في الحديث: (إذا أراد الله قبض روح عبدٍ في أرضٍ جعل له فيها -أو قال بها- حاجةً)[1].

ولما كان علم مكان الموت، لا يعلمه أحد من الناس بنوع حيلة، مع شدة حذره منه وحبه -لو أنفق جميع ما يملكه لكي يعلمه- عبر عنه بما عبر عن الذي قبله، فقال مؤكدًا بإعادة النافي والمسند: ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وأظهر؛ لأنه أظهر وأليق بالتعميم فقال: ﴿نَفْسٌ﴾ أي: من البشر وغيره ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، ولم يقل: بأي وقت؛ لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت، مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين، وإحاطة العلم بكراهة كل أحد للموت، فكان ذلك أدل دليل على جهله بموضع موته؛ إذ لو علم به لبعد عنه ولم يقرب منه[2].

الحكمة في أن للغيب مفاتح:

وقد تلمس بعض العلماء الحكمة فيما جاء في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف من التعبير عن هذه الغيوب وأصولها بـ (المفاتح)، فذكر الشيخ ابن أبي جمرة الأندلسي[3] أن الحكمة في أن للغيب مفاتح تظهر في أمور، منها:

- تقريب الأمر على المخاطب؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها أحدٌ إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب. وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف لها أحدٌ موضعًا، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر ومن ذلك؟ هذا محال. وهذا

وانظر فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، روح المعاني، الألوسي ٢١/ ١١.

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ٤٢٩، والبخاري في الأدب المفرد ص٣٧٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣١١.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٩.

(٣) في كتابه: بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها ٤/ ٢٧١.

من أبلغ البيان وأخصره.

- أنه أراد بالغيب: الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ حقيقة؛ لأن الغيوب على ما هي عليه، وإن كانت لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل في بعض المراد بها عليه أن بذلك ليس حقيقيًا في علم تلك الغيوب، وأما حقيقتها فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. ويشهد لهذا التوجيه: قوله صلى الله عليه وسلم كنايه عن الله سبحانه: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)[1].

حكمة حصر الغيب بهذه المفاتح:

وأمور الغيب ليست محصورة في هذه الخمس التي جاءت في سورة لقمان وفي حديث مفاتيح الغيب -الذي سبق- فهي لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى الذي يعلمها كلها، بكلياتها وجزئياتها، وظواهرها وبواطنها. فهي ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، لا على معنى أن الغيب محصور فيهن -كما زعمه بعضهم- فقد صرح القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة؛ من ذلك: معرفة حقيقة الروح، و تفصيل بدء الخلق، و تفاصيل النشأة الآخرة، و جنود الله، إلى غير ذلك.

وإنما اقتصر في الحديث على الأمور المجموعة في آية لقمان المذكورة؛ لأن النفوس كلها تتشوق لمعرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما روي في سبب النزول، وقد تقرر أن العدد لا مفهوم مخالفة له، بل يثبت مضمونه ولا ينفي ما زاد عنه[2].

ولتقريب هذا إلى الأذهان جاء التعبير بـ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ إذ أن أقرب الأشياء إلى الاطلاع على ما غاب عن الإنسان هو الأبواب، والمفاتح أيسر الأشياء لفتح الباب، فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف مكانها فما فوقها أحرى أن لا يعرف ولا يعلم علمًا حقيقيًا. وإن كان لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقيًا، ولما كان جميع ما في الوجود محصورًا في علمه شبهه بالمخازن، واستعار المفتاح لأبواب تلك المخازن.

وتلمس العلامة ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله الحكمة في حصر أمور الغيب في هذه الخمسة، فوجدها في الإشارة إلى حصر العوالم في هذه الخمس من المفاتح:

فالمفتاح الأول: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيه إشارة إلى علوم الآخرة كلها، ويوم القيامة

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبدالله دراز، ص ٢٩٧.

أولها، وهو مفتاح علومها. وإذا انتفى علم الأقرب انتفى ما بعده من باب أولى.

والمفتاح الثاني: (إنزال الغيث) إشارة إلى علوم العالم العلوي، وخص منه المطر مع أن له أسبابًا قد تدل بمجرى العادة وسنة الله الكونية على وقوعه وإنزاله، لكنه من غير تحقيق وعلم يقيني.

والمفتاح الثالث: (علم ما في الأرحام) إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك نفى أن يعرف أحد حقيقتها، فغيرها منفيٌّ بطريق أولى.

والمفتاح الرابع: (علم ما في غد) إشارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث والكسب، وعبر بلفظ: (غد) لتكون حقيقته أقرب الأزمنة، وإذا كان –مع قربه- لا يعلم حقيقته وحقيقة ما يقع فيه –مع إمكان الأمارة والعلامة الدالة عليه-، فما بعده أولى أنه لا يعرف.

والمفتاح الخامس: (علم مكان الموت) إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، بل لو مات في بلده، لا يعلم في أي بقعة يدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه الماضين، بل ولو كان له قبر أعده لنفسه[(١)].

وقال السيد محمد رشيد رضا: «العوالم ثلاثة:

الأول: القريب الداني الذي نقيم فيه قبل الموت.

الثاني: الذي نقيم فيه بعد الموت أبدًا إلى غير نهاية.

الثالث: الوسط بينهما، وهو ما نقيم فيه بين العالمين حتى يتم جمعنا بانتهاء الدنيا، ونفد على الله جميعًا.

فالثاني والثالث: من الغيب الذي ليس مشهودًا لنا، ولا يحصل فيه زيادة يبرزها الله تعالى من العدم، كالأحجار والمعادن ونحوها من الموجودات، التي وجدت في الكون تدريجيًا، أو دفعة واحدة، ومنه ما هو غيب، وهو ما يتجدد بصورة مخصوصة لم تكن مشهودة، وهو النبات ومفتحة الغيث، والحيوان ومفتحة الأرحام غالبًا، أو عبر بها عنه، وكسب الحيوان وعمله وهو مفتح وخزانة من خزائن الغيب»[(٢)].

(١) بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، ابن أبي جمرة ٤/ ٢٧١.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٦٨- ٤٦٩.

ادعاء علم الغيب

استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، واختص به نفسه، فليس لأحد من الخلق أن يزعم أنه قادر على معرفة ما استأثر الله تعالى به، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥].

ومفاتح الغيب هذه هي التي أشار الله تعالى إليها وفصلها في سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولم يطلع الله تعالى أحدًا على الغيب إلا من اختاره من رسله لإطلاعه على بعض أنواع الغيوب، مما شاءت حكمة الله تعالى أن يعلمه لهم في مرحلة من مراحل الغيب -على ما سبق بيانه في أنواع الغيب- فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

وما استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد من الخلق حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[1].

ولذلك ينبغي أن نتعرف على حكم من يدعي شيئًا من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، أو لم يستأثر به، ولكن لم يهيئ للخلق أسباب المعرفة له. ويدخل في ذلك حكم التنجيم والكهانة والعرافة.

أولًا: حكم ادعاء علم الغيب والاستسقاء بالنجوم والكواكب:

وفيما يلي إشارة إلى حكم ذلك كله، كما ذكره علماء الإسلام في كتب التفسير، وكتب التوحيد، وكتب الفقه، ونجتزئ ببعض النصوص الدالة على ذلك من المذاهب الفقهية المختلفة. وبالله التوفيق:

يقول ابن أبي العز الحنفي: «ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٥٩، رقم ١٧٧.

تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة -لم ينف أن يكون الله تعالى خالقًا لها-، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا؛ لأن عدم العلم لا يكون علمًا بالمعدوم»[1].

ويقول ابن عابدين الحنفي: «إن دعوى علم الغيب معارضةٌ لنص القرآن الكريم، فيكفر بها، إلا إذا أسند ذلك صراحةً أو دلالةً إلى سببٍ من الله تعالى، كوحيٍ أو إلهام، وكذا لو أسنده إلى أمارة عاديةٍ بجعل الله تعالى. وقال أيضًا: وأما ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء والأولياء بالوحي والإلهام فهو بإعلام من الله تعالى، فليس مما نحن فيه»[2].

و يقول القرطبي المالكي: «قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرةً بنوء كذا، ومرةً دون النوء. قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ)»[3].

وقال أيضًا: «فلا مطمع لأحدٍ في علم شيء من الأمور الخمس، ولا طريق لعلم شيء من ذلك إلا أن يعلم الله تعالى بذلك -أو بشيء منه- أحدًا ممن شاءه، فمن ادعى علم شيء من هذه الأمور، كان في دعواه كاذبًا، إلا أن يسند ذلك إلى رسولٍ بطريقةٍ تفيد العلم القطعي، ووجود ذلك متعذر بل ممتنعٌ. وأما ظن الغيب: فلم يتعرض شيء من الشرع لنفيه ولا إثباته؛ فقد يجوز أن يظن المنجم -أو صاحب خط الرمل، أو نحو هذا- شيئًا مما يقع في المستقبل، فيقع على ما ظنه، فيكون ذلك ظنًا صادقًا، إذا كان

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٤٣.
(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٢-٢٤٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢.

عن موجبٍ عادي يقتضي ذلك الظن، وليس بعلم، فتفهم هذا؛ فإنه موضعٌ غلط بسببه رجال، وأكلت به أموال»[(١)].

وقال أبو بكرٍ ابن العربي المالكي: «مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله لا أمارة عليها، ولا علامة عليها، إلا ما أخبر به الصادق المجتبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة، والأربعة سواها لا أمارة عليها، فكل من قال: إنه ينزل الغيث غدًا فهو كافرٌ، أخبر عنه بأماراتٍ ادعاها، أو بقولٍ مطلق.

ومن قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فأما الأمارة على هذا فتختلف، فمنها كفرٌ، ومنها تجربةٌ. والتجربة منها أن يقول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان ذلك في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فهو ذكرٌ، وإن وجدت الجنب الأشأم (الأيسر) أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم نكفره، ولم نفسقه.

فأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا ريبة في كفره أيضًا.

فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ويسجن ولا يكفر. أما عدم تكفيره: فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب، وتقدير المنازل، حسبما أخبر الله سبحانه في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩].

فلحسابهم له، وإخبارهم عنه، وصدقهم فيه، توقفت علماؤنا عن الحكم بتكفيرهم.

وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره، فتشوش عقائدهم في الدين، وتتزلزل قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به»[(٢)].

وقال الوزير عون الدين بن هبيرة: «ما يدعيه المنجمون من أنهم يعرفون الكسوف قبل كونه من طريق، فلا يختص بهم دون غيرهم ممن يعرف الحساب، بل هو مما إذا حسبه الحاسب عرفه، وليس مما يدل على أنهم يتخصصون فيه، مما يجعلونه حجة في دعواهم علم الغيب مما تفرد الله سبحانه بعلمه، فإنه لا دلالة لهم على ذلك، ولا فيما تعلقوا به من هذا الاحتجاج على ما أرهجوا به»[(٣)].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل

---

(١) نقله عنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ١/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٧٣٨-٧٣٩.

(٣) الفروع، ابن مفلح ٣/ ٢٢٤.

الشيخ: «الاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفرٌ ظاهر؛ إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه.

والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله بقوله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[١].

وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم»[٢].

وعندما ينسب المطر إلى الأنواء ومنازل القمر وغير ذلك، يدعي بهذا علمًا للغيب؛ إذ إنه عندما يرى هذه المظاهر والأسباب يدعي نزول المطر، وقد سبق أن هذا مما اختص الله تعالى به، وإن كان قد يعلمه الإنسان ظنًا في مرحلة انعقاد أسبابه، كما سبق بيانه في مفاتح علم الغيب، والله سبحانه أعلم.

ثانيًا: الكهانة وصور ادعاء علم الغيب:

ومما يدخل في باب ادعاء علم الغيب: العرافة، والتنجيم، والكهانة، والطرق بالحصى، وقد يطلق عليها جميعها اسم الكهانة[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «وممن يدخل في ذم السحرة: الكهان والعرافون والمنجمون والذين يخطون في الرمل،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/ ٦٤٤، رقم ٩٣٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) قال المناوي: «العراف الكاهن، لكن العراف يختص بالأحوال المستقبلية، والكاهن يخبر بالماضي».وقيل غير ذلك.والمنجم الذي يترصد النجوم ثم استعمل بمعنى الذي يحسب سير النجوم وعلاقتها بالأفعال البشرية.وفي الفرق بين هذه الألفاظ انظر: الكليات، الكفوي: ٤/ ١٢٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٠٩، المفردات، الراغب، ص ٧٢٨، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي، ص ٥٠٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ٤/ ٣٩٨.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٤٢.

وكل هؤلاء يدعون علم الغيب، وهم كفرة خارجون عن الإسلام بادعائهم الغيب. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن صدقهم في دعواهم فهو كافرٌ بالله مشركٌ. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)[1].

وسنفرد أهم هذه الصور بكلمة موجزة، نبين من خلالها حكم من يدعي شيئًا من ذلك أو يفعله أو يصدقه.

الكهانة:

قال ابن سيده: «كهن يكهن ويكهن، وتكهن يتكهن تكهنًا و تكهينًا: قضى له بالغيب. ورجلٌ كاهنٌ من قوم كهنةٍ وكهانٍ. وكهن كهانةً صار كاهنًا، وحرفته الكهانة»[2].

والمراد من علم الكهانة مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من الجن والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون المخصوصة بالمستقبل. فالكهانة هي: ادعاء علم الغيب أو القضاء به، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجني السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذي يضرب بالحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخرٍ، ويسعى في قضاء حوائجه. والعرب تسمي كل من آذن بشيء قبل وقوعه كاهنًا. فهو يخبر عما يكون في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب[3].

قال الخطابي[4]: «الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. فالكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن».

وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢/ ٤٢٩، ٤٧٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب الكاهن، ٥/ ٣٧٠، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية اتيان الحائض، ١/ ٤١٨-٤١٩.
قال الترمذي: «لا نعرف هذا حديث حكيم الأثرم عن ابن تميمة الهجمي عن أبي هريرة وضعف محمدٌ، البخاري، هذا الحديث قبل إسناده».
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٦٨، رقم ٢٠٠٦.

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ١٤٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) انظر: أبجد العلوم، محمد صديق خان ٢/ ٤٥٣، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده ١/ ٣٤٠-٣٤١.

(٤) كما نقله ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢١٧.

خصوصـاً في العرب؛ لانقطاع النبوة فيهم، وهي على أربعة أصناف:

الأول: ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضـاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام، ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشّهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًا، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًا حتى كاد يضمحل، ولله الحمد.

والثاني: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبـاً، أو يطلع عليه من قـرب منه لا من بـعد عنه.

والثالث: ما يستند إلى ظنٍ وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة، مع كثرة الكذب فيه. وإذا كان كذلك فسؤالهم عن غيب ليخبروا عنه حرامٌ، وما يأخذون على ذلك حرامٌ، ولا خلاف فيه؛ لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه.

والرابع: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك.

ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعـاً[(١)].

ونقل القرطبي عن علماء المالكية أنه «يجب على من ولي الحسبة أن يقيم هؤلاء الكهنة من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، ولا يدع أحدًا يأتيهم لذلك، وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور، فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدر ليغتر به بعض الجهال، ولقد انخدع كثير من المتسببين للفقه والدين، فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد، والضلال»[(٢)].

وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)**[(٣)].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٨/ ١٠٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣-٤.
(٣) سبق تخريجه قريبًا.

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين، ولفظهما: **(من أتى كاهنًا فصدقه)**[١].

وأخرجه مسلم من حديث امرأةٍ من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم -ومن الرواة من سماها حفصة- بلفظ: **(من أتى عرافًا)**[٢].

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي، ولفظه: **(من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا)**[٣].

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة، إلا حديث مسلم فقال فيه: **(لم يقبل لهما صلاة أربعين ليلة)**.

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعًا بلفظ: **(من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد برئ مما نزل على محمدٍ، ومن أتاه غير مصدقٍ له لم تقبل صلاته أربعين يومًا)**[٤].

والأحاديث الأول مع صحتها وكثرتها، أولى من هذا. والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي»[٥].

فما أعظم ضلال أولئك الذين يدعون معرفة الغيب بالكهانة! وما أشدَّ عقوبة أولئك الذين يأتونهم ويصدقونهم فيما يزعمون، حتى إن الشكوى ارتفعت على ألسنة كثير من العلماء في قرون سلفت، عم فيها ذلك الضلال.

فقال القرطبي رحمه الله: «وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان -زمان القرطبي- بإتيان المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المتسببين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين، فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)**

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦و٣١٥، و١٦/ ٢٩٤.
قال الهيثمي في المجمع ٥/ ١١٧: «رجاله رجال الصحيح خلا عقبة ابن سنان، وهو ضعيف».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥١، رقم ٢٢٣٠.

(٣) أخرجه أبو يعلى في المسند، رقم ٥٤٠٨.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٧/ ٣٤٧، رقم ٦٦٦٦، والبزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١٨: رجال الكبير والبزار ثقات.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢١٧.
وانظر: مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري ٩/ ١٦-١٧.

فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدًا على أقوالهم؟»[1].

روى مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكهان؟ فقال: (إنهم ليسوا بشيء) فقالوا يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها[2] في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون معها مائة كذبةٍ)[3].

وأخرجه البخاري أيضًا من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم)[4].

العرافة:

هي معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط، على أن يكونا معلولي أمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في الاستقبال. وشرط كون الارتباط المذكور خفيًا أن لا يطلع عليه إلا الأفراد، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة[5].

والعراف هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية يستدل بها على مواقعها، كالشيء يسرق، فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالزنا فيعرف من صاحبها[6].

وقال ابن تيمية: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازي الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف». وقال أيضًا: «والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء»، وعند آخرين: «هو من جنس الكاهن وأسوأ حالًا منه، فيلحق به من جهة المعنى». وقال الإمام أحمد: «العراف طرف من السحر، والساحر أخبث»[7].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣.

(٢) القر: ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠، رقم ٢٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢١٠.

(٥) انظر: أبجد العلوم، صديق خان ٢/ ٣٧٩، ومفتاح السعادة، طاشكبري زاده ١/ ٣٣٢.

(٦) معالم السنن، لخطابي، بهامس مختصر سنن أبي داود للمنذري ٥/ ٣٧٠.

(٧) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٤١٢.

وقال ابن الأثير: «العراف: المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به»[1].

وقال ابن القيم: «من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا»[2].

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل، والزجر والطير، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذه من علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنًا وعرافًا، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن.

إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدره له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي لله، ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكر -آنفًا- من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكهان: «فيكذبون معها مائة كذبةٍ» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وليس هذا من شان الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغيب. وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص

(١) النهاية، ابن الأثير ٣/ ٢١٨.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/ ٢٢٩.

الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟

لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالٍ يعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه، لا يستطيع النوم إلا قليلًا، خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء: ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليا لله؟

ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين، الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة[(١)].

التنجيم:

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدركًا من مدارك علم الغيب يلجئون إليه للتعرف على ما سيقع مستقبلًا، وهو التنجيم. وهو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية[(٢)].

والمنجمون هم القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء، وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير والنجومية، وحصول المزاج منه للهواء، مع مزيد حدس، يقف به الناظر على تفصيل في الشخصيات في العالم، وذلك كله باطل[(٣)].

حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد)**[(٤)].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ص ٤١٢-٤١٤.

(٢) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة ٢/ ١٩٣-١٩٤، أبجد العلوم صديق خان ٢/ ٥٥١-٥٥٩.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ١/ ١٩٥.وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وبين خطأهم، كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في النجوم ٥/ ٣٧١، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم ٢/ ١٢٢٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٩، رقم ٦٠٧٤.

قال الإمام الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وستقع في المستقبل، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها. وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلمٍ استأثر الله سبحانه به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فهو غير داخل فيما نهي عنه. وذلك: أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا، فالشمس بعد صاعدةٌ نحو وسط السماء في الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي.

وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه، بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة: فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم؛ إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم»[1].

وقال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي: «والمأذون في تعلمه: علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله و كثيره. أما علم التسيير، فإذا تعلم ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة والطريق كان جائزًا عند الجمهور. وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم، كما وقع ذلك كثيرًا من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي إلى اعتقاده خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل»[2].

ونقل ابن عابدين الحنفي عن (مختارات النوازل) أن علم النجوم في نفسه حسنٌ غير مذموم؛ إذ هو قسمان:

(١) معالم السنن، الخطابي ٥/ ٣٧١-٣٧٢، مع مختصر المنذري.

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف، ابن رجب الحنبلي، ص٣٤-٣٥.

أحدهما: حسابيٌ وهو حق، وقد نطق به الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]. أي: سيرهما بحساب.

والثاني: استدلاليٌ بسير النجوم وحركة الأفلاك على الحوادث بقضاء الله تعالى وقدره، وهو جائز، كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض.

ولو لم يعتقد بقضاء الله تعالى أو ادعى علم الغيب بنفسه يكفر. ثم إن تعلم ما يعرف به مواقيت الصلاة والقبلة: لا بأس به[١].

وأما الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ، فقد جعل التنجيم ثلاثة أقسام:

الأول: وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة. وهو قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام. وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها، ونحو ذلك. ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريم ذلك. واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب، الذي استأثر الله تعالى بعلمه، بما لا يدل عليه.

الثالث: وهو تعلم منازل القمر والشمس؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول[٢].

ثالثًا: معرفة نوع الجنين وعلم الغيب:

تقدمت الإشارة في مفاتح الغيب إلى اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم ما في الأرحام، وقد يقع في أذهان بعض الناس أن البشر يستطيعون أن يعلموا ما في الأرحام بمعرفة جنس الجنين هل هو ذكر أو أنثى؟ وذلك عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الامنيوسي لفحص خلال الجنين، هل تحمل شارة الذكورة أو الأنوثة، ويكون ذلك بعد مضي أربعة أشهر على الأقل من الحمل[٣].

وقد يخيل لبعضهم أن في هذا معرفةً للغيب الذي اختص الله تعالى به. وهنا ينبغي أن نلاحظ جملة أمور لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا؛ إذ هي تلقي ضوءًا على ذلك، وتحرر محل الخلاف، وتحدد الإجابة، وتنفي الشبهة والظن إن شاء الله تعالى.

١. إن الله تعالى يعلم علمًا يقينيًا قاطعًا منذ الأزل بكل التفاصيل والأحوال

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ٤٣-٤٤ و٤/ ٢٤٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص٤٤١-٤٤٨.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٢٩٧- ٢٩٩.

للجنين، من ذكورة وأنوثة، وصفات أخرى كالتمام والنقص في الخلقة والعدد إلخ. فهو بالنسبة لله تعالى علمٌ يقينيٌ شامل حتى قبل أن يوجد الجنين نفسه.

٢. إن الطريقة التي سبقت الإشارة إليها في معرفة نوع الجنين إنما تكون بعد مضي أربعة أشهر، وأما قبل ذلك فلا تكون متيسرة إن لم تكن مستحيلة. أما الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطًا وشرح تشريحًا كاملًا، فلا يعرف جنسه؛ لأن الغدة التناسلية لم تتميز؛ إذ هي لا تتميز قبل نهاية الأسبوع الرحمي السادس حتى تعرف هل هي خصية أو مبيض[(١)]. ولم يخف على الله تعالى العلم للجنين حتى في هذه المرحلة.

٣. وكذلك عندما يستخرجون نقطة من السائل الامنيوسي بعد المدة السالفة تكون قد أصبحت أمامهم في عالم الشهادة، أي: لم تعد غيبًا، ولم يعد معرفة ما يتعلق بالجنين في هذه الحال غيبًا. والكلام منصبٌ على معرفة الغيب، لا على معرفة الشيء في عالم الشهادة والحس.

٤. ثم إن معرفة البشر رغم ذلك معرفة ظنية قابلة للخطأ والصواب، ومعرفة جزئية مبتورة ناقصة، فهي ظنٌ وليست علمًا يقينيًا.

وفي خلال المدة التي تعقب الشهور الأربعة الأولى من بدء الحمل لا يكون الجنين في مرحلة الغيب المطلق الذي حجبه الله تعالى عن الخلق جميعًا، بل إن الملك الموكل يعرف ذلك بإخبار الله تعالى.

كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: **(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيدٌ، فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)**[(٢)].

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه،

وفي بعض طرق الحديث: (ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلماتٍ: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقيٌ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح) الحديث[1].

وفي حديث حذيفة بن أسيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيكتبان، فيقول: أي رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص)[2].

ففي هذه المرحلة قد أعلم الله تعالى الملك الموكل بالنطفة بالكلمات السابقة، فأصبح الملك يعرفهم، فخرجت عندئذ عن كونها من الغيب المطلق الذي اختص الله به، ولا مانع بعد ذلك أن يهيىء الله تعالى للإنسان أداة أو وسيلة للتعرف على شيء من ذلك ظنًا أو يقينًا، وكأن عموم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى قد دخله التخصيص بحديث ابن مسعود وحديث حذيفة بن أسيد، فيقبل أيضًا تخصيصًا آخر بدليل ظني.

وأما المرحلة السابقة لإعلام الله تعالى الملك بذلك فإنها محجوبة قطعًا عن كل الخلق، ولا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

قال ابن قيم الجوزية: «والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل وما يحدث فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى؟ وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في (الصحيح) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إلا الله)[3].

فهو سبحانه المتفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه، وما ينقص. وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط التام، ورؤية الدم، وانقطاعه»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٧، ٤/ ٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣. رقم ٢٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب لا يعلم متى يجيء المطر إلا الله، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٩.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم، ص ٣٨١-٣٨٢.

وقال أبو بكر الجصاص: «لا يعلم أحدٌ الفرق بين العلقة التي يكون منها الولد وبين ما لا يكون منها الولد إلا أن يكون قد شاهد علقًا كان منه الولد وعلقًا لم يكن منه الولد، فيعرف بالعادة الفرق بين ما كان منه ولد وبين ما لم يكن منه ولد بعلامة توجد في أحدهما دون الآخر في مجرى العادة وأكثر الظن، كما يعرف كثير من الأعراب السحابة التي يكون منها المطر والسحابة التي لا يكون منها المطر، وذلك بما قد عرفوه من العلامات التي لا تكاد تتخلف في الأعم الأكثر.

فأما العلقة التي كان منها الولد فمستحيل أن يشاهدها إنسان قبل كون الولد منها متميزة من العلقة التي لم يكن منها ولد، وذلك شيء قد استأثر الله بعلمه إلا من اطلع عليه من ملائكته حين يأمره بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾. وهو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى ولكنه خص نفسه بالعلم بالأرحام في هذا الموضع إعلامًا لنا أن أحدًا غيره لا يعلم ذلك، وأنه من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ومن ارتضى من رسول. قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. والله أعلم»[1].

وأيضًا: إن علم ما في الأرحام الذي لا يعلمه إلا الله هو علم ما تغيض الأرحام، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد ومسمى مفاتح الغيب في صيغتين: الصيغة الأولى: تشير إلى القضايا التي وردت في آية سورة لقمان، ففي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾)[2].

وفي الصيغة الثانية: عن ابن عمر أيضًا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[3].

فنحن الآن أمام حديثين وردا بصيغتين

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: (إن الله عنده علم الساعة)، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، ٩/ ١١٦، رقم ٧٣٧٩.

مختلفتين، في موضوع واحد، هو تحديد عدد ومسمى مفاتح الغيب، وصيغة الحديث الأول تماثل صيغة الحديث الثاني، في ثلاث قضايا هي: علم الساعة، وعدم دراية الأنفس لكسبها، ومكان موتها.

وهذه الثلاثة غيب حقيقيٌ لا يعلمه إلا الله باتفاق العلماء، لكن الحديثين يختلفان في مسمى قضية إنزال المطر، وقضية ما في الأرحام.

فالحديث الأول: أشار إلى أن الصيغة العامة لهما هي مفتاح الغيب، في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وأما الحديث الثاني: فقد عدل عن صيغة العموم إلى صيغة الخصوص، فقد سماهما النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ مخصوصة محددة فقال: (ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله).

وبالجمع بين الروايتين يصير (غيض الأرحام)، وزمن مجيء المطر، هما الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ثم يصبح مراد النبي صلى الله عليه وسلم في اللفظ العام في آية سورة لقمان بناء على الحديث الأول، هو المعنى المحدد باللفظ الخاص في الحديث الثاني، وبهذا تتوافق النصوص وينتهي الإشكال، و يكون (غيض الأرحام) هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا الذكورة ولا الأنوثة ولا العلم بصفات الجنين، ويكون أيضًا العلم بوقت نزول المطر الوارد في الحديث هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا مطلق إنزال الغيث الوارد في الآية الكريمة[1].

وهنا يرد السؤال ما هو (غيض الأرحام)؟

يطلق الغيض في اللغة على: النقص والغور، والذهاب، والنضوب. وقد جاء في المعاجم اللغوية: غاض الماء غيضًا ومغاضًا ومغيضًا: قل ونقص، أو غار فذهب، أو قل ونضب، أو نزل في الأرض وغاب فيها. وغاضت الدرة: احتبس لبنها ونقص[2].

وقد دار تفسير العلماء لـ (غيض الأرحام) حول معنيين:

الأول: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل.

والثاني: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها.

إذن يمكننا القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي

(١) مفاتح الغيب وعلم ما في الأرحام، مقال للدكتور عبد الجواد محمد الصاوي، بمجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، العدد ٢٨ ص٣٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٨-٦٦٩.

يهلك في الرحم، ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها، ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء[1].

وعلم الأجنة الحديث يجلي الحقيقة؛ حيث يقول علماء الأجنة: عندما تهلك الأجنة في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها، إما أن تسقط خارج الرحم، أو تتحلل وتختفي تماما من داخله، ويسمي علماء الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر. وهو متوافق تمامًا مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض.

وعليه يمكننا أن نقول: إن (غيض الأرحام) هو الإسقاط التلقائي المبكر. وهو الذي يحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل، وهو ظاهرة شائعة، ونسبة حدوثه كبيرة، إذ تصل إلى حوالي ٦٠٪، في الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل.

وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجودًا، أي: إن الجنين قد تحلل واختفى داخل الرحم. وعدم رؤية جنينٍ في حويصلة الحمل، يسمى: (كيس الحمل الفارغ).

وتمثل هذه الحالات حوالي نصف حالات السقط التلقائي المبكر، ويعد اكتشاف جهاز الأشعة فوق الصوتية واستخدامه في تشخيص الحمل ومتابعته، تأكدت حالات غور الأجنة واختفائها من داخل الأرحام[2]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٩-٣٦٥، ومعالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٧-٢٩٨.
وانظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٦٩-٨٢.

(٢) مجلة الإعجاز العلمي في القرآن، مقال الدكتور عبد الجواد الصاوي ص ٣٥، و له أيضًا: غيض القرآن بمجلة الفرقان الأردنية، العدد ٥٢، جمادى الأولى ٢٠٠٦م.

نتائج الايمان بالغيب او انكاره

إن الإيمان بكل الأركان وعلى رأسها الركن الأول والأعظم فيها وهو الإيمان بالله تعالى، إنما هو إيمان بالغيب. إن هذا الإيمان يثمر في نفس الإنسان ثمراتٍ كثيرةً، وله آثاره العظيمة، على مستوى الفرد والأسرة والجماعة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرة، فكل آثار الإيمان بالله تعالى وتوحيده هي آثار للإيمان بالغيب، و كل ما نجده من خير واستقامة وسعادة وتقدم و إبداع، وكل ما يتطلع الإنسان إليه من القيم و الأخلاق العالية كالتوكل على الله، و اليقين، والعلم، والصدق، والخوف من الله، والرضا، والرجاء، وغير ذلك، هذا كله وأضعافه، إنما هو أثر من آثار الإيمان بالغيب!

وعلى الجانب الأخر؛ عندما يتنكر الإنسان للإيمان بالغيب، تختلف الصورة، وتختلف النتيجة، فكل ما تعاني منه البشرية، على مستوى الفرد والجماعة والأمة، في كل المجالات، من أمراض ومساوئ ومفاسد وأدواء، كاتباع الشهوات والركون للدنيا، والشقاء والاضطراب النفسي و الاجتماعي، والقلق ونحوه، علاوة على التمزق النفسي والضياع والتيه، وإطفاء نور الفطرة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، مع ما ينتظره من الخلود في النار في الآخرة. كل هذا وغيره، إنما هو أثر ونتيجة لهذا الإنكار والإلحاد.

وفيما يلي نتحدث عن: ثمرات الإيمان بالغيب، وبعض نتائج إنكار الغيب، بحسب ما يسمح به المقام.

أولًا: ثمرات الإيمان بالغيب:

١ . تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته.

جعل الله تعالى الإنسان أكرم المخلوقات وفضله عليها جميعها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا التكريم الإلهي للإنسان يتجلى في صور كثيرة، يأتي على رأسها فطرة الإيمان بالغيب ومالا تدركه الحواس، والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس -أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس-.

وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء

الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان -كجماعة الماديين في كل زمان- يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى، إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا (تقدمية)، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣][1].

٢. الاستقامة وتربية الشعور الديني.

الإيمان بالغيب هو الأساس والركن الذي يقوم عليه الشعور الديني والمراقبة لله تعالى والالتزام بالأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، وذلك يؤهل المؤمن للوقوف أمام محكمة الضمير أو النفس اللوامة التي أقسم الله تعالى بها، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو عظيم، فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

وهي محكمة باطنية، بينما محكمة المجتمع محكمة سطحية ظاهرية لا تتناول من أعمالنا إلا ما يقع تحت السمع والبصر، و لا تتناول من هذه الأعمال إلا ما يصل إلى علمها، فهل هناك محكمة تحيط بظواهرنا و بواطننا، ولا يخفى عليها شيء من أمرنا، و إن بعدنا عن أعين الرقباء؟ نعم! تلك هي المحكمة الإلهية العليا[2].

إن تربية الشعور الديني هي الدافع للاستقامة وحسن السلوك، وهي الضابط الذي يعصمنا من الجريمة ومن ارتكاب الحرام ومن مخالفة الأوامر، فاستقرار الإيمان في النفس البشرية هو سببٌ واضح في عدم مخالفة الأوامر التي يأمر بها الشارع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١١٨-١١٩.
(٢) دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

وهو الله -عزوجل-، حتى إن لم يكن هناك أي رقابة خارجية، فالإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن والالتزام بأوامره تقوي علاقة الإنسان بربه، وتجعله يستشعر مراقبة الله تعالى له في كل تصرف من تصرفاته.

وهناك أمثلة من الواقع التاريخي تدل على سلطة الايمان في الاستقامة والبعد عن المأثم. ونذكر هنا مثالًا على ذلك، وهو تحريم الخمر في الإسلام، وذلك بمجرد نزول الأمر القاطع في ذلك، بينما فشلت في ذلك أكبر النظم المعاصرة رغم تقدمها المادي والعلمي؛ لأنها لا تقوم على الإيمان، أو لا تنظر إلى حلال أو حرام فيما تشرعه من قوانين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٣].

لقد تمت هذه المعجزة التشريعية؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله سبحانه فيها حضورًا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان أخذها جملة لا تفاريق، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة[1].

٣. محاسبة النفس والاستعداد للحساب.

إن إيمان المرء بالله تعالى، وإيمانه بكل ما ينطوي عليه من أمر الغيب، له أثره في عمق الشعور بتقوى الله وخشيته، والخوف من حسابه يوم القيامة، ويترتب على ذلك انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله. فإن الإسلام يرسي قاعدة المسئولية بأوسع معانيها، فهي تشمل الفرد و الجماعة، والحاكم والمحكوم، وتكون هذه المسئولية أمام محكمة الضمير أو الوجدان، كما تكون أمام الرأي العام في الجماعة، وأعلى من هذا كله المسئولية أمام الله تعالى، وهي تقتضي الاستعداد لهذا الحساب الدقيق.

وللدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله كلمةٌ في بيان المحكمة التي سنقف أمامها للمسئولية ونقدم فيها الحساب لمعرفة أثر ذلك في التربية والتهذيب والاستقامة. يقول

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسمين، أبو الحسن الندوي، ص ٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٦٣-٦٦٦.

رحمه الله: «إن القرآن الكريم يضعنا أمام سلطة ثلاثية كأنه يقول لنا: تصوروا أنفسكم في نقطة مركزية تحيط بكم ثلاث دوائر مدرجة الاتساع، و تصوروا أنه قد خرج من كل دائرة سهام أو أنصاف أوتار متجهة نحو هذا المركز، هي أشعة العين التي تراقبكم. انظروا في أنفسكم تجدوا محكمة، وانظروا من حولكم تجدوا محكمة، وانظروا فوقكم تجدوا محكمة، محكمة الضمير في قلوبكم، ومحكمة البشر من حولكم، ومحكمة السماء من فوقكم، و لكل واحدة منها أمانة في أعناقكم سنحاسبكم عليها»[1].

اقرءوا -إن شئتم- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذا الاستعداد للحساب لا يقتصر على الحياة الفردية، بل يمتد ليشمل مستوياتٍ أوسع وأعلى، فإن إمام المسلمين، أو رئيس الدولة بالتعبير المعاصر، كذلك يكون أكثر محاسبة للنفس واستعدادًا للحساب يوم القيامة؛ لأنه يشعر بعظم المسئولية وأهمية الولاية، فإن الولاية العامة أمانةٌ توجب المسئولية الدينية أمام الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا الذي جعل الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقف ليحاسب نفسه وليعلن أنه مسئول، في كلمات كثيرة مأثورة عنه، و في وقائع عملية شاهدة. وحسبنا ما قاله لجرير بن عبد الله البجلي: «يا جرير إني قاسمٌ مسئولٌ، ولو أن سخلةً بالعراق عثرت لخفت أن يسألني الله عنها: لم لم تسو لها الطريق»[2]. وغيرها من النصوص عن الخلفاء الراشدين كثيرة متوافرة، و الوقائع العملية التطبيقية شاهدة ناطقة. وما ذاك إلا ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى و بالحساب والجزاء.

٤ . أثره في سلوك الفرد والجماعة: القيم والغايات.

(١) انظر: دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج، ص١٢٧، وابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب، ص١١٣.

حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وهو غيب، ويؤمن بالجنة والنار، وهو إيمان بالغيب -كما تقدم- ويؤمن بالجزاء والحساب، حين يؤمن بهذا كله إيمان اليقين، نستطيع أن ندرك أهمية هذا فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها. إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة، والعمر فرصة واحدة إن لم تنتهب فسوف تضيع! وإذا كان العمر -مهما طال - محدودًا بسنوات، ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة، فالبدار البدار!

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر. فرصة وحيدة محدودة ينبغى أن تنتهز ويؤخذ فيها أكبر قدر من الملذات؛ ولذلك تتكالب الجاهليات دائمًا على متاع الأرض وتتصارع عليه، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الدنيا.

والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول، فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج ليحصل على أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من المال، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع، يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام! بل إن فكرة الحرام لا تخطر على باله على سبيل الجد! فالأصل عنده هو الاستمتاع، قبل أن تفوت الفرصة التى إن مضت لا تعود! فما معنى الحرام فى حسه؟! إنه ليس إلا قيدًا على المتاع! وهو قيد - فى نظره- غير معقول ولا موجب له؛ لأنه يضيع الفرص المحدودة التى لن تعود!

لذلك أيضًا فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير معقولة، كقيد الحرام سواء بسواء! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهليات، ويضعف وازع الضمير وتحل المصلحة محله. أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتعد سخفًا وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل، إذا هى فوتت عليه فرصة المتاع!

أما الأمم والجماعات، فقصتها لا تختلف كثيرًا عن قصة الفرد، فكل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم!) على حساب جماعة أخرى! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى؛ لتسلبها حظها من المتاع وتأخذه لنفسها فتنشأ من ذلك الصراعات والحروب.

وأين القيم العليا؟ وأين حقوق الإنسان؟ وأين الضمير العالمي؟ وأين العهود والمواثيق؟ وأين التعاون فى سبيل الخير؟ وأين العدل؟ وأين الإخاء والمساواة؟

إنها كلها -فى الجاهلية- ألفاظ! يلوكها الناس نفاقًا ورياء، فإذا ﴿خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]! لأنها كلها معوقات عن المتاع في الفرصة والوحيدة المتاحة للمتاع!

ويتقاتل الناس، ويموت منهم من يموت، ولكنهم يموتون وهم يقاتلون في سبيل هذا المتاع الأرضي، فإذا قيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله، أو في سبيل الحق المجرد الذي لا مصلحة لهم فيه مباشرة، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك، إن لم يهبوا لمقاتلتك أنت؛ لأنك تدعوهم إلى شيء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض!

ومن ثم تهبط القيم في الجاهليات وتنحصر الآفاق، كما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق. إنه لا شيء يرفع الإنسان من ثقلة الأرض -بعد الإيمان بالله- إلا الإيمان باليوم الأخر. الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان في الحياة الدنيا -طاعة لله والتزامًا بأمره- يعوض عنه في الآخرة متاعًا أشف وأعلى وأخلد وأبقى. والإيمان في ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله في الحياة الدنيا -من أجل متاع الأرض الزائل- سيجازى عليه في الآخرة عذابًا ليس في طوق البشر احتماله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أما حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وبما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة، فإن القضية تحسم في حسه حسمًا كاملًا وتستقر الأمور، فكل نعيم في الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة، ولا يساوي من جهة أخرى غمسةً واحدة في العذاب من أجله، وكل عذابٍ في الدنيا -في سبيل الله- لا يقاس إلى عذاب الآخرة ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله في النعيم. وعندئذ يقدر الإنسان على موازنة ثقلة الأرض، ويقدر على الارتفاع إلى القيم العليا والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة؛ لأن يوقن بالجزاء الذي سوف يناله على ذلك كله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

٥. الخلود في جنات النعيم.

إن أعظم ثمرات الإيمان بالغيب، -وأركان الإيمان إنما هي في حقيقة الأمر إيمان بالغيب- هي دخول النعيم والخلود فيها أبدًا، ويرسم القرآن الكريم صورًا وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم، وأثر الإيمان في قلوبهم

وسلوكهم، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم؛ لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة، ولنحظى برضا الله في الدنيا والآخرة.

وهذه الصور والأوصاف كثيرة في القرآن؛ لأن فيها دروسًا تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا. وإليك بعض النماذج منها:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

تبدأ الآيات بموازنة بين المؤمنين والكافرين يتبين منها لأول وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض في صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم. والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق، بينما يصف الآخرين بأنهم عمى. ثم يسأل هذا السؤال الإنكاري (أي الذى جوابه دائمًا: لا) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]؟ والجواب لابد أن يكون: لا! فمن يقول: إن الأعمى كالبصير، وإن من يعلم كمن لا يعلم؟!

والتعبير القرآني الجميل يوحي إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحي حق هو المبصر، الذى يسير في الطريق على نور، ولا يتخبط في سيره؛ لأنه يرى ما حوله، بينما الذى يشك في الوحي ولا يتبعه هو الأعمى الذى يتخبط في الطريق؛ لأنه لا يراه. وهذه حقيقة، فإن المؤمن يعرف -من وحي إيمانه- ما هي غايته في الحياة، وما الطريق الذى ينبغي أن يسلكه ليصل إلى غايته. فغايته هي إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، ووسيلته هي الأعمال الصالحة، هي الطاعة لأوامر الله. بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش، إلا لإرضاء ملذاته القريبة، غافلًا عن النهاية التي تنتظره في آخر الطريق.

ثم تجيء الصفات التي يتصف بها هؤلاء المؤمنون الذين يستحقون دخول الجنة، إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ولا تحدد الآية عهدًا معينًا ولا ميثاقًا معينًا، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله. والعهد الأكبر هو الذي أودعه الله في الفطرة وأشهد الفطرة عليه، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا تنتهي صفة المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، بل يستمر السياق فيصفهم بأنهم: يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل بإطلاق وعموم وشمول، ومع القيام بهذه الصلات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم، وهي خشية بالغيب، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون فى أمورهم بما يرضي الله، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص؛ خشية أن يغضب الله عليهم، وكذلك يخافون سوء الحساب، فيتجنبون الأعمال والأقوال التى تعرضهم للحساب الشديد، مع سائر ما وصفهم الله تعالى به من صفات.

ثم يرتب الله تعالى على ذلك كله هذا الجزاء العظيم الذي يتطلع إليه المؤمنون، وياله من جزاء! ويالها من جائزة جميلة على السلوك الجميل! تتجاوزهم لتصل إلى من صلح من الآباء والأزواج و الذريات. ثم يكون التكريم والفضل الآخر العظيم والاحتفاء الكبير: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

وحسبنا في هذا المقام هذه الإشارة التي تومئ إلى الآيات الكريمة التي تتضافر لتدل على هذا الأثر للإيمان في الخلود بجنات النعيم، ونسأله تعالى الجنة وما يقرب إليه من قول أو عمل أو اعتقاد.

ثانيًا: نتائج إنكار الغيب:

١ . إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم، وعائقٌ أمام التقدم العلمي.

إن التنكر للغيب وجحوده من قبل الماديين، يبدو في مفهوم العلم المادي الحديث جهلًا وضلالًا وبعدًا عن العلم والحق؛ لأن العلم المادي لا يستطيع أن يحكم على الغيب؛ لأنه خارج عن مجاله، فلا يجوز علميًا إنكار شيء لأجل أنه غير مشاهد أو غير محس، أو لأنه غير قابل للتفسير.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل: «وإذن فقد سجن الإنسان نفسه بطريقة تحكمية في حدود حواسه الخمس منذ عصر النهضة (الأوربية). أما اليوم: فنحن نعرف الكثير من ظواهر التليباثي أو (انتقال الأفكار) التي لا تقبل النقض[1]. ولا شك أن طبيعة

(١) كنداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة لسارية بن زنيم في العراق عندما كان على رأس جيش الفتح لبعض البلاد.فبينما عمر يخطب جعل ينادي: «يا

التليباثي ورؤية الماضي والتنبؤ بالمستقبل لا تزال غير معروفة في أيامنا هذه، كما كانت في عهد أرسطو، ولكنا نعلم أنه لا يجوز لنا بحالٍ ما أن ننكر ظاهرة لمجرد أنها غير قابلة للتفسير أو عسيرة على الملاحظة»[1].

وبمقدار ما وهب الله تعالى الإنسان من القدرة على إدراك قوانين المادة، و التعرف على طاقات الكون ومذخوراته، بمقدار ما حجب عنه من أسرار هذا الوجود وخفاياه؛ ولذلك نجد الذين يتشدقون بالعلم والمنهج العلمي اليوم، لينكروا الغيب أو ما وراء عالم الحس والمادة، نجدهم متناقضين مع العلم الذي يفرحون به؛ لأن العلم نفسه يقف أمام كثير من الظواهر لا يستطيع لها تفسيرًا ماديًا، وإنما يخضعون فيها لقدر غيبي، جعله الله تعالى جزءًا من نواميس الكون.

ويؤكد هذا ويوضح مبدأ عدم التأكد (نظرية هيزنبرغ) الذي أسهم بمشاركة مهمة في تركيب الذرة، فقد توصل من خلال أبحاثه النظرية على التركيب الذري، إلى مبدأ عدم التأكد الذي ينص على «استحالة تعيين موقع الإلكترون وسرعته معًا وبدقة».

وفي ضوء هذا المبدأ يلاحظ أن المنهج العلمي التجريبي نفسه يقوم على الاحتمال، فهو يفترض أشياء وتجارب خيالية مستحيلة ثم يبني عليها نظريات معينة[2].

وهذا كله وغيره أيضًا يؤكد أن إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم وعائق أمام التقدم العلمي، فلو كان الإيمان بالغيب والتطلع إليه عنصرًا من عناصر الفكرة الدينية أو العقيدة وحدها، لكان الإنكار للغيب وما وراء الحس إلحادًا فحسب، ولو كانت هي النتيجة الختامية لتقدم العلوم واتساع أفقها لكان هذا الإنكار نقصًا في العلم وقصرًا في النظر وكفى. ولكن تلك الفطرة للإيمان بالغيب بنت الغريزة و الجبلة، فالأمر أعظم من النقص في العلم، إنه نكسة في فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم[3].

٢. اتباع الهوى والشهوات والركون للدنيا.

ساري الجبل ثلاثًا! ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: يا سارية الجبل، ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله. فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك».

انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٧/ ١٣١، والسلسلة الصحيحة، الألباني ٣/ ١٠١.

(١) تأملات في سلوك الإنسان، إلكسيس كاريل، ص ١٦٢.

(٢) انظر: الكيمياء العامة تفاعل المادة، الطاقة، الإنسان، تأليف فريدريك لونجو، ترجمة مروان كمال ومجموعة أساتذة جامعيين، ص ٦٦-٦٨، عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، عثمان جمعة ضميرية، ص٥٧-٦١.

(٣) انظر: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص٩٥.

عندما يغيب الإيمان بالغيب، وعندما يغفل الإنسان عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، عندئذ يقع الإنسان فريسة الأمراض التي تصيب الفطرة البشرية، فيغلب عليه اتباع الهوى والشهوات التي تجعل الإنسان عبدًا لها، وتسيطر عليه فلا يستطيع الخلاص منها، وهي التي تورده المهالك وتنزل فيه بالدركات.

ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائمًا أحكامًا إلهية يأمر الله تعالى البشر أن يلتزموا بها وينفذوها؛ لتستقيم حياتهم وتتوازن. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله، وتحب أن تتبع شهواتها. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[القصص: ٥٠].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وهؤلاء يرفضون الهدى الرباني، ويرفضون أن يعترفوا بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ولو استيقنوا في دخيلة أنفسهم أنه الحق؛ لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله؛ لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل في حسهم؛ لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق، ويجادلون فيه بالباطل، ويضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما قرر الله، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يتبع مما أنزل الله، فيقعون

بذلك في الشرك -شرك الاتباع-.

وعلى هذه الصورة، كانت الجاهلية العربية التي ذكرها الله في القرآن ذكرًا مفصلًا في كثير من الآيات الكريمة في السور المكية بخاصة. وعلى هذه الصورة كذلك نجد نماذج كثيرة من الجاهلية المعاصرة التي غرقت في الشهوات إلى أذنيها، ورفضت الاعتراف بالوحى الرباني؛ لأنها تريد أن تتبع أهواءها، ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله[1].

٣. الخلود في النار.

تقدم آنفًا أن أعظم ثمرات الإيمان بالله تعالى والإيمان بالغيب هو دخول جنات النعيم، مع ما أعده الله تعالى للمؤمنين من أنواع مما لا يخطر على قلب بشر. وعلى الضفة الأخرى: فإن إنكار الغيب وجحوده -الذي هو في حقيقته إنكار لله تعالى وإنكار لما أخبر الله به من الغيوب، كالجنة والنار والملائكة- يترتب عليه الخلود في نار جهنم، ولن تنفعه تلك الأعمال التي كان يعملها، ويظن أنها تدفع عنه شيئًا، أو أنها تقبل مع ما هو عليه من ضلال وجحود.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأبان الله تعالى عن مصيرهم وخلودهم في النار، فقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١- ٧٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «لما ذكر الله تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقًا عنيفًا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقًا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضًا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم

(١) انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، ص ٧٨.

أي: لأجلهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

فـ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم؛ وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي»[1].

وفي آيات كثيرة جاء النص بصيغة التأبيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨- ١٦٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٣ - ٦٥].

وفي هذه الآية الكريمة الأخيرة إشارة إلى أن كفر هؤلاء الكفار وما ترتب عليه من تخليد في النار على جهة التأبيد، وليس على جهة المكث الطويل، كما قد تفيده العبارة أحيانًا. في هذا إشارة إلى أن هذا الحكم عليهم بالكفر إنما هو نتيجة تكذيبهم بالساعة، وهي غيب من غيوب كثيرة. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، التوحيد، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٣٠.





عناصر الموضوع

المجلد السادس والعشرون

مفهوم الفتنة

أولًا: المعنى اللغوي:

«الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على الابتلاء والاختبار»[(١)]، ومن هذا الأصل يقال في اللغة: فتنت الذهب، إذا أدخل النار لينظر ما جودته، وهو مفتون وفتين[(٢)]، ويسمى الصائغ: الفتان لإذابته الذهب والفضة في النار[(٣)].

وقد وردت الفتنة في كلام العرب، وأريد بها عدة معانٍ، منها: الامتحان والاختبار، وتطلق غالبًا على الاختبار من المكروه، والإثم، والكفر، والقتال، والإحراق، والإزالة، والصرف عن الشيء، والمال، والأولاد، واختلاف الناس بالآراء، وتطلق كلمة الفتان على الشيطان[(٤)].

قال الأزهري: «جماع معنى الفتنة في كلام العرب: الابتلاء، والامتحان، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، أذبتهما بالنار ليتميز الردي من الجيد»[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي لكلمة الفتنة عن المعنى اللغوي، ويفهم من معاني الفتنة الواردة في لغة الفصحاء، وفي القرآن والسنة: الاختبار والابتلاء بالعذاب والقتل، والضلال، والكفر، والإثم، والجنون، والإعجاب بالشيء والمرأة[(٦)].

قال الإمام الجرجاني: «الفتنة: ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر»[(٧)]. ويمثل ذلك قال ابن حجر: «وأصل الفتنة الامتحان والاختبار، واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٢.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٧٥.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٩٨.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ٤١٠، فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣١٨.
(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٦.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣١٧.
(٧) التعريفات، الجرجاني ص٢١٢.
(٨) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ١٧٦.



الفتنة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فتن) في القرآن الكريم (٦٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[الأنعام:٥٣]
الفعل المضارع	١٢	﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[الأعراف:٢٧]
اسم الفاعل	١	﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصافات:١٦١-١٦٢]
اسم المفعول	١	﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم:٥-٦]
المصدر	٣٥	﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]

وجاءت الفتنة في الاستعمال القرآني على(١٠) أوجه[٢]:

الأول: الكفر والشرك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[البقرة:١٩٣]. يعني: لا يكون شرك. وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾[التوبة:٤٨]. يعني: ابتغوا الكفر.

الثاني: العذاب في الدنيا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]. يعني: جعل عذاب الناس في الدنيا كعذاب الله.

الثالث: البلاء: ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾[العنكبوت:٢]. يعني: وهم لا يبتلون في إيمانهم.

الرابع: الحرق بالنار: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[البروج:١٠]. يعني: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدنيا.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الفاء، ص٨٦٥-٨٦٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص٦٣-٦٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٦٤-٣٦٥.

الخامس: القتل: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١]. يعني: يقتلكم.

السادس: الصد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]. يعني: أن يصدوك.

السابع: الضلالة: ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات:١٦٢-١٦٣]. يعني: بمضلين.

الثامن: المعذرة: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]. يعني: ثم لم تكن معذرتهم.

التاسع: الفتنة بعينها: ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]. أي: لا تسلط علينا فرعون وقومه فيقولون: لولا أنا أمثل منهم ما كنا سلطنا عليهم، فيكون ذلك فتنة.

العاشر: الجنون: ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم:٦]. يعني: أيكم المجنون.

الألفاظ ذات الصلة

١ الابتلاء:

الابتلاء لغةً:

التجريب والاختبار، وابتلاه:اختبره، والتبالي:الاختبار[١].

الابتلاء اصطلاحًا:

الاختبار من الله تعالى للعبد المؤمن في حياته ومعاشه؛ حتى يزداد قدره وأجره، إن صبر واحتسب ورضي بقضاء الله تعالى.

وقيل: وهو:اختبار من الله سبحانه وتعالى في أي جهة تخصه، أو تلزمه، وقد يكون في الخير أو الشر، ففي الخير يكون منحة فيتطلب الشكر من الله، وفي الشر يكون محنة فيتطلب الصبر.

الصلة بين الابتلاء والفتنة:

الابتلاء هو الاختبار من الله تعاليللعبد المؤمن، والفتنة أعم من ذلك وأشمل؛ إذ إنها قد تكون من الله تعاليبلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وقد تكون من الكافر، كقصة أصحاب الأخدود في فتنة المؤمنين، كما أن الاختبار والابتلاء بالجملة جزء لا يتجزأ من معنى الفتنة ومدلولها.

٢ الاشتباه:

الاشتباه لغة:

التشابه والاشتباه، إذا أشبه كلٌ منهما الآخر؛ حتى التبسا[٢].

الاشتباه اصطلاحًا:

حصول التباس نتيجة تشابه شيئين في أمر ما.

الصلة بين الاشتباه والفتنة:

الاشتباه قد يكون له تأثير سلبي وقد لا يكون، كما أنه من العبد، إضافة إلى أن معناه جزء من المعنى العام للفتنة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨٥.

(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٤٧.

٣ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبا[(١)]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: «يدل على إحكام الشيء وصحته»[(٢)].

الحق اصطلاحًا:

«هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل»[(٣)].

الصلة بين الحق والفتنة:

الحق لا يكون إلا خيرًا واضحًا ناصعًا، والفتنة قد تأتي بخير إذا كانت من عند الله تعالى، وقد تأتي بسوء إذا كانت من العباد، كما أن الفتنة غامضة فيها بين الحق والباطل.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ص١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥-١٧ بتصرف.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص٨٩.



أنواع الفتنة

الفتن والمحن بالشر والخير:

دلت النصوص القرآنية أن سنة الفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والخوف والأمن.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال الزمخشري: «أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر وفتنة: مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه»[1].

وقال ابن كثير: «أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط.

قال ابن عباس: «أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال»[2].

ومما يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ

(١) الكشاف ٣/ ١١٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٢/ ٥٠٧.

فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

فجعل الإكرام والنعمة ابتلاء كالتضييق في الرزق سواء، فالمنحة والمحنة كلاهما بلاء

والمؤمن يحتاج إلى الصبر على الاثنين، بل القدرة على البلاء في النعمة أشد، «فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر»[3].

وقال بعض العارفين: «البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صديق»[4].

وقال الإمام الغزالي: «وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة ألا تقدر والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء»[5].

وبهذا يقول المرحوم سيد قطب: «إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث

(٣) المفردات، الأصفهاني، ص٦١.

(٤) انظر: الصبر في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ص٤٢.

(٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١/ ٧.

المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

ولذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر إلا من عصم الله، فكانوا ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[1] وهم قليل.

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان»[2].

أولًا: الفتنة بالخير:

الابتلاء بالشر معروف ولكن الابتلاء بالخير يحتاج إلى فهم دقيق لا يناله إلا ذوو الألباب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزمر: ٤٩-٥٠].

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ويدعوه، وإذا خوله نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله استحقاقي له، قوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟[3]

وقد قالها الذين سبقوهم قالها قارون وكل مخدوع غافلين أنها فتنة للاختبار.

ولعل فتنة الخير تعود كلها إلى «زينة الدنيا» التي تجمع كل خير قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧].

ذهب الإمام القرطبي إلى «أن الزينة تشمل كل ما على وجه الأرض من جهة خلقه وصنعه وإحكامه»[4].

وما ذاك إلا الابتلاء والاختبار في الزهد بهذه الزينة وعدم الاغترار بها واتخاذها غرضًا للشكر وليس للشهوات والأغراض الفاسدة لأنها زائلة بدليل التعقيب على الآية ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٣/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٨.

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٣/ ٢٢٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٤/ ٣٠٥٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٣١٧-٣١٨.

وزينة الدنيا تعم جميع البشر فالدنيا يهبها الله للمؤمن والكافر ولكن الآخرة للمؤمن فقط، ومن ذلك فتنة العطاء قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠].

وأكثر المفسرين ومنهم القرطبي والرازي على أن المراد من قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون والكافرون[١].

١. فتنة المال.

جاءت فتنة المال متمثلة بمجموعة المشكلات والانحرافات حول تدبير المال والتي تنعكس على حياة البشر أفرادًا ودولًا مسببة فتنًا ومحنًا شتى وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال)[٢].

المال والتملك في نظرة الإسلام غريزة فطرية عند الإنسان وهي من أقوى الغرائز لديه، وبدافع هذه الغريزة يسعى الإنسان ويعمل لإشباعها والحصول على ما ترغب فيه.

والمال في نظر الشريعة زينة الدنيا ومتاعها كما أنه وسيلة لا غاية في حد ذاته، أي وسيلة لتحقيق غايات في مقدمتها طاعة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

ولما كان الإنسان بفطرته يحب المال ويسعد بتملكه فإنه لا يشبع منه، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:٢٠].

وبذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منهومان لا يشبعان: منهومٌ في العلم لا يشبع منه ومنهومٌ في الدنيا لايشبع منها)[٣]، وقال في حديث آخر: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)[٤].

ذكر المال في القرآن الكريم ستًا وسبعين مرة وهذا يدل على اهتمام الإسلام به، كما أنه ذكر مقترنًا بالأولاد والأنفس وهو دليل على أنه لايقل عنهما أهمية يقول تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٤١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب فضل العلم والعالم، ١/ ٨١، رقم ٣٣٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٥، رقم ٦٦٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، ١/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٨.

ويقول تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:٩٥].

بل ورد ذكر المال قبل النفس في الآيات كلها التي وردا فيها، ولم يتأخر إلا في واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة:١١١].

وهذا إلفاتٌ صريحٌ إلى أن منزلة المال فوق منزلة النفس، وقد أخر في موضع واحد لأنه في مقام البذل، فالمرء في مجال التضحية يجعل آخر شيء هو أعزشيء عنده![1].

ومع أن المال نعمة إلا أنه - كما أثبتت النصوص - من أشد متع الدنيا فتنةً فتميل النفس إلى الإفراط والاستكثار منه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

والله الذي فطر الناس يعلم سلطان المال على القلوب فعلى هذا جاءت دعوات الأنبياء إلى القناعة والتخفف من سطوة المال، وجاء التحذير منه مقرونًا بالأجر العظيم في الآخرة، ولكن لايفهم التحذير المتكرر من فتنة المال في القرآن والسنة أن الإسلام عدو له، أو ينظر إليه على أنه شر، أو خطر يجب اجتنابه كما فهم البعض[2].

وقد حدد الإسلام صلة الإنسان بالمال بشكلٍ يجعل منه نعمةً كبرى ووسيلة لإسعاده في الدنيا والآخرة، فأعطاه الحق والحرية في اكتسابه بالطرق المشروعة بالسعي والعمل ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

فهو إذن أداة خاضعة لتصرف الإنسان إن شاء جعله نعمة وفضلًا ورزقًا طيبًا وإن شاء جعله عكس ذلك.

وبالجملة فالإسلام ينظر للمال على أن ملكيته الحقيقية لله، وأن وضع يد الإنسان عليه وضع استخلافٍ وتوكيل، توجب عليه أن يراعي الله فيه من حيث استثماره وإنفاقه على السواء، وذلك بأن يكون المال قوام الأمة كلها وليس لمالكيها فقط، وأن يتخذ وسيلة لقوة الأمة وتماسكها ضد الأعداء،

---

(١) انظر: السياسة المالية في الإسلام، الخطيب، عبد الكريم، ص ٤٦- ٤٧ ط٢ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص ١٧١- ١٧٧.
وقد رد على استدلال الحارث المحاسبي والذي تابعه فيه أبو حامد الغزالي بحديث أبي ذر مع كعب الاحبار عند موت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وقال إن الحديث غير صحيح لأن أبا ذر توفي سنة ٢٥هـ وعبدالرحمن بن عوف توفي سنة ٣٢هـ.

وهناك آيات تدل على أن صلاح الأمة مرتبطٌ برعاية الله في شؤون المال قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥].

وفتنة المال تكون بالخير والشر، وأهم فتن المال:

- فتنة الغنى وآثاره.

الغنى هو امتلاك المال الفائض عن الحاجة، والمال نعمة من الله بها على عباده فقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح:١٢].

كما سماه القرآن خيرًا فقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٠].

وفي الغنى فوائد دينية ودنيوية، فهو عونٌ على الدين، فالغني ينفق على نفسه ويستعين بالمال على العبادة كالحج والجهاد، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، كما أن الغني يتصدق على غيره وينفع عامة المسلمين كبناء المساجد والقناطر والوقف، وكان بعض السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما قنع بعضهم باليسير منه إيثارًا للعبادات.

والمال نعمة خصوصًا عندما يكون في يدِ تعرف حقه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[(١)].

ولكن قد يكون الغنى فتنة ونقمة، وهو الغالب، يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال)[(٢)]. وهذه الفتنة تكون من وجوه:

١. توهم رضا الله عنه.

فقد يخيل للغني أن غناه منحة إلهية تدل على الرضا العالي وأن السعادة لاتقوم إلا به، وقد نفى القرآن ذلك وسمى كلًا من الغنى والفقر ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾ [الفجر:١٥-١٦].

كما بين القرآن أنه لولا الفتنة على ضعاف النفوس لقصر الغنى والجاه على الكفار، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ١٩٧.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٣٧٥٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

ومن هنا يتبين أن «ليس للمال دلالة معنوية مجردة على خير أو شر وإن كان من الممكن أن يكون خيرًا، ومن الممكن أن يكون شرًا على حسب الطرق التي يؤخذ منها أو ينفق فيها»(١) وصدق القائل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

٢. عدم أداء حق المال.

وذلك في حالات:

- إمساك المال وعدم إنفاقه: وإمساك المال ممحقٌ للمال مذهبٌ للبركة يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: (ما نقص مال من صدقه)(٢). وقد يؤدي إمساك المال بصاحبه إلى عدم أداء حقه وقد يكون ذلك سببًا في محقه.
- كنز المال: هو جمع المال وادخاره، والكنز: المال المدفون، وقال الراغب: الكنز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه(٣).

وقد حذر القرآن منه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

وتدل الآية على حرص الإسلام على تداول الثروة في المجتمع وعدم حبسها لتعم منفعتها الجميع لقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧].

٣. اللهو والصرف عن العبادة.

وإن كان الإسلام يعد العمل عبادة، إلا أن الإفراط في حب المال وجمعه بحيث يطغى على القلب فيجر صاحبه للتقصير حتى في أداء الفروض، وهذا هو موطن الفتنة، أو يصبح المال كل همه وتفكيره دون ذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون:٩].

٤. البطر والتجبر والطغيان.

كما قال تعالى في المال عندما يفيض فيغرق صاحبه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق:٦-٧].

والله العارف بمن خلق يعلم بغي الغني فيقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

---

(١) الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية، محمد الغزالي، ص ١٥٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ٥٦١، رقم ١٨٠٣١، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨، رقم ٣٠٢٤.

(٣) انظر المفردات، الراغب ص ٧٢٧.

٥. الإغراء بالمعاصي.

لأن فيه القدرة على ذلك والمال نوع من القدرة وخصوصًا عند ضعاف الإيمان وهنا يثبت الابتلاء حيث فتنة السراء أعظم من الضراء فقد يجمع الغني بين كثير مما ذكرنا فيصل إلى حد المترفين الذين يشكلون خطرًا على المجتمع.

وقد نبه القرآن إلى خطورة هؤلاء فذكر أن أول عاداتهم المسارعة في تكذيب الحق والرسل ورد الحق الذي جاءوا به استدلالًا بما لديهم فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ:٣٤-٣٦].

قال ابن كثير: «وهم أولو الحسب والنعمة والثروة والرياسة»[١]، أي أن حجتهم في التكذيب أنهم أكثر من غيرهم أموالًا وأولادًا وهذا دليل على كرامتهم على الله فرد عليهم: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ﴾ وقال في أخرى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ:٣٧].

وتكرار مثل هذه الآيات يدل على أن تكذيب الرسل من قبل المترفين سنة مطردة، وقد فصل القرآن مواقفهم هذه تجاه كل نبي فقد تشابه ردهم وكأنهم يشعرون بعاطفة واحدة ويدافعون عن مصلحة واحدة[٢].

كما قرر القرآن الكريم أن الترف سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء:١٦].

قال الزمخشري: «والأمر مجاز: لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة الى المعاصي واتباع الشهوات وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير فلما فسقوا حق عليهم القول فدمرهم»[٣].

٦. فتنة سوء استخدام المال.

ويظهر ذلك في ناحيتين:

أ. الفتنة في سوء الكسب.

ويتمثل في الحالات الآتية:

١. كسب المال بغير حق.

وذلك مثل السرقة والنهب والغصب والسطو وقطع الطريق والغلول (وهو سرقة أموال العامة)[٤]، ولكل ذلك أدلته في

(١) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ٣/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) انظر الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية، الشيخ الغزالي، ص٤٤-٥٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٤.

(٤) ويطلق في الاصل على سرقة غنائم الحرب

التحريم والنهي، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨].

وقد جمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

ويدخل في ذلك الغش والاحتيال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[1].

ومثله تطفيف الكيل والميزان لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين:١].

ومنه أكل مال اليتيم حيث شدد الشرع في تحريمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وكذلك الاحتكار، ومثله التلاعب بالأسعار من قبل التجار وفي هذه الحالة تقدم مصلحة المجموع ويباح التسعير لوقاية المجتمع من المستغلين الجشعين ومعاملتهم بنقيض مقصودهم كما تقر

القواعد والأصول[2].

٢. **الكسب غير المشروع ولو برضا الطرفين.**

وذلك مثل:

- الرشوة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

وعن ثوبان قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي)[3].

- القمار والميسر.

وحرم لأنه تملك مال غير مقترن بجهد، ورضا الطرف الآخر لا عبرة به، لأن كلًا من الطرفين قصد الربح، فيسبب العداوة والبغضاء ويصد عن واجبات الإسلام لأن هدفه الربح بأقرب الطرق وغالبًا ما يخالطه المجون والفساد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ

قبل أن تقسم على المجاهدين من قبل الحاكم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «من غشنا فليس منا»، رقم ١٦٤، ١/ ٩٩.

(٢) الحلال والحرام في الإسلام، القرضاوي، ص ٢٣٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في كراهية الرشوة، ٢/ ٩، رقم ٣٥٨٠، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، ٣/ ٦٢٢، رقم ١٣٣٦، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، ٢/ ٧٧٥، رقم ٢٣١٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٠، رقم ٥١١٤.

﴿عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وكذلك اليانصيب وما شاكله هو ضرب من القمار.

٣. العقود المحرمة.

إن الأصل في العقود والشروط والبيوع الجواز والصحة، ولا يحرم و يبطل منها إلا ما دل على ذلك نص أو قياس[(١)]، والعقود المنصوص على حرمتها مجالها كتب الفقه.

٤. الكسب مقابل فعلٍ محرم.

مثل التجارة بالمحرمات كالخمور والمخدرات إنتاجًا وبيعًا وترويجًا، وبيع الخنزير، وكل عمل محرم كامتهان الكهانة والترويج للفاحشة عن طريق الصحف والمجلات ووسائل الدعاية الأخرى. ولاشك أن كل ذلك يؤثر في فساد الأخلاق والأمراض والتفكك الإجتماعي، وأكل أموال الناس بالباطل وإثراء فئة ضالة.

٥. تزييف العملة وترويجها.

وقد نبه إلى ذلك حجة الإسلام الإمام الغزالي عند ذكره لانواع الأمور المحرمة[(٢)].

ب. الفتنة في الإنفاق.

إن قضية الإنفاق وكيفيته ووجوهه لا تقل أهمية عن قضية الكسب ووسائله، وذلك لأن إنفاق المال يحتاج الى الحكمة والعقل التي يحتاجهما في كيفية الحصول عليه

فالذي يتحرى الحلال والكسب الطيب عليه كذلك أن ينفقه في وجوه وطرق سليمة نافعة وغير ضارة، ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة أحكام الإسلام ونظرته إلى المال على أنه مال لله وهو الوكيل والمستخلف فيه، ومحاسبٌ على إنفاقه، وأنه نعمة إذا لم يحسن التصرف فيها تنقلب نقمة وفتنة تستوجب الحساب في الآخرة وزوالها محتمل في الدنيا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه)[(٣)].

ويقول الحسن البصري رضي الله عنه: «إذا أردتم أن تعرفوا من أين اكتسب الرجل ماله فانظروا فيم أنفقه»[(٤)].

وفي طرق الإنفاق التي حددها الإسلام يكون قد وضع الأسس والضوابط القويمة للحفاظ على المال والمكتسبات بإنفاقها

(١) انظر: النظرية الإقتصادية في الإسلام، فكري أحمد نعمان، ص ٢٩٤.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الامام الغزالي، ٢/ ١١٧.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ٤/ ٩٥ رقم ٢٥٣٢ وقال: هذا حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

(٤) السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة، عبد الكريم الخطيب، ص٢١٢.

في محلها المشروع وهذه الأسس هي[1]:

١. تطهيرها بالزكاة بالإنفاق على الفقراء وذوي الحاجات.

ويكون الإنفاق من الكسب الطيب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:٢٦٧].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيب لا يقبل الا طيبًا)[2].

٢. الإنفاق على الأهل.

من الوالد والولد وذوي القربى بحسب القدرة والحاجة التي تدور بين الضرورات والحاجيات والتحسينات، ولا يتوسع بها لحد الترف المؤدي للضياع.

٣. الصدقة الموصولة على أصحاب الحاجات.

وإذا ساءت الأحوال فعليهم أن يسدوا خلة إخوانهم كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

٤. الاعتدال في الإنفاق.

كما دعت اليه النصوص الكثيرة والتي تمثل الوسطية ومثالية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان:٦٧].

وفي الحديث: (كلوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة)[3].

ويدخل في ذلك تحريم كنز المال الذي سبق الكلام عنه. وإذا كان الاعتدال مطلوبًا على مستوى الأفراد ففي الأموال العامة أكثر أهمية، وأولياء الأمر أمناء عليه.

٥. الرشد والأمانة فيمن يتولى الإنفاق.

والرشد ضد السفه قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥].

ولذلك منع القرآن إعطاء اليتامى الصغار أموالهم حتى يبلغوا الرشد فقال: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦].

إن اتباع الأسس السابقة يقود إلى الإنفاق المشروع وهذا هو الأصل من كلمة (إنفاق)

---

(١) انظر بعض هذه الاسس في: السياسة المالية في الإسلام، الخطيب، عبد الكريم، ص ٢١٢، وانظر: مشكلة الفقر وسبل علاجها في ضوء الإسلام، عبد الرحمن آل سعود، ١/ ٢٤٦-٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، ١/ ٧٠٣ رقم ١٠١٥. الدارمي، كتاب الرقاق، باب في أكل الطيب، ٥/ ٦٠٨ رقم ٢٧٢٠.

(٣) أخرجه معلقًا البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، ٧/ ١٤٠، ووصله ابن ماجه في سننه، كتاب اللباس، باب إلبس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، ٢/ ١١٩٢، رقم ٣٦٠٥. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٠، رقم ٤٥٠٥.

حتى إذا ما أطلقت أريد بها ذلك، أو أخص بأنه: بذل المال في سبيل الله والذي شجع عليه الشرع لما له من الأثر في شخصية المسلم[1].

أما الفتنة في الإنفاق فتكون بوضع المال في غير محله مما يؤدي الى ضائقة إقتصادية، أو فساد خلقي على المستوى الفردي والجماعي ويتمثل في الوجوه الآتية:

- وجود المال في أيدي غير آمنة أو غير قادرة على حفظه واستثماره كما مر في السفيه.
- عدم أداء حق الله في المال وشكره بدفع الزكاة والصدقات في وجوه البر المختلفة.
- الإسراف والتبذير والترف، والمقصود بها الإفراط في الإنفاق فيما لا يحتاج إليه، وقد يصل الإسراف والتبذير لحد الترف الذي تكلمنا عن آثاره الخطيرة
- الشح والبخل: وكما نهى الإسلام عن الإسراف نهى عن البخل والتقتير فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩]. وفي آية آخرى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠].
- الإنفاق في المحرمات والمكروهات: وذلك مثل اقتناء الأشياء المحرمة كالتماثيل، وعلى الملاهي وشرب الخمر والميسر أو إهلاك المال في الفساد وفي المخدرات بأنواعها بالقياس والنص[2]، وذلك لأنها كالخمر في التأثير وعلة التحريم قال ابن تيمية: «إن من غاب عقله منها يجب أن يقام عليه الحد ثمانون جلدة كحد الشرب من الخمر سواء بسواء»[3].

٢. فتنة الزوج والولد.

أشار القرآن الكريم إلى إمكانية وجود هذه الفتنة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤].

---

(١) انظر: الإنفاق وأثره في بناء شخصية المسلم، أحمد محمد عبد الخالق، حيث ذكر ثمانية آثار وهي:١- انه يربي المسلم على الثقة بالله،٢- الثقة في وعده بالمضاعفة الى سبعمائة ضعف، ٣-على الصدق مع الله، ٤- على تزكية النفس وتطهيرها من الشح والبخل، ٥- على تحري الحلال، ٦- الإحساس بالاخرين، ٧- على الإخلاص،٨- الاستعداد للقاء الله، بحث منشور في مجلة الخيرية العدد٦٨ رجب ١٤١٦هـ-السعودية ص ٢٤-٢٧.

(٢) انظر: الحلال والحرام في الإسلام، أحمد عساف، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٣.

وفي هذه الآيات نلمح الإعجاز التربوى فى النص الكريم، فمن معانى هذه الآية أن من الأزواج والأبناء من يمكن أن يكون عدوا للعبد المؤمن لأنهم يشكلون عائقا بينه وبين عمل الخير ويحولون بينه وبين القيام بواجبات الطاعة لله تعالى بل قد يدفعونه إلى السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام من أجل تحقيق رغباتهم المادية العاجلة بأي ثمن، وذلك انطلاقا من فرط محبته لهم، ومن شدة تعلقه بهم، ولذلك تأمر الآية الكريمة بضرورة الحذر من هذا النوع من الزوجات والأولاد، وذلك بعدم الاستجابة لرغباتهم، أو الطاعة العمياء لأهوائهم، وجاء سبب النزول ليؤكد هذا المعنى.

فعن ابن عباس سأله رجل عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأوا أصحابهم قد فقهوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [1].

ولذا جاء هذا التحذير من إمكانية هيمنة الأزواج والأولاد على العبد المؤمن لصرفه عن طاعة الله تعالى انطلاقا من الحرص على الأموال أو المحافظة على السلامة لأن ذلك مدخل من مداخل الشيطان الذى يستغل العاطفة بين الزوجين وتلك التى تربطهما بأبنائهما لتحقيق غايته ولذلك اتبعت هذه الآية الكريمة بقوله وتعالي: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن:١٥-١٦].

وهذه الآيات الثلاث فى سورة التغابن تنبه العبد المؤمن إلى إمكانية أن يكون له من زوجه وولده عدوا له يصرفه عن البذل فى سبيل الله حرصا على المال، أو يثبطه عن الجهاد فى سبيل الله حرصا على النفس، أو يستغل نفوذه إذا كان صاحب نفوذ للإفساد فى الأرض.

وقد تكون زوج الرجل والأبناء فى طريق غير طريق الزوج المؤمن، فيحاولون جاهدين صرفه عن طريقه السوي إلى طرقهم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التغابن، ٥/ ٤١٩، رقم ٣٣١٧.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الملتوية فيهلكوه، أو أن يستغلوا جاهه وسلطانه في غير ما يرضى الله فيدمروه، وقد اقتضى كل ذلك هذا التحذير الإلهي الشديد لكل عبد مؤمن من إمكانية الوقوع في موقف يعجز فيه عن المفاصلة بينه وبين زوجه وأبنائه إذا وقفوا عائقا حقيقيا دون تحقيق عبوديته لخالقه، ثم كررت الآيات في السورة هذا التحذير في صورة أخرى هي فتنة الأموال والأولاد، بمعنى بمعنى الافتتان حتى الوقوع في عدد من المخالفات الشرعية سواء كانت صغيرة أو كبيرة ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥].

هذه العداوة ليست قاصرة على الزوجة والأولاد، بل ربما تكون عداوة الزوج لزوجته وأولاده وفتنته لهم أشد وأنكى، فقد يمنع الزوج زوجته من البر بأقرب الناس أو حتى الإنفاق فيما تملك.

وفتنة الأهل والولد درجات، فقد تصل الفتنة إلى درجة الكفر، وقد تقصر عن ذلك: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠].

وإذا أردنا أن نخص فتنة الأزواج فقد تدخل فتنة الزوجة ضمن فتنة النساء التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع نظرة الإسلام للمرأة نظرة تكريم إلا أنه عدها من زينة الدنيا التي تفتن الرجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

فإذا كانت المرأة صالحة كانت خير متاعها، وإلا فلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)**[١].

ومن جانب آخر نجد أحاديث تحذر من فتنة النساء كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل في النساء)**[٢].

وفي حديث آخر: **(فما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)**[٣].

وتتجلى فتنة النساء في المظاهر الآتية: كيد النساء، لما في طبيعة المرأة وفطرتها من الكيد الذي تستعمل فيه وسائل التأثير على الغير، حب المرأة للمظاهر والنعيم، والميل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ٢/ ١٠٩٠ رقم ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة..وبيان الفتنة بالنساء ٣/ ٢٠٩٨ح ٢٧٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم النساء، ٦/ ١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وبيان الفتنة بالنساء، رقم ٢٧٤٠- ٢٧٤١، ٣/ ٢٠٩٧.

المفرط من جانب المرأة لذلك قد يوقع الرجل الضعيف في فتنة الكسب الحرام أو المشبوه لإرضاء تطلع المرأة، تسلط النساء على الرجال: وهي أن تنقلب الموازين فتصبح الكلمة للمرأة دون الرجل، وهو خلاف الفطرة والشرع، وقد يقع هذا التسلط في مجال الإسرة، وهو خلاف القوامة، كما أنها قد تفسد علاقته بالآخرين وأقرب الناس إليه فتوصله إلى قطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وهي فتنة تعاني منها أغلب المجتمعات اليوم، وفي مجال السياسة: تأثير المرأة على الرجل الذي يتولى الأمر في قرارات خطيرة تتعلق بأمور المسلمين وقد حدثنا التاريخ كيف أثرت النساء في هذا المجال والأمثلة كثيرة لا مجال لذكرها.

أما فتنة الولد، فإن الله تعالى عالم بمواطن الضعف في الإنسان، ويعلم أن الحرص على الأولاد من أعمق تلك المواطن، وتكون الفتنة فيهم من وجوه:

١. عدم أداء حق الله وشكره على نعمة الأولاد.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

فقد قرن الأولاد بالمال وكلاهما ابتلاء وامتحان من الله، فمن أطاع الله فيهما وشكر فقد فاز ومن شغل بهما فقد خسر.

وقد ورد في التفاسير أن هذه الآية متعلقة بما قبلها، وهي التي نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الذي خان الأمانة وأفشى السر ليهود بني قريظة، وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله في أيديهم فندم فنزلت الآية لتعلمهم أن الأمانة مع الله ورسوله فوق كل شيء، حتى ولو كان المال والولد، فقال الزمخشري فيها: «جعل الأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع في الفتنة، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده»[(١)]، فالأمانة تقتضي الاستعلاء على فتنة الأولاد، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)**[(٢)].

٢. الانشغال بهم عن الطاعات والقربات من العمل الصالح وذكر الله بل وربما الانشغال بهم عن أداء الفروض الموجب تركها الإثم والعقوبة كالجهاد.

والفتنة في هذا الجانب كبيرة كما أشار النص السابق ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ حيث يعالج القرآن ذلك محذرا من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢١٣ - ٢١٤

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٦، ١/ ١٤.

كما نبه عن الانشغال بهم عن ذكر الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩].

وقد شدد في التحذير منهم حتى جعلهم كالأعداء إذا صدوا عن مسألة خطيرة تتعلق بمصالح الأمة حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤].

وقد سأل رجل ابن عباس عن الآية فقال: «فهؤلاء الرجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾»[1]. وقال الزمخشري: «إن من الأزواج أزواجًا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادًا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى فاحذروهم لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عداء، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم.»[2] وهي عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد.

٣. ومن مواطن الفتنة التنافس والتكاثر بهم للتفاخر والزينة.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١-٢].

وجاءت آيات كثيرة تعيب على الذين يتباهون بكثرة الأولاد وخصوصا البنين منهم، لأنهم سوف يأتون يوم القيامة فرادى ولن تنفعهم أولادهم بل هي أعمالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ [آل عمران:١٠].

٤. ومن فتنة الأولاد التقصير في تربيتهم وتوجيههم ونصحهم.

وقد نبه القرآن إلى ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

ويتضمن ذلك عدم المساواة بينهم في العطاء وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)[3].

ومن ذلك تفضيل البنين على البنات وعدم المساواة بينهم في المحبة والعطاء والتربية، وقد عد الإسلام ذلك من الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ﴾

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الصابوني، ٣/ ٥١٠.
والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٥٣٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٥٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ٢/ ١٢٤٢، رقم ١٦٢٣.

﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل:٥٨].

فحث الرسول صلى الله عليه وسلم على رعايتهن وجعلها سببا لدخول الجنة، ومع ذلك فإن هذه الفتنة ما زال يقع فيها الكثير حتى ممن يدعى الثقافة، والعلم الشرعي!!

ومنها القسوة في معاملة الأولاد، وقد حث الرسول على الرفق معهم وخفض الجناح والملاطفة، وكان صلى الله عليه وسلم قدوة في ذلك، ولنا في وصايا لقمان الحكيم لابنه التي قصها القرآن نموذج للتربية الصالحة.

٣. فتنة الجاه والسلطان.

حب الجاه: أصل الجاه: انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم إذا قصده المرء، كما أنه من أعظم مظاهر الحياة الدنيا، لذا كانت فتنة الجاه من أعظم الفتن.

ومعناه: «هو قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال في شخص، إما من علم، أو عبادة، أو نسب، أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالًا، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك، تذعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره»[(١)].

ويقترن حب الجاه بحب المال، وهما على رأي الإمام الغزالي ركنا الدنيا، وعلى هذا فالجاه محبوب بالطبع، وقد يفوق حب المال، لأن المال ليس هدفًا بذاته بل وسيلة متاع الدنيا، وقد يكون الجاه طريقًا إلى المال

وهذا لا يعني أن الجاه مذموم جملة وتفصيلًا، بل فيه ما يحمد، وفيه ما يذم وهو الغالب فحب المرء أن يكون له منزلة في قلوب من حوله لضرورة التعايش معهم ليس بمذموم، أو لصفة هي فيه لغرض نافع فهو مباح، كقول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥].

أو قصد إخفاء ما لا يليق لأن الستر على القبائح جائز.

والمحظور أن يطلب الجاه لذاته أو بما ليس فيه كالعلم والورع والنسب، وأن يكون ذلك كل همه، فتظهر الفتنة فيمن غلب على قلبه ذلك فيعمد لتحقيقه بارتكاب المعاصي كالكذب والخداع، أو بالعبادة فيدخل في الرياء المحرم، وربما بالنفاق كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حبك المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل)**[(٢)].

وحب الجاه يؤدي بصاحبه إلى حب المدح وإن كان بما ليس فيه، وكان أهل الصلاح يفرون من الشهرة والجاه، كما روي

---

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ٣/ ٣٢٤، مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ص ٢٧٠.

(٢) إتحاف السادة المتقين، الزبيدي، ٨/ ١٤١.



عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان» وفي لفظ آخر أنه قال: «ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»[(١)].

وقد قرن تعالى بين إرادة العلو والفساد فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

أما فتنة السلطان فهي الأشد ولذلك سأقف عليها ببعض التوضيح:

ومن المعروف أن الإسلام دين ودولة، ولا يمكن أن تطبق تعاليم الإسلام من غير وجود دولة ورئيس لها وقد تختلف الألقاب لمن يتولى أمر المسلمين كالخليفة والسلطان، والأمير وكلها مسميات لمعنى واحد. أما وسيلة إسناد السلطة فهي «البيعة» وهي: «عقد رضائي بين الأمة والحاكم ملزم للجانبين، يلتزم فيه الأمير بأن يسير بالأمة وفقًا للكتاب والسنة، وأن يقوم بفروض الإ مامة وتلتزم فيه الأمة بتقديم الطاعة والنصرة له ما لم يتغير حاله»[(٢)].

وبما أن الحاكم نائب عن الأمة ووكيلها، فإن سلطته مقيدة بحدود تلك الوكالة وهو مقيد بما تقيد به الأمة في الأصل، فلا يملك أكثر مما يملكه الأصيل[(٣)].

وللحاكم واجبات أهمها تطبيق الشرع، وقد فصل العلماء في ذلك[(٤)]، وهي «رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم»[(٥)]، والتي يجمعها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)**[(٦)].

وفتنة السلطان تتمثل في مشكلة تجاوز السلطة لحدودها: بما أن وجود الحاكم

---

(١) راجع إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٢٧٦.

(٢) النظام السياسي الإسلامي مقارنًا بالدولة القانونية، منير حميدالبياتي ص٢٠٩.
وانظر: الحاكم وأصول الحكم، صبحي عبد سعيد ص٤٧-٥٠.

(٣) انظر: النظام السياسي الإسلامي، منير حميد البياتي، ص٢٤٠.

(٤) فصلت كتب السياسة الشرعية حقوق وواجبات الحاكم كالماوردي، والأحكام السلطانية، أبو يعلى وابن تيمية والشهرستاني، وابن خلدون، وعبد الوهاب خلاف وانظر: فقه المسؤولية في الإسلام، لعلي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٥٠-٢٧٧.

(٥) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤، ١/ ٤٦٤.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب تأويل قوله تعالى: (من بعد وصية...)، ٣/ ١٨٩، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٢/ ١٤٥٩.

واجب لا بد منه، فإن وجود السلطة يقسم الجماعة إلى حاكم ومحكوم، وآمر ومطيع، ولكي تقوم السلطة بمهمتها الداخلية والخارجية دون التعرض لحقوق الأفراد وحرياتهم وصيانتها، ودون ظلم لأحد الطرفين، فقد تكفل الإسلام ـ وهو النظام الرباني ـ بحل ذلك بأن قيد سلطة الحاكم بالشرع، فإذا تجاوز ذلك وانحرف فقد فتح باب المشكل السياسي والذي هو «مشكلة شعب في مواجهة سلطة»[1].

وذلك لأن الأمة مسؤولة أمام الله في اختيارها للحاكم، وعليها ألا تسكت أمام إنحرافات السلطة، كما أن الفرد والأمة مسؤولون في طاعة الحاكم بالمعصية والتي تستحق العذاب عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧﴾ [الأحزاب:٦٧]، كما تثبت مسؤولية الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥﴾ [الأنفال:٢٥].

ولقد حذر القرآن الكريم من الوقوع في فتنة الصراع بسبب السلطة، وضرب لنا الأمثلة على الطغاة المستبدين الذي غرهم سلطانهم فضلوا وأضلوا وذلك لأخذ العبرة منهم، لأن فتنة المال وشهوة الحكم جذورها عميقة في أعماق النفس البشرية، وقد ذكر لنا القرآن أبرز مثل في فرعون الذي استعبد الناس، ويبلغ من تجبر هذا الطاغية أن استخف بدعوة موسى عليه السلام وقال القرآن عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف:٥١].

والأكثر من ذلك ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

ومن أهم أسباب ذلك الانحراف هو حب السلطة والمنصب والجاه: ومن المعروف أن للمنصب عند البعض نشوة تلعب بالرؤوس لا تعادلها نشوة، فتساعد على الغطرسة والاستعلاء والبطش، وتزين لصاحبها أنه على الحق والصواب[2].

وقد تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هؤلاء الحكام المسببين للفتن فقال: **(إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع في أمتي السيف لم يرفع إلى يوم القيامة)**[3].

(١) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي ص٢٧.

(٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، أبو زهرة، محمد، ١/ ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأئمة المضلين، ٤/ ٥٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم ٣٩٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٤، رقم ١٧٧٣.

كما تنبأ بوجود الحاشية الفاسدة لهم فقال: (أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه ويضلهم بجهله)[(١)].

وعلى هذا واجه الحكام المعارضين بالقمع، وخصوصا لمن كان عنده الاستعداد الشخصي للانحراف عند بعض الحكام: فالنزوع إلى إساءة استعمال السلطة إنما هو نزعة سلوكية واعوجاج في سلوك الإنسان، وقد عالج الإسلام ذلك بربط أصول الحكم بالعقيدة والأخلاق ـ حماية للحاكم من الاستبداد ـ باعتباره منفذًا للشريعة وليس له سن القوانين، كما حث الإسلام على تولية الكفء الأمين ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

ثم العقاب الدنيوي بالخلع وعقاب الله بالآخرة[(٢)].

ومن العوامل المساعدة على الانحراف وزيادة الفتنة وجود بطانة السوء المحابين لذوي السلطة وهم أصناف منهم الأقارب (العصبية): ويكون لهؤلاء تأثير إيجابي، ولكن الغالب أن يكون لهم تأثير سلبي للاستئثار بالمناصب والجاه والمالومنهم الأعوان من ذوي المراكز: كالوزراء والولاة والقادة، ومنهم كذلك بعض الأغنياء وأصحاب المصالح الذين يتقربون للحاكم وذويه حفاظًا على ثرواتهم وخصوصًا ذوي الكسب غير المشروع، فيستغلهم بالمقابل لجمع المؤيدين وتضليل الناسومنهم الأدباء المداحون: وهم يمثلون (وسائل الإعلام في الوقت الحاضر).

ونرى من يبالغ فيجعل للخليفة صفات الله ومقام النبوة، فهذا ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلًا[(٣)]:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

ومنهم العلماء (فقهاء السلاطين): وإذا وضعنا تأثير الأصناف السابقة في فتنة الأمة في كفة، نضع في الكفة المقابلة تأثير العلماء، لاقتداء العامة بهم.

وعلى هذا كان لفتنة الحكم والسلطة أثر في التراجع الحضاري للأمة الإسلامية وجرت عليها السنن الإلهية التي تصيب من نكص عن اتباع الرسالات السماوية ولا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٨٩، رقم ١٤٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٣٩.

(٢) انظر: النظام السياسي الإسلامي، منير حميد البياتي، ص١٦٣-١٦٤.

(٣) ديوان محمد هانئ الأندلسي، تحقيق محمد اليعلاوي ص١٨١.

أمل إلا بالرجوع إلى حكم الله والاعتبار بالأمثلة القرآنية الواقعية في هذا المجال، وأهمها العمل بالشورى، وفتنة السلطة قد تكون بنهج صاحبها للظلم وعدم المساواة، والنصوص الشرعية في تحريم الظلم كثيرة جدا وهي تتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه وغيره ومقرونة بالتهديد والعذاب والخسران.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١].

كما عرف القرآن الظلم فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

فيكون الظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي[1]. وفي الحديث القدسي كما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[2].

ونتبين موقف الإسلام في تحريم الظلم في نصوص وجوب العدل نقيضه في آيات كثيرة، فالعدل شرعا: «وضع الشيء موضعه الشرعي وإعطاء كل شيء حقه من المكانة أو المنزلة أو الحكم أو العطاء»[3].

فالعدل ميزان الله في الأرض، وهو قوام الدين والدنيا، والآيات التي توجب العدل والقسط كثيرة منها قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

فالأمر بالعدل نهي عن الظلم كما أن نصوص السنة زاخرة بالدعوة إلى العدل، بل إن أول وثيقة دستورية أعلنها النبي الكريم في المدينة تكرر فيها كلمة القسط والعدل أكثر من تسع مرات[4].

ولما كان من السنن الإلهية أنه لا يفلح الظالمون، فقد أدت إلى زوالهم، كما أكدت القصص القرآنية هلاك الأمم الظالمة، ولذلك يقول العلماء: «إن الدولة تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧].

يقول الرازي: «إن المراد من الظلم في هذه الآية، الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم»[5].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥/ ٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٣/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.

(٣) السنن الإلهية، عبد الكريم زيدان، ص١١٥.

(٤) النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية، منير حميد البياتي، ص١٤٩-١٥٠.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٧٦.

ثانيًا: الفتنة بالشر:

١ . الفتنة بالإيذاء.

ولهذه الفتنة صور كثيرة منها الأذى بالبدن، وقد يكون قدريا من الله وقد يكون الأذى مسلطًا على فرد أو جماعة، وتكمن الفتنة في الثانية، فقد يسلط أهل الباطل على أهل الحق بالإيذاء النفسي والبدني، ولنا أمثلة من الإيذاء النفسي الذي واجهه الأنبياء عامة والرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، فرميه بالكذب - وهو الصادق الأمين- تارة وبالجنون تارة، وبالكهانة والسحر أخرى كان إيذاءا شاقا على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر القرآن تلك الاتهامات في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٥].

وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات:٣٦].

أما الأذى البدني فقد كان الأنبياء لهم منه نصيب، فقد رمي إبراهيم عليه السلام بالنار، وأوذي محمد صلى الله عليه وسلم بدنيا وعذب صحابته من قبل مشركي قريش، من مثل بلال وعمار وخباب رضي الله عنهم، وهذا هو فعل الطواغيت حين يعجزون عن صرف المؤمنين عن دينهم، ومن أصاف الأذى البدني التذيب بالنار، والخنق، ونزع اللحم عن العظم، والنشر بالمنشار[1].

وقد يبتلى الفرد ببدنه بعاهة أو عوق، وليس له إلا الصبر ليؤجر على ذلك فثواب الصبر مفتوح بغير حساب، وهذا الأسلوب ما زال يتبع وبوسائل كثيرة في العصر الحاضر.

أما فتنة المرض فقد تعرض لكل الناس، وهو فتنة بالشر لأن الإنسان خلق ضعيفا، والمؤمن يصبر أمام فتنة المرض حين يستحضر الأجر منه إذا صبر عليه، فالأمراض والأسقام وإن كانت ذا مرارة إلا أن الله جعل فيها حكما، فهو يكون في حالة الفقر إلى بارئه فيلجأ إليه، فقد ابتلى الله يعقوب في بنيه وفراق يوسف وأخيه وكف بصره ثم رده الله إليه بعد صبر طويل، وفي قصة أيوب امتحنه الله امتحانًا خاصًا في نفسه وولده وماله فضرب مثلًا أعلى في الصبر ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

وقد كشف الله عنه البلاء وعوضه خيرًا وأمرض القلوب فتنة أكبر، فقد أثبت القرآن الكريم أن للقلوب أمراضًا هي أشد من أمراض الجسد.

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ

(١) انظر: الفتنة وموقف المسلم منها، عبد الحميد السحيباني، ٢١٣-٢١٦.

﴿مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

هذه الأمراض تتسبب في فتن اجتماعية للمسلمين، منها: غلظة القلوب، والفتنة في ذلك أن الناس ينفرون من الفظ الغليظ القلب حتى ولو كان ناصحًا، ولذلك عصم الله سبحانه وتعالى الأنبياء من هذه الصفة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والحقد والحسد وهما مرضان قديمان، وأوله حقد إبليس على آدم عليه السلام، ولم تهدأ ثائرة حسده بإخراج آدم وزوجه من الجنة، فطلب أن يتبعهما وذريتهما في الدنيا ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:٦٢].

وآثار الحسد سيئة على الفرد والمجتمع، إذا خالط قلبًا عجز عن ضبطه وكتمانه حتى يغلب على من اتصف بالدهاء فتظهر في كلامه وفلتات لسانه وأسارير وجهه، كما أنه مضر بالجسد والنفس.

وقد يكون مرض القلب همًا يعاني منه المرء لسبب من الأسباب، يعان عليه بالدعاء المأثور (اللهم إني أعوذ من الهم والحزن والعجز)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن، رقم ٦٠٠١، ٥/ ٢٣٤٠، وباب الحيس ٥١٠٩ ٥/ ٢٠٦٩.

أما القتل والخوف فكل منهما فتنة تظهر وتزداد لأسباب كثيرة، منها السياسية والطائفية وغير ذلك، وقد يتعرض لها أصحاب الدعوة الحق بعد فشل المساومات معهم، لأن العقيدة لا تخضع للمساومة والابتزاز، فقد قتل أنبياء ودعاة.

وكانت هناك محاولات من قبل اليهود والمشركين لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، والقتل وكثرته من علامات الساعة التي نراها واضحة في زماننا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس بيده لا تذهب الدنيا، حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل؟! فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرج، القاتل والمقتول في النار)[2].

وفتنة الخوف ملازمة لما قبلها، فالأمن والسلام نعمة امتن الله بها على قريش ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٣-٤].

ولذلك جعلت التحية في الإسلام بلفظ السلام، وهذه النعمة لا يدركها إلا من افتقدها، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الأمن من أركان الحياة الثلاث فقال:

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٢٩٠٨، ٤/ ٢٢٣١-٢٢٣٢..

(من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[1].

والخوف قد يكون ابتلاءً وامتحانا من الله كما ذكر في كتابه الكريم: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقد يكون الخوف نوع عقوبة من الله تبارك وتعالى على معاصي ارتكبها الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

والخوف المحمود هو الخوف من الله تعالى، أما المذموم فهو الذي يوقع الإنسان في مخافة الناس على حساب مرضاة الله وهو الذي يدفع بالإنسان إلي الانهزام والتخلي عن المعتقد أو الحقوق، ويفسح المجال أمام العدو ليعيث في الأرض الفساد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

٢. الفتنة في المال والأهل.

الأرزاق من الله يقدرها بحكمته وفق مصالح العباد، كما قال تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات:٢٢].

وعلى العبد السعي في تحصيل رزقه وماله أخذًا بالأسباب.

وقد يصاب الإنسان بفتنة نقص المال أو ضياعه، وهو نوع من الابتلاء الذي يمتحن به الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥].

وطلبت منه الصبر على البلاء وللصابر البشرى، وسأتناول فتنة الفقر، وآثارها على الفرد والمجتمع.

وأثر الفقر في مجال الأسرة: ويظهر أثره في الأمور الآتية:

في تكوين الاسرة ابتداءً لأن الفقر يعيق الشباب عن الزواج وتحمل تبعاته من مهرٍ ونفقة البيت والأولاد هذه العوائق الإقتصادية قد تودي بضعاف الإيمان إلى جريمة الزنا فجاءت النصوص لتوجيه الشباب إلى الصبر فقال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٠٠، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٧٤، رقم ٢٣٤٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

[النور:٣٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1]، أي: وقاية وعلاج وفي الصوم يتحقق الصبر.

والفقر خطر على تماسك الأسرة وتكاثرها حيث تقدم الأسرة على تحديد النسل وتقليله، والأكثر من ذلك قتل الأولاد بطرق جديدة كالإجهاض خشية الفقر، وقد نهى الله سبحانه و تعالى عنه فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. ومثلها في المعنى [الإسراء:٣١].

أما فتنة النقص في الولد عند الحرمان منهم بسبب العقم أو غيره، فتكون فتنة في الشر، لأن الأولاد من زينة الدنيا المحببة للنفوس، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

والحرمان منها يقتضي الصبر والاحتساب وإلا أصاب النفوس العنت، وأوقعها في فتنة الجزع والحسد والحقد وغير ذلك ولذلك بعد ذكرهم الله بأنهم زينة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾لم يجعلها قيمة للإنسان بل مجرد زينة ولهو، فلذلك عقب بالقول ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

وهي تتبع فتنة الأهل فهي بما يصيبهم من نقص أو خلل أسري ولها أشكال وصور كالعقوق والنشوز والاختلاف عقائدي، زقد وضع الإسلام وقاية وعلاجا لكل هذه الحالات، وعلى العموم تواجه جميعها بالصبر ولاحتساب والدعاء.

٣. فتنة الإخراج من الأوطان.

والمقصود هنا الإخراج القسري المجبر عليه الإنسان وليس الخروج الطوعي، وقد نال من تلك الفتنة أكثر الأنبياء عليهم السلام، ولكنهم استطاعوا أن يستثمروا تلك الفتنة والنقمة وتحويلها إلى نعمة بفضل الله ومثابرتهم على مواصلة الدعوة.

وقد ضرب القرآن الكريم مثلا بهجرة إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، وبخروج أصحاب الكهف فرارا بدينهم فحفظهم الله من عبث المفسدين.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، ٢/٢٢٨-٢٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ووجد مؤونته، ٢/١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

﴿عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٠-١٦].

ومن المعلوم يعلم أن طريق الهجرة وعرة المسلك، ومليئةٌ بالمنغصات، وتبقى ساعة الوداع مؤثرة، والوقوف على الأطلال يرافقه البكاء، حتى النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة قال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت)[١].

وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، عندما هاجروا إلى المدينة - كما تذكر عائشة رضي الله عنها - تذكروا مكة وجبالها، وخاصة أن المدينة أوبأ أرض الله من الحمى، وقد أصابت الحمى بعض الصحابة، وكان بلالٌ إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع صوته:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً
بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنةٍ
وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها: ثم إني دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: **(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل حماها واجعلها بالجحفة)**[٢]، فغرس الله بعد ذلك حب المدينة في قلب الصحابة ومن بعدهم أبد الدهر.

فالإخراج من الأوطان فتنة تقتضي الصبر والاحتساب والحفاظ على العقيدة، ونشر الدعوة، والاقتداء بالمثل الصالح من الأنبياء والسلف الصالح.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٠، رقم ١٨٧١٥، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، ٥/ ٧٢٢، رقم ٣٩٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسب، باب فضل مكة، ٢/ ١٠٣٧، رقم ٣١٠٨.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٢، رقم ٧٠٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، ٥/ ٦٦، رقم ٣٩٢٦.

مجالات الفتنة

أولًا: الفتنة في الدين والعبادات:

١ . الفتنة في الدين.

الفتنة في الدين قد تعرض للفرد والمجتمع والأمم، ولها أسباب كثيرة وصور متعددة، وتحصل بإحدى طريقتين:

الأولى: أن الإنسان يبتلى في دينه من قبل نفسه الأمارة بالسوء، فهو اختارها طواعية لنفسه، كأن أصيب الإنسان في دينه بانحراف أو شبهة أو شهوة فذلك أعظم المصائب، وإنها لخسارة الدنيا والآخرة.

والثانية: أن يسلط على المرء أو الجماعة من يفتنهم إكراها عن دينهم، وخصوصا ما حصل للأنبياء والصالحين والدعاة على مر الأزمان، وقد أجبر المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها لتبديل دينهم وتنصيرهم كرها.

فقد يستدرج الإنسان أو المجتمع للفتنة في الدين فيقع طواعية أو يجبر إكراها، ولكل الحالات صور وأسباب كثيرة، وهي في أزماننا شاخصة واضحة يجمعها دعاء الرسول في التعوذ منها في قوله: (ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)[١].

وأشد تلك الفتن: الشرك والكفر، وذلك بصد الناس عن دينهم الحق.

قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

فقد فسرها ابن عباس صلى الله عليه وسلم هنا بالكفر[٢].

قال الطبري: قد كانوا يفتنون عن دينه حتى يردوه لى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل»[٣].

وقد تصل هذه الفتنة إلى الإكراه بشتى الوسائل، كالأذى الجسمي والنفسي والاقتصادي وغير ذلك.

وقد تكون الفتنة في الدين بطرق ناعمة قد لا يلتفت إليها مثل فرض الأنظمة والأوضاع الفاسدة ومحاربة المسلمين في ديارهم.

ومنها: نشر الإلحاد والتشجيع عليه بتخطيط ممنهج، وقد بذلوا في سبيل ذلك كل الوسائل وكان من نتيجتها إلزامهم بالتحاكم إلى قوانين وضعية وغير ذلك.

ومنها: ظهور الفرق الكلامية قديما التي كانت نتيجة لترجمة الفلسفة اليونانية، وكان

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٢٨، رقم ٣٥٠٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٢، رقم ١٢٦٨.

(٢) انظر مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٤١.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٦١.

هدف بعضها الدفاع عن الإسلام بطرق فلسفية، وبعضها استهدفت الإسلام والنيل منه، والمهم أنها أحدثت فتنة دينية وفرقت المسلمين، كما ظهرت فرق حديثة بعضها اتخذت من الدين ستارا لهم، وبعضها جاهرت بالعداء له.

وهذه الفتن يتعرض لها المؤمنون قديما وحديثًا بصورة عامة والدعاة بصورة خاصة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، نتيجة للصراع بين الحق والباطل، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فتلحق بهم فتن لها صور كثيرة منها:

- حملات التشويه للمخلصين وتنفير الناس منهم.

وحث الناس على عدم التعاون والتعاطف معهم، مع التشكيك بصدقهم، وهو جزء من الحرب النفسية الإعلامية عن طريق الاستهزاء والسخرية، وقد كانت هذه أحد أساليب قريش ضد الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنبياء:٣٦].

و قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان:٤١].

ومثلها في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام:١٠].

ثم جاء الاستهزاء من قبل المنافقين في المدينة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤﴾ [البقرة:١٤].

ويشمل هذا الاستهزاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأسلوب المستهزئين واحد في كل العصور بل تفننت وسائل الإعلام في العصر الحاضر بذلك كما نسمع ونرى.

- اتهام المتدينين المخلصين بالكذب لتشويه صورهم وإثارة الشكوك حولهم.

والقرآن حافل بالآيات في اتباع الظلمة لهذا الأسلوب القبيح كما جاء في القرآن عنهم: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص:٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤].

وكا حص مع الأنبياء السابقين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء:١٠٥].

- الاتهام بالجنون، للتشكيك بقدراتهم العقلية.

كما جاء عن اتهام النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر:٦].

- الاتهام بالسفاهة.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣].

وهو ما قيل في حق هو عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦].

ومثل ذلك الاتهام بالسحر والكهانة مما وصفت به الأقوام المشركة الأنبياء، وفي العصر الحاضر يتهم المتدينون بالرجعية والجمود والتحجر.

- التهديد بالأذى، كالتهديد بالضرب والرجم.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

- التهديد بالسجن.

كتهديد فرعون لموسى ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

- التهديد بالقتل والتشريد.

فقد حكى القرآن عن قوم شعيب هددوه ومن معه بذلك ﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

حصل لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء:٧٦].

- التهديد بالقتل.

وقد حصل لكل الأنبياء، وبقطع الرزق وبها تعلل المشركون حين قالوا: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

ومنها الإغراء بالمال والجاه والسلطان، وهي وسيلة قد تسقط الكثيرين ممن ثبتوا أمام الحملات الإعلامية والتهديد بالأذى، ولكنهم قد يتراجعون أمام الإغراءات الدنيوية، يصبر في الشدائد ولكن يتهاوى أمام حظوظ الدنيا، ولقد حاولت قريش اتباع هذا الأسلوب مع النبي صلى الله عليه وسلم، حين عرضت عليه المال الجاه والسلطة ولكنها فشلت أمام العقيدة الراسخة التي لا تقبل المساومة.[1]

ومن مظاهر الفتنة في الدين كما هو مألوف هو موالاة الكفار على حساب المسلمين، وهو ما نهى الله تعالى عنه ورسوله بنصوص كثيرة، وهو نتيجة لضعف الإيمان.

قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

(١) انظر، الابتلاء في الدعوات، عبد القادر أبو فارس، ص٤١ -٨٩.

﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وعلة ذلك لأنهم لا يألون جهدا في إفساد أحوال المسلمين، وإن لم يكن ظاهرا فبالمكر والخديعة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨].

ويعود ذلك كله لضعف الإيمان وحب الدنيا، فإذا ما أدمن الإنسان على المعاصي اتبع الفتن، فيصل لدرجة لا يميز بين الحق والباطل والخير والشر، ولذلك فالعواصم من الفتنة في الدين الإيمان، فقد يتبين للمؤمن ما لا يتبين لغيره، فالمؤمن كيس فطن، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

٢. الفتنة عن العبادات.

العبادات هي التطبيق العملي للعقائد، والعبادات بمفهومها الكبير تشمل كل نظام الحياة، كما أنه يشمل كل عمل خير، ونظام العبادات في الإسلام هو النظام الوحيد المؤهل لإسعاد البشرية وتجنيبها الفتن والاضطرابات والحروب، لأنه من لدن حكيم خبير، يعلم ما يصلح الناس وما يناسب ما خلقهم عليه[(١)].

(١) انظر: فقه الفتن، الأدريسي ص٣١٧.

فالعقيدة تعمل على إصلاح باطن الإنسان وتصحيح اعتقاده وتصوره للكون والحياة والخالق، فيأتي دور العبادات الشرعية العملية قولية وفعلية لتكمل ذلك، فتجعله على صلة بالله من خلالها، فيقدم على الطاعات بأنواعها من تزكية النفس وتهذيبها، وتنعكس على أخلاقه، كما أن العبادات تربي الفرد والجماعة على محبة وموالاة بعضهم لبعض، وتدعوهم على تماسك صفوفهم لدرء الفتنة فتعصم الأمة من كثير من الشرور.

وعليه فإن ترك العبادات كفيل بأن يوقع الإنسان في فتن خاصة وعامة نذكر منها:

- الإقبال على المعاصي والشهوات.

فمن مصائب الدين أن يترك المسلم العبادات التي شرعها الله، ويقبل على الملذات والمعاصي والشهوات، فترك الصلاة مثلا من أكبر المصائب، وترك صلاة الجماعة خصوصًا كذالك من أعظم الفتن، ولو أديت هذه الفريضة كما وجبت لتجنب الفرد والمجتمع كثيرًا من المزالق، فهي بنص القرآن تنهى عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

فهي تنجي من فتنة السراء بشكر المنعم

والضراء بالصبر عليها واحتسابها، كما أنها الملاذ للعبد مما يهمه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[١].

ولأهميتها لم يرخص الشرع لأحد بتركها وللقادر كذلك أن يترك صلاة الجماعة، فقد روى أن رجلًا أعمى قال: (يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له، فلما ولى دعاه فقال: (هل تسمع النداء؟ قال: نعم، قال: فأجب) وفي رواية قال: (لا أجد لك رخصة)[٢].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح يعدون ترك صلاة الجماعة مصيبة تستحق التعزية، وقال حاتم الأصم: مصيبة الدين أعظم من مصيبة الدنيا، ولقد ماتت لي بنت فعزاني أكثر من عشرة آلاف وفاتتني صلاة الجماعة فلم يعزني أحد.

ومن مصائب الدين الإقبال على المعاصي وإلفها، والتفاخر والمجاهرة بها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[٣].

قال أبو الدرداء: (من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها)[٤].

ومثل ذلك بقية العبادات ففي الزكاة والصيام والحج فوائد وحكم لا تحصى على مستوى الفرد والجماعات والأمة، فنرى كل عبادة لها طابع اجتماعي، فعلاوة على الفوائد الروحية والصحية فهي كلها تزيد من رابطة الإخاء بين المسلمين في كل بقاع الأرض، وهي من مقومات وحدة الأمة لما فيها من توحد المشاعر والشعائر التي تشعر الجميع بالمساواة والعدل وتلغي فوارق ومقاييس المجتمعات الأخرى، وتجعل المسلم فخورا بدينه، وهذه نعمة لا يدركها

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم ٤٣٣٣.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ١٢٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٥٢، ١/ ١٥١.
قال النووي في المجموع ٤/ ١٩١: إسناده صحيح أو حسن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٥٧٢١، ٥/ ٢٢٥٤، ومسلم في صحيحه، كتب الزهد والرقائق، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٢٩٩٠، ٤/ ٥٥٩١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٤١٥.

إلا من ابتعد عنها بترك تلك العبادات.

وبما أن العبادات بمفهومها الواسع تشمل كل عمل صالح، وليس فقط بالمفهوم الضيق بما هو مشهور للعبادات المحضة، فترك العمل الصالح ينعكس على الفرد والمجتمع ويعرضهم للفتن بجميع أنواعها فيقبلون على المعاصي ومن ثم نجد للذنوب والمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله فمن ذلك:

١. حرمان العلم.

فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ومثلها حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة فكفاه أنه صد عن طاعة الله فالعاصي يقطع عليه طاعات كثيرة كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

٢. هوان العبد على ربه.

لأن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها كما قال بعض السلف في قول الله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

الران: هو الذنب بعد الذنب.

ثانيًا: الفتنة عن الجهاد ووحدة الصف:

١. الفتنة عن الجهاد.

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وحامي حماه، بل لا قيام لهذا الدين في الأرض إلا به، وبه نال المسلمون العز والتمكين في الأرض، وبسبب تعطيله حصل للمسلين الذل والهوان والصغار، واستولى عليهم أعداءهم، بل تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وأصبحوا مع كثرتهم غثاءً كغثاء السيل، نزع الله المهابة من قلوب أعدائهم ووضعها في قلوبهم.

ولقد حرص الأعداء على تشويه صورة الجهاد والمجاهدين وتخذيل المسلمين عنه، ووضع العراقيل دونه، وقد دل القرآن الكريم على توقي الفتنة بالجهاد فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة:٣٩].

وهو من فروض الكفاية لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩].

فإعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد فتنة عظيمة قد سقط فيها فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده وتركه ما أمر الله به من الجهاد[(١)].

وقد وردت في الكتاب والسنة فضائل كثيرة للجهاد منها:

١. الثواب العظيم للمجاهد من حين يخرج من بيته، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

[التوبة:١٢٠-١٢١].

٢. أنه أفضل من نوافل العبادات، قال تعالى ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

[التوبة:١٩-٢٢].

٣. أنه سبب لدخول الجنة، قال تعالى ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ١٦٥ - ١٦٧.

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة:١١١].

٤. أنه سبب للفلاح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة:٣٥].

٥. أنه سبب لتحقيق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال:٧٤].

٦. أنه سبب لحفظ الحق وتمكينه ودفع الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ومما سبق نستخلص عظم الفتنة في ترك الجهاد مع القدرة عليه لأن:

- ترك الجهاد سبب للهلاك في الدنيا والآخرة، أما هلاك الدنيا فبالذلة والاستعباد وتسلط الكفار عليهم، وأما هلاك الآخرة فمعلوم.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

- ترك الجهاد سبب لعذاب الله وبطشه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٩].

- ترك الجهاد والفرح بالقعود من صفات المنافقين.

قال الله تعالى مبينًا أنه لا يترك الجهاد إلا المنافقين والذين في قلوبهم مرض: قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ

﴿...يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٤-٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبةٍ من نفاقٍ)[١].

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن تبوك: (فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء)[٢].

❁ ترك الجهاد سبب لإفساد أهل الأرض بالقضاء على دينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١].

وقال سبحانه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠].

❁ ترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة وفضائل جمة منها الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية ودفع شر الكفار وإذلالهم، ورفع شأن المسلمين وإعزازهم.

❁ ترك الجهاد قد يعرض لعقوبة عاجلة تنزل بالقاعدين عن الجهاد.

كما قص الله تعالى من خبر بني إسرائيل لما طلب إليهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة فقالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة:٢٤-٢٦].

وقد وعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدرس جيدًا، ففي يوم بدر لما استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال؛ قال له المقداد: (يا رسول الله: إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو. رقم ١٩١٠، ١٥١٧/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب، رقم ٤١٥٦، ١٦٠٣/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٦٩، ٢١٢٠/٤.

لموسى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن امض ونحن معك)[1].

- ترك الجهاد سبب للذل والهوان.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

٢. الفتنة عن وحدة الصف.

إن من أهم وأخطر الفتن هو تفرق الأمة وتشتت جمعها وكلمتها، فوحدة الصف ضرورة أجمع عليها العقلاء من الناس، والائتلاف مطلب ضروري لا غنى عنه لأمة تريد الفلاح.

حثت النصوص على لزوم الجماعة والحذر من الفرقة والاختلاف بشكل عام وفي وقت الفتن بشكل خاص. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقد جاءت تفاسير عديدة لمعنى الحبل لا تعارض بينها، منها لزوم الجماعة.

قال البغوي: «الحبل: السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وسمي الإيمان حبلًا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف»[3].

كما جاء ت أحاديث نبوية تؤكد لزوم الجماعة منها قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار)[4].

وقوله تعالى في الآية «ولا تفرقوا» «أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة»[5]

كما جاءت آيات تحث على لزوم الجماعة محذرة من الفرقة والاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فاذهب أنت وربك فقاتلا)، ٦/ ٥١، رقم ٤٦٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٣٦، رقم ٤٢٣.

(٣) معالم التنزيل ١/ ٣٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٧، ٤/ ٤٦٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٨، رقم ١٨٤٨.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ص٣٩٤-٣٩٥

كما برأ الله ورسوله من مثل هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

ولأجل الحفاظ على الجماعة دون التفرق، نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدم الخروج على أولي الأمر وأداء النصح لهم إن اقتضى الأمر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث لا يغل عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل و مناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين)[1].

وقال كذلك: (إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا وأن تناصحوا من ولى الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثًا، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)[2].

كما حذرت أحاديث من مفارقة الجماعة فقال صلى الله عليه وسلم: (من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)[3].

وفي آخر: (ومن فارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية)[4].

وفي حديث آخر قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[5].

وحرصًا على الجماعة فإنه ينبغي الموالاة والنصرة و الإيواء لكل المسلمين ويعكسه البراء من الأعداء والعصاة المشركين قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

ومن لوازمها كذلك إصلاح ذات البين وتحكيم كتاب الله فيما شجر من التنازع وإحياء مفهوم الأمة.

ومن الفتن التي تترتب على الخروج عن وحدة الصف وتفرق الكلمة:

١. ضعف الأمة وفشلها في تحقيق مصالحها العليا.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ١٨٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثر المسائل بدون حاجة، ٣/ ١٣٤٠، رقم ١٧١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب سترون بعدي أمورا، ٢/ ٨٧، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم ١٨٤٨، ٢/ ١٤٧٦.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٣٠٨، رقم ٦١٦٦.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٧٥١، رقم ٩٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ٧/ ٧٧-٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٣/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:١-٣].

ولهذا أصبحت الجماعة والاجتماع علي الخير والطاعة من ضروريات الدين ومحكماته، والعبادات العامة كالصلاة، والصوم والحج، والأعياد وغيرها دليل عملي علي ذلك.

إن الفرقة والاختلاف داءان ووبيلان يقعدان بالأفراد والأمم عن الإصلاح والبناء، ويمكنان للهدم والفساد، ويسببان ظلمة القلوب، وفساد الألسن، والطعن في الناس، وقد يؤديان إلى الاحتراب والتقاتل.

٢. التنافر وفقدان الإلفة بين المجتمع الواحد.

وقد امتن الله على المسلمين الأوائل بتأليف قلوبهم حين وحدهم بالإسلام فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال:٦٣].

ولأن تأليف القلوب ميزة خصها الله تعالي بالمؤمنين، فقد وصف الله تعالي اليهود بأن قلوبهم متفرقة فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر:١٤].

ولذلك أكد الإسلام على ضرورة الأخوة في العقيدة والتي تثمر المحبة والموالاة، وإلا لانتفت صفة الإيمان منهم كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[١].

ويعود ذلك لاضطراب مفهوم الولاء والبراء عند كثير من المسلمين.

٣. تشجيع أعداء الأمة في الداخل والخارج للتدخل بشؤون المسلمين.

فالمستفيد الأول من حالة التنازع ما بين المسلمين بشكل عام هم أعداء هذا الدين، سواء من الداخل أم من الخارج، فتشتيت الجهود غاية كل أفاق، وأمل كل أفاك، فالجهود المتفرقة غير موجعة، والكن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب، رقم ١٣، ١/ ١٤.

الجهود المتوحدة قوية لا شك أنها ضربة قاصمة رادعة، توقف المنافقين ومبتغي الفتن عند حدودهم، وتردعهم عن مزيد من حملات تشويه الصورة وإسقاط الرموز.

كما أن في الفرقة تشويه صورة المسلمين أمام العالم، وإظهارهم بمظهر الأمة المشتتة والمتعصبة لشتى الولاءت وبذلك لا يستحقون التقدير والاحترام، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ويضاف إليها تضخيم مواطن الخلاف، فيظهر التنابز بالألقاب والسعي بالغيبة والنميمة بين أبناء الدين الواحد والقبلة الواحدة، فتتشتت جهودهم في كيل التهم لبعضهم، والتنظير لإثبات مخالفة فريق ما لقواعد الإسلام وأصوله، حتى يضيع وقت الأمة في قيل وقال، بدلًا من أن تصرف الأوقات للدعوة إلى التوحيد والأخلاق الفاضلة والسعي في الأرض والإنتاج والتقدم والنهضة.

٤. الفرقة مدعاة لسخط الله والحرمان من رحمته.

فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن أسباب هذه الفرقة الموجبة لذلك عدوم اتباع السنة، فالابتداع في الدين، والميل إلى الهوى، والغرور بالدنيا هو سبب التفرق والاختلاف.

٥. التخلف الحضاري وسقوط الدول تحت الاستعمار.

وهو نتيجة للولاء لأعداء الأمة والاتكال عليهم في أمورنا وخلافاتنا، وحل مشاكلنا، ولذلك يذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يمكن به أن نتجنب ذلك ويعصمنا من هذه القواصم، وجاءت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم ترسخ هذه الأخوة، وتدعو إلى ما يعززها ويقويها، وتنهى عما يضعفها ويصدعها، قال صلى الله عليه وسلم: **(إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس)**[1].

وفي جانب النصرة وعدم الخذلان قال صلى الله عليه وسلم **(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)**[2].

ومن أساليب القرآن في الحث على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٥١٧، رقم ٢٢٨٧٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٠، رقم ٦٦٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم، رقم ٢٣١٠، ٢/ ٨٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٠، ٤/ ١٩٩٦.

الجماعة أن الله جعل من أخص صفات المؤمنين أنهم أولياء بعض؛ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة: ٧١].

والولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)**[(١)].

ومن أساليب الشريعة في الحث على الوحدة بين المسلمين: تحذيرها من الشذوذ ومفارقة الجماعة، ففي سنن الترمذي عن ابن عمر قال: **(خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس: إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، ثم ذكر خطبة جاء فيها: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته، فذلكم المؤمن)**[(٢)].

إن إعادة قراءة التاريخ الإسلامي، والوقوف على مواطن القوة فيه، والتي كان من أهم أسبابها وحدة المسلمين قلبًا وقالبًا، وانضواؤهم تحت راية واحدة هي راية الإسلام، وعدم تخوين بعضهم بعضًا، هي الاستفادة الحقيقية من التاريخ، فليس التاريخ مجرد قصص وحكايات تقضى بها الساعات وتقتل بها الأوقات، وليست عيشًا في الماضي، وإنما هي دروس وعبر تدفع الأمة دفعًا نحو المستقبل، بفكر واعٍ وقلب نابض بالحياة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٦٧، ١/ ١٨٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، والنسائي في السنن الكبرى، رقم ٩١٧٥، ٥/ ٢٨٤. وصححه الألباني في الإرواء، ٦/ ٢١٥.

الحكمة من الفتنة وسبل النجاة منها

أولًا: التمحيص والتمييز ورفع المنزلة:

في الفتن يظهر الناس على حقيقتهم، ففي التجربة تتبين حقيقة الفرد فليس كل من يدعي الصبر هو صابر، أو يدعي الزهد هو زاهد، والطريق لكشف هذه الحقائق حقائق الناس هو الفتن ويظهر التميز في أمور مهمة منها:

١. تمييز الصادقين من الكاذبين.

وذلك لأن الصدق أساس الإيمان، ويترتب الثواب عليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة:١١٩].

والحكمة في تمييز الصادق من الكاذب يدل عليه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

قال الزمخشري: «والفتنة الامتحان بشدائد التكليف، من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، هجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم، والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألستهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم، ليميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد على حرف»[(١)].

ومن الفتن التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين فتنة الحرب والقتال، فيتوعد الله الجبناء المنهزمين بقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال:١٦].

والتمييز في الفتن التي تصيب الأمة في عقائدها، ويوم تقلب الحقائق، هنا يظهر الصادقون الذي يراقبون الله في كل حال ويقولون كلمة الحق ولو اجتمعت الدنيا ضدهم، وعلى النقيض يظهر الكذابون الدجالون الذين شغلتهم الدنيا عن الدين، وتزداد الفتنة بهم، وتشتد بهم محنة الصادقين:

وفي فتنة الابتلاء بالغنى والسعة في الرزق، كما أخبرنا بذلك تعالى فقال: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٣٩.

﴿فَلَمَّا ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

فالآيات تتحدث عن طائفة من الناس الذين تظهر الفتنة بالغنى نفاقهم، فقد ادعوا إن أغناهم الله أن يتصدقوا، فلما رزقوا نكصوا وكذبوا فحرمهم الله ما هو أعز من المال، وذلك بأن ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧].

٢. تمييز الصابرين من القانطين.

فالفتنة إذا حلت ميزت الناس على هذين المستويين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠].

قال البغوي في تفسير الآية: «﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع، وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال: أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل فيقيم على كفره، ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض»[1].

إن فتنة المؤمنين بالكافرين وأذاهم تميز الصابر الذي لا يفت في عضده سخرية جاهل أو بطش كافر أو كيد منافق يتميز هؤلاء من صنف آخر إيمانه ضعيف وعقيدته مهزوزة يفقد زمام الصبر عند تسلط الكفار، ويقنط وييأس، وقد يصل إلى الردة وقد ذم الله تلك الطائفة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

وقال ابن عباس في الآية: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف»[2].

وهي كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج:١١].

إذن لا بد من الفتنة ليتحقق الإيمان، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت:١-٢].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصبر ويحذرهم القنوط، وفي حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٩٧.
(٢) مختصر ابن كثير، الصابوني ٣/ ٣٠.

من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: (لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دين، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه)[(١)].

وما هذا التحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأن القنوط واليأس يؤدي للاستسلام للعدو، والحذر من ذلك هو ما تحتاجه الأمة وخصوصًا في هذا العصر الذي اجتمعت فيه كل القوى ضد المسلمين وتكالبوا عليها واستسلم الكثير بعدما غفلوا عن ضرورة الصبر في مواجهة الكفار.

٣. تميز الشاكرين من الجاحدين.

والشكر اعتراف بنعمة الله وكرمه وإحسانه، فالشاكر لسانه رطب بحمد الله، وشكر الله من قبل الإنسان في حال الفتنة بالسراء والنعمة هو كذلك فضل من الله يحتاج إلى شكر آخر ومن الشكر استعمال نعمة الله فيما يحب، والكفر والجحود نقيض ذلك باستعمال نعمة الله فيما يكرهه سبحانه، وذلك باتباع الشرع واستعمال كل شيء في موضعه الذي وضعه الله تعالى له، وبعكسه يكون قد جحد النعمة

ومن الفتنة في هذا المجال أن الإنسان لا يحدث بالنعمة بينما يعدد المصائب، وهو الجحود بعينه وقال عنهم تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات:٦].

ومن شكر المنعم ذكر آلائه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى:١١].

كما أن الاستهزاء بدل الشكر جحود وأعظم كفرا، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾[البقرة:٥٨-٥٩].

وهناك من يلجأ إلى الله ساعة الخطر، فإذا زال تنكر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾[لقمان:٣٢].

فيتبين حال الجاحد والكافر عند انكشاف الفتنة وزوال البلاء، فهو يجحد ويطعن وينسب الفضل في كشف ذلك لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:١٠].

أما الحكمة الأخرى في رفع المنزلة فتتمثل في عدة جوانب:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ٦/ ٦١٩، رقم ٣٦١٢.

٤ . الرضا الموجب لرضوان الله تعالى.

فالمصائب تنزل بكل الناس فالساخط يخسر الدنيا والآخرة، أما من رضيها فله الرضا من الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿فِي جَنَّتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ [التوبة:٧٢].

٥ . تكفير السيئات.

وذلك يعني التمحيص للذنوب والخطايا، فقد دلت نصوص كثيرة على أن ما يتعرض له الإنسان في حياته من فتن ومحن وابتلاءات تكون بمثابة كفارات للذنوب، إذا هو صبر عليها واحتسب، ومن ثم ييسر له الله الخيرومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران:١٤١].

قال الشوكاني: «والتمحيص: التطهير، أي ليخلص المؤمنين من ذنوبهم فتبقى صحائفهم نقية، ليس فيها إلا الحسنات»[(١)].

وهناك أحاديث كثيرة كلها تفيد تكفير السيئات للعبد المبتلى بالفتن والمحن صغيرها وكبيرها، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ولا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمه، والشوكة يشاكها إلا كفر به عن سيئاته)[(٢)].

٦ . الثواب في الدنيا والآخرة.

من كرم الله سبحانه وتعالى أن يكافئ من يبتليه في الحياة الدنيا ويعوضه ما فقده، كما حصل للنبي أيوب عليه السلام فقد أعاد له أهله ومثلهم، وكما عوض الله أم سليم زوج الصحابي أبي طلحة حين صبرت على فقدها ولدها.

والأجر في الدنيا ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وفضلًا عن مكافأة الدنيا فللابتلاء ثواب في الآخرة، ويكون الأجر حسب درجة الابتلاء، وليس المقصود هو الأجر على المصيبة بل على الصبر والرضا، لأن الأجر يترتب على الفعل المكتسب «وإن رضي بها ـ أي المصيبة كان له أجر الراضين، ولا يؤجر على نفس المصيبة لأنها ليست مني عمله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور:١٦]»[(٣)].

كما يكون الابتلاء بالفتن والمحن وسيلة لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

٧ . اتخاذ الشهداء.

---

(١) زبدة التفسير من فتح القدير، الأشقر، ص٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١.

(٣) فوائد البلوى، العز بن عبد السلام، ص١٥.

أن الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالفتن فقيض الله لهم الأسباب التي توصلهم إليها، ومن تلك المنازل «الشهادة» وقد رتب الله ذلك بعدما أوضح أن ذلك من حكم الابتلاء: ﴿إِن وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

أي: وليكرم فئة منكم بالشهادة ليمنحها عنده كرامة الشهداء ما دامت أعمارهم قد انتهت، وآجالهم قد حلت فلئن يموتوا شهداء خير لهم»[١].

وفي هذه الآية بيان الحكمة من ابتلاء المؤمنين بظهور الكفار يوم أحد فمنها تمييز أهل الإيمان والصبر، ومنها إدراك بعض المؤمنين الشهادةكما وضحت آية أخريالحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٤].

فقوله «ليبلو بعضكم ببعض» أي «فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكفار الى العذاب»[٢]، ثم بين بعد ذلك الثواب وهو الجنة التي عرفها لهم.

ثانيًا: تمييز الخبيث من الطيب واختيار القيادات الراشدة:

١ . تمييز الخبيث من الطيب.

في الفتن وخصوصًا الفتن الجماعية تظهر معادن الناس وصفاتهم من الصبر والشجاعة والزهد والتواضع والثبات والكرم، مما يناقضها كالشح والجبن والجشع والكبرياء وغيره.

وتنكشف حقيقة النفوس المدعية، فمدعي الإيمان والثبات قد يولي هاربًا ويتراجع عن كل شيء فتقام عليه الحجة.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد:٣١].

وفي الفتنة يثبت من عصمهم الله بالإيمان، فيتحملون الأمانة الكبرى، وبذلك يتم نفي الخبث عن الدعوة[٣]، بأن يسقط المنافقون والمداهنون ويتنحون عن المؤمنين، وهؤلاء لا يجدون عند الناس إلا الاستخفاف، بينما يكبر في أعين الناس وقلوبهم أولئك المجاهدون المضحون في سبيل الدعوة، بل حتى في نظر خصومهم

ومن حكمة الله تعالى عدم دخول المتكبرين المتطلعين إلى الزعامة في الإسلام ابتداءً، ولو دخلوا خلال الصف

(١) بصائر المسلم المعاصر، الميداني ص ٣٨٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٧٥.
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، منير محمد غضبان، ص١٩١.

المؤمن لخذلوهم، وفرقوا بينهم.

وهكذا فالجماعات تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتجمع قواها فيشتد عودها ويصلب، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة وأشدها اتصالًا بالله وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية[1].

وإن المحن تساعد على تنقية الصف المؤمن من أعدائه الباطنيين المتغلغلين بين صفوفه[2]، فقد يدخل الصف المؤمن وقت الرخاء من يتظاهر بالإسلام فيكون الابتلاء وسيلة لمعرفتهم ثم تنقية الجماعة المؤمنة منهم، وهذا ما حدث أثناء حروب الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حيث حاول المنافقون تثبيط المسلمين عن الخروج للقتال، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال ابن كثير: «أي: لابد أن يعقد شيئًا من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم»[3].

وقيل: «أي ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم»[4].

ونجد كثيرًا من الآيات تربط بين الفتنة الجماعية والنفاق،وذلك لأنهم حريصون على بث الفتن والمحن والشر بين المؤمنين كما أن هناك تلازمًا بين كلمتي الفتنة والنفاق[5].

وقد كشف القرآن عن صفات المنافقين كي لا ينخدع بهم المؤمنون، وذلك في سورة التوبة التي تظهر كيدهم حيث يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٧-٤٩].

كما يقول تعالى في نفس السورة: ﴿وَأَمَّا

(١) انظر: الظلال،سيد قطب، ٥/ ٢٧٢١.
(٢) الابتلاء والمحن في الدعوات، أبو فارس محمد عبد القادر، ص١٣٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ٣٤٠.
(٤) زبدة التفسير، الأشقر، ص ٩٢.
(٥) انظر: الفتنة وموقف المسلم منها، عبد الحميد السحيباني، ص٣٧٥.

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٥-١٢٦].

يوضح تعالى حال المنافقين حين التعرض للفتنة والابتلاء واستعدادهم للكفر مع أنهم مع المسلمين يرون دلائل صدق النبوة ! وتمر الأعوام وهم يرون صدقه وخذلان أعدائه فلا يتعظون، مما يدل على فساد فطرتهم فلا يعظهم الابتلاء ولا يردهم الامتحان.

يقول الشوكاني: «وأما الذين في قلوبهم مرض: وهم المنافقون فزادتهم السورة المنزلة رجسًا إلى رجسهم أي: خبثًا إلى خبثهم، الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد فتشددوا فيه ورسخوه في أنفسهم واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارًا منافقين. و«يفتنون» يختبرون ويبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة وبالأمراض والأوجاع أو بأمرهم بالغزو والجهاد مع النبي «ثم لا يتوبون» بسبب ذلك «ولا هم يذكرون» وهذا تعجيب من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق»[(١)].

ومن الأمور التي كشفها الله من أعمال المنافقين مسجد ضرار الذي بناه المنافقون قرب مسجد قباء، والذي أرادوا به فرقة المسلمين.

وبعد أن ذكرت الآيات العشر الأوائل من سورة العنكبوت أنواعًا للفتن التي يواجهها المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت:١١].

أي: ليكشف المؤمنين الذين صدقوا بالجهاد والصبر من ضعفاء الإيمان والمنافقين، فالبلايا كواشف، فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

٢. اختيار القيادات الراشدة.

وتمر بمراحل أهمها:

١. الإيقاظ من الغفلة.

إن الفتن التي تصيب العبد قد تصاحبها هزة وجدانية تجعله يتيقظ ويستدرك أخطاءه وخصوصا لمن شغلته الدنيا عن الآخرة، فيفيق بالفتن وبذلك يقول ابن ناصر الدمشقي: «ومن فوائد الابتلاء مقت الدنيا لأنكادها وبعث النفس على العمل ليوم معادها، فإنه إذا تفكر في ذهاب أحبابه علم أنهم شربوا بكأس لا بد له من شرابه»، ويقول: «تيقظ المبتلي من غفلته، وطيب نفسه ببره وإخراج صدقته»[(٢)].

ويجعلها ابن قيم الجوزية أول منازل العبودية فاليقظة: «وهي انزعاج القلب لروعة

(١) زبدة التفسير، الأشقر، ص٢٦٤.

(٢) برد الأكباد، ابن ناصر الدمشقي، ص٦٨.

الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة أو ما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة وأول أنوارها: لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدها والوقوف على حدها والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها»[١].

وتتبع اليقظة خطوات أولها إعمال الفكر إلى الوجهة المطلوبة، فإذا استحكمت يقظته أوجب له الفكرة، وإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة من إدراك الوعد والوعيد، والبصيرة تنبت في القلب الفراسة الصادقة التي تفرق بين الحق والباطل، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل) ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٥][٢].

ثم بعد ذلك يأخذ في القصد والعزم[٣].

(١) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح، ص١٠١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ٥/ ٢٩٨، رقم ٣١٢٧.

(٣) انظر: تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح ص١٠١-١١١.

ويكون من ثمرات اليقظة من الغفلة أن يحصل أمران:

الأول: الحذر من الشيطان وكيده، وأغراء الشيطان يكون للفرد وللجماعة الغافلة فكثير من الفتن التي حولنا لا نجد لها تفسيرا إلا تحريض الشيطان، ولعل الواقع المرير ومصائبه أيقظت الكثير من الغافلين ولا يعصمهم منه إلا اللجوء إلى الله والاعتصام بشرعه.

والثاني: حصول التوبة: ومن ثمرات اليقظة من الغفلة أن يتعرف الإنسان على ذنبه فيتوب منه، والفتن والمحن طريق لذلك:

يقول ابن قيم الجوزية: «فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما»[٤].

٢. تقوية الصف المسلم.

وذلك عند الخروج من الفتن بتعميق المحبة بينهم بعد تنقية صفهم من الأعداء فيخرج قويًا متماسكًا يصعب اختراقه وهدمه. فالابتلاء يؤلف بين القلوب ويتأسى بعضهم ببعض فتزداد المودة، لأن جو الفتن قد يسوده التراحم والتعاطف حين يرى بعضهم عنت البعض الآخر. والشدائد تزيد الجماعات تماسكا واقترابًا، وقد شبه بعض الدعاة الجماعات حين تعرضها للابتلاء

(٤) المصدر السابق ص١١٥.

بقطعة الاسفنج التي كلما زاد الضغط عليها قل حجمها وتقاربت أجزاؤها وطردت الهواء من فجواتها، فالصف المسلم يقل عدده لكنه يشتد صلابة لأنه فرغ من أصحاب الأفئدة الهواء»[1].

ويترتب على ذلك فوائد منها:

- **إغاظة الأعداء**: ولا شك في أن خروج المسلمين من محنهم ثابتين أقوياء في عقيدتهم وأصلب تماسكًا رغم ما أصابهم، فيه إغاظة للمشركين وكل أعداء الصف المؤمن.
- **ظهور القدوة الحسنة والقيادة الراشدة**: فحين تظهر الفتنة أناسا صابرين، وينالون من المكافأة والرفعة عند الله فسيكونون قدوة لغيرهم، ومثل ذلك في بقية الشيم التي تظهر في الفتنة فلا زال شهداء الأمم من الرعيل الأول قدوة للمسلمين يذكرون صبرهم عند الشدائد وفي مقارعة الأعداء سواء في معارك الأعداء أو المعارك الفكرية، فمن ذلك من صمد في محنة العقيدة كالإمام مالك وابن تيمية والغزالي، وغيرهم كثير هم قدوة ومنارة يهتدى بها على الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

وبعد ظهور القيادات الراشدة واختيارها يحصل التمكين للأمة، الفتن وسيلة تربوية للإعداد وترسيخ الإيمان، والتحلي بالصبر وكظم الغيظ، وذلك لأخذ الأهبة والاستعداد لأداء الأمانة رحمة من الله بالجماعة وتعهده لها بالرعاية، واعداد الخلف من بعدهم، وعلى هذا نرى الرعيل الأول الذي تخرج من مدرسة الأنبياء يقومون بأعباء الدعوة بعد أن ورثوا تركتها الثقيلة حيث أدخلهم الله مدرسة الابتلاء مع أنبيائهم مسخراً أعداءه ليربي بهم أولياءه ليعدهم لحمل الأمانة

وعلى هذا فالابتلاء يسبق التمكين حيث تمتحن الجماعة المؤمنة حتى يكون من يستخلفهم الله أقوياء أمناء لا يخونون ولا يفرطون، فيوسف عليه السلام يخرج من السجن ليتبوأ أعلى عرش مصر وخزائنها، ومع ذلك يظل مراقبًا لربه يجوع يومًا ويشبع يومًا، وهنا يتجلى الفارق بين من يخرج من السجن ليتولى الحكم، ومن يخرج من الحكم إلى السجن وهم كثير.

ويندرج تحت هذه حكمة الله في ابتلاء هذه الأمة حيث لم يبتل أمة كما ابتليت أمة الإسلام بأعدائها لوعده تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالشهادة على الناس

(١) انظر: الجوانب المشرقة للابتلاء، إبراهيم حجازي، مجلة المجتمع، العدد، ١٢١٩، ١/١٠/١٩٩٦، الكويت ص٥٨.

تكون من التمكين، والاجتباء للأمة لتبليغ رسالة الإسلام كما إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتباه الله لتبليغ الناس ولا يصلح لمثل ذلك إلا بعد التمحيص بأنواعه، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج:٧٨].

«والظاهر أن الأمر بالجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة لا جهاد القتال»[(١)].

سبل النجاة من الفتن

أولًا: الدعاء والصبر:

١ . الدعاء مع الفتنة.

إن اللجوء إلى الله بالذكر والدعاء في أيام الفتن من أقوم السبل للنجاة منها كبيرها وصغيرها، ففتنة زينة الدنيا وشهواتها تصد العبد عن ربه وتوصله للغفلة، فلا بد من لجوئه إلى يالله أن يصرف عنه فتنتها، ومن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (وأعوذ بك من فتنة المحيا)[(٢)].

ولما كان الأولاد والأزواج من أعظم فتن الدنيا كما مر، نجد القرآن الكريم إن من صفات عباد الرحمن الدعاء بأن يجعلهم قرة عين كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان:٧٤].

والدعاء من عدو الإنسان الأول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وفي فتنة لقاء العدو وقتال الكفار ذكر القرآن الكريم دعاء أصحاب طالوت ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ

(١) بصائر المسلم المعاصر، عبد الرحمن حبنكة، ص ٣٩١.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المحيا والممات، رقم ٦٣٦٧، ١١/ ١٧٦.

﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠].

ومن أمثلة الدعاء من فتنة الذين دعاء أصحاب الكهف حين لجوءهم إليه ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف:١٠].

وذكر الله والتماس العون منه مع الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في حصول نفعها، فقد قال تعالى حاكيًا عن ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٨٠].

ويلاحظ فيها أدبه مع الله بنسبة المرض لمن وقع عليه ونسبة الشفاء لله، والرقى من القرآن والأدعية المأثورة من أنفع الأسباب في التطبب، وقد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ابتلاء أيوب عليه السلام بمرضه أعظم أسوة، وقد حكى عنه القرآن قوله: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣].

ويلاحظ التلطف في دعائه حيث اكتفى بتقرير حاله واظهارعجزه وحاجته بأوجز وأوضح معنى، فكانت الإستجابة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤].

وللدعاء أثر كبير في مواطن الاضطرار في صرف البلاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

والتماس العون من الله دليل التوكل عليه قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

فإذا علم الله من العبد صدق التوجه هيأ له الأسباب للخير ما لم تكن في حسبانه.

ومن الأمور التي تعين على الصبر ذكر الله تعالى، بالدعاء في مواطن الشدة، ولنا في أصحاب فرعون السحرة مثلًا حين عرفوا الحق فآمنوالم يرهبوا وعيد فرعون، بل لجأوا إلى الله ليثبتهم ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٦].

٢. الصبر عند الفتنة.

إذا كان الصبر واجبًا تجاه الابتلاءات الفردية، فهو آكد في مجال الفتن والمحن العامة لأن نفعه وعاقبته يعود على الأمة جمعاء، حيث يكون من أعظم الأسلحة النافعة للثبات وعدم التخبط، ومن ثم النهوض، وإخراج الأمة من جديد وإلا فعند عدمه يقع ما هو أكبر منه.

للصبر أهمية في تربية النفوس ليكون بها من قوة الإيمان ما تواجه به فتنة السراء والضراء كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا

﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

بعد أن بين إن ما يصيب الإنسان من الله وقدره، قال الشوكاني: «أي أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم منها فإن كل ذلك يزول عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله ولا يحزن على فواته»[(١)]، «وقيمة هذه الحقيقة في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعًا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء»[(٢)].

وإذا كانت الفتنة تدعو إلى الحرص على الجماعة التي هي خير من العزلة فإن ذلك مجاهدة تحتاج إلى صبر ومصابرة للقيام بمهمة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والصبر مطلوب في كل فتنة وفي كل مجال فالصبر على الطاعة والصبر على المعصية في زمن انتشار المفاسد والمعاصي وخصوصًا في زماننا هذا حيث تفشي المنكرات والمجاهرة بالفسق والفجور حتى أصبح الماسك على دينه كالقابض على الجمر، فكلما زادت هذه الفتنة وواجهها الإنسان بالصبر زاد أجره وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)[(٣)].

ومن الفتن العامة التي تحتاج إلى الصبر مايلاقيه الدعاة إلى الله قديمًا وحديثًا، فطريق الدعوة شاق طويل كثير المتاعب فلذا يحتاج إلى همة عالية وصبر شديد، لأن الداعية يطلب من الآخرين تغييرًا قد لا تطيقه نفوسهم كتجردهم من الأهواء والشهوات والوقوف عند حدود ما أمر الله به.

ولا شك أن الداعية يثقل عليه إعراض الناس، ولكن ربما التحديات تزيده صلابة وهذا شأن أولياء الله، وإعراض الكثير عن دعوة المرسلين سنة لا تتغير.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝﴾[فصلت:٤-٥].

ويدعو القرآن للصبر تجاه المعرضين، لأن محنة الداعية قد تتعدى وتتجاوز القول إلى الفعل وهو أمر قديم وحديث ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

(١) زبدة التفسير، الأشقر، ص٧٢٢

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٤٩٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، ٤/ ٥٢٦.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٧.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

والآية وصفت الأذى المسموع بالكثرة، وهو الحرب الكلامية على أهل الإيمان من التشويه والتشويش والإفتراء والتحريف فلا بد من إحتمالها بالصبر والتقوى التي لا بد منها، فالصبر للثبات في وجه الباطل والتقوى للتعفف من مقابلة الخصم بأسلحته الخبيثة، كما قرن تعالى بين أهل الكتاب والمشركين لإتفاقهم على عداوة الإسلام[1].

ومن مجالات الصبر في فتنة الأمة استبطاء النصر وهي فتنة عظيمة، فالله تعالى وعد المتقين بالنصر بعد الصبر وكتب لهم التمكين في الأرض ليكون الدين كله لله، وهذه المنزلة لا يبلغها المؤمنون سريعًا إلا بعد الشدائد حين تزيغ الإبصار وتبلغ القلوب الحناجر ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

فقولهم: متى نصر الله؟ استبطاءً له واستعجالًا وكلما اشتد الكرب كان الفرج قريبًا فجاءهم الجواب بأن النصر قريب حين نجحوا في الابتلاء، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

ومع اشتداد الفتن يحتاج العبد إلى مزيد من الصبر والمجاهدة ضد الشيطان كي لا يقنطه ولا يسخطه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي فيدع الدعاء)[2].

والصبر مطلوب عند البأس وملاقاة العدو، لأن الفرار كبيرة، فالصبر هنا شرط أساسي للنصر.

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

«وإنما نصب الصابرين على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته»[3].

وذلك لأن المفاجآت في الحروب

(١) انظر: الصبر الجميل، سليم الهلالي، ص٤٠-٤١

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد مالم يعجل، ٧/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم ٢٧٣٥، ٣/ ٢٠٩٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ١٥٥.

تحتاج إلى صبر وثبات فقد يختل الصف بسبب الإشاعات المثبطة للهمم وهو ما سمي حديثًا ب(الحرب النفسية) فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا)[(١)].

وفتن الحروب لا تخص المقاتلين وحدهم بل تعم الأمة بالبلاء وربما تجتمع الابتلاءات فيها من الخوف والجوع ونقص الأنفس والثمرات.

والصبر على الأخوة في الله للحفاظ على بنيان المجتمع وتقوية روابط المحبة أمر مهم، فلا تقابل الإساءة بالإساءة فيكون عونًا للشيطان بل تقابل بالصبر والحلم بأن يدرأ بالحسنة السيئة فيعود المخطأ إلى صوابه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

ونحن في زمن الفتنة وتكالب الأعداء ما أحوجنا لذلك بأن يصبر المسلم على زلة أخيه وأن يحتسب ذلك لله

فقد أخبر الله أن الصبر يورث درجة الإمامة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤].

«أي: جعلناهم أئمة لصبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس»[(٢)].

وإذا كان الصبر مثابًا عليه في كل مجالاته فهو عند وقوع الفتن والاختلاف والأهواء أكثر ثوابًا وذلك بإسداء النصح والأمر بالمعروف الذي يحتاج إلى معاناة كبيرة في مثل تلك الظروف يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحًا فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجل يعملون مثل عملكم)[(٣)].

والصبر كله خير وبه يستعان على كيد الأعداء والمتربصين بالأمة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٢٠].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/١٩، رقم ٢٨٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/١١٥١، رقم ٦٨٠٦.

(٢) زبدة التفسير، الأشقر، ص٥٤٧

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المائدة، ٥/٢٥٧، رقم ٣٠٥٨.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٩٤.

ثانيًا: الالتزام بهدايات الوحي وتجنب العجب والغرور:

١ . الالتزام بهدايات الوحي.

بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم انه لا سلامة من الفتن كلها إلا بالتمسك بهدايات الوحي وهما الكتاب والسنة، والأدلة على ذلك من القران الكريم كثيرة، فإذا أردنا النهوض بالأمة من جديد في عصر تلاطمت فيه الفتن فلا بد من دراسة ظروف ميلادها الأول، عند ذلك ندرك أهمية الاهتداء بالكتاب والسنة وتطبيقات السيرة في عملية البعث الإسلامي أو إخراج الأمة ونهوضها من جديد.

والاعتصام بالكتاب والسنة جاء ضمنًا في سياق الأمر بطاعة الله ورسوله بأسلوب الترغيب حيث رتب الرحمة عليها والثواب فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢].

وقال كذلك: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء:٦٩].

وحذر تعالى من عدم الطاعة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة:٩٢].

ومن متممات الطاعة رد الحكم لله والرسول قرانا وسنة في الأمر كله، ولا نجاة للأمة إلا بإتباعهما، فهما المصدران الأساسيان وفيهما المنهج الكامل للحياة فمتى ما عصفت بالأمة الفتن علم أنها زاغت عن الطريق وحادت عن المنبع الأصلي، وبعدت عن هذين المصدرين و ما عليها إلا الرجوع إليهما

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تركت فيكم أمرين لا تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله و سنة نبيه)**(١).

وفي حديث آخر قال: **(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)**(٢).

وقد وعظ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: **(أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر**

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، ٢/ ٨٩٩، والحاكم في المستدرك، ١/ ٩٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦٦، رقم ٢٩٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٦٧، رقم ١٧١٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١/ ١٦، رقم ٤٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٩.

عليكم عبد، و إنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[1].

فالرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد بمثل هذه الأحاديث أن جميع الفتن عائدة إلى اختلال في تطبيق هذين المصدرين، وإن الاكتفاء بواحد منها لا يكفي لأن السنة شارحة وموضحة ومقيدة للكتاب، فضلًا عن أحكام مضافة في السنة فالادعاء بالاكتفاء بالقرآن كما ذهب إلى ذلك فرق مبتدعة قديمًا وحديثًا ـ ضياع للقرآن وللإسلام وانحراف عنهما.

كما يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إلى الاقتداء بالخلفاء الراشدين المهديين من بعده، لأن عصورهم شهدت تطبيقًا حيًا للقران والسنة.

ويلاحظ كذلك من الأدلة أن الالتزام والاعتصام بالكتاب يعني التطبيق الكامل لهما، وليس الاقتصار على النسك والعبادة وبعض المظاهر، والعودة إلى الشريعة تقتضي ذلك وفي جميع نواحي الحياة، ولذلك فإن جميع ما سنذكره من الضوابط اللاحقة عائدة إلى هذا الأصل وهو الاعتصام بالكتاب والسنة. وبما أن القرآن حذرنا من فتنة عامة فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

بعد أن أمر بالاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم إذن فالعودة ـ استجابة للرسول ـ ترفع عنا الفتن و المحن.

ومن ثمرة الالتزام بهذا الضابط مواجهة الفتن والابتلاءات بخلق إسلامي نتعلمه من الكتاب والسنة، فمن ذلك التزام الرفق و التأني والحلم و الحكم بالعدل[2].

وبسبب الابتعاد عن اتباع منهج الكتاب والسنة حدثت الفتن في ماضي المسلمين وحاضرهم و ازدادت كلما ابتعدوا حتى غدت النكبات والمحن نصيب المسلمين، وإذا تدبرنا الأمر نجد مرد ذلك للتقصير في كثير من الفرائض والسنن التي أدت إلى تخاذل المسلمين وطمع الاعداء فيهم، ولا بد من إحياء فريضتيين مهمتين اقصيت من حياة المسلمين و لا بد من الالتزام بها في مواجهة الفتن و المحن و هما: إحياء رسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد و إعداد القوة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ٥/ ١٣، رقم ٤٦٠٧، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٥/ ٤٤، رقم ٢٦٧٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(٢) انظر: الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن محاضرة، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ص ١٥.

٢. تجنب العجب والغرور والكبر.

من العواصم من الفتن وخصوصا الفتن الاجتماعية تجنب العجب والغرور لأنهما داءان مهلكان يظهر أثرهما في أعمال تصدر وتسيء للآخرين، ولذلك فقد ذم الله الكبر والمتكبر بأنه مصروف عن الحق فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

كما نهت عنه أحاديث كثيرة لأنه من الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة فيهما ألقيته في جهنم ولا أبالي)**[١].

والتكبر درجات أعلاها وأهلكها التكبر على الله سبحانه وتعالى بدافع الجهل والطغيان مثل فرعون، ثم التكبر على الرسل وعدم طاعتهم، ثم التكبر على العباد بأن يعظم نفسه ويستحقر غيره، وكان الكبر والعجب سببا ودافعا لكل المناهضين والمكذبين للأنبياء عليهم السلام، وخاصة زعماء قريش.

كما أن العجب مذموم في كل الحالات ومنها الحرب، وكان سببا في تراجع جيش المسلمين في بداية معركة حنين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة:٢٥][٢].

وقد يعجب الإنسان بنفسه وهو مخطئ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ثلاثٌ مهلكات شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)**[٣].

وقد يكون العجب بالنفس، وبالمال، وبالأتباع والأولاد والعشيرة، وبالقوة، وبالنسب، وبالرأي والعلم - وقيل: آفة العلم الخيلاء - وبالعمل والعبادة.

والكبر والعجب يورث بعضهما البعض، ويورثان الغرور، فتظهر آفة الكبر في إعجاب المرء بنفسه وتعاليه، كما أن العجب يورث التكبر ويؤدي إلى الطغيان والتجبر، وكلاهما يسبب الخصام والحسد والبغضاء لأن العجب يظهر في التفاخر، واستجهال الناس، والاستبداد بالرأي والسفه عليهم[٤]، ومن ثم سخط الله سبحانه وتعالى وعقوبته،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم ٢٦٢٠، ٤/ ٢٠٤٣.

(٢) التوبة ٩: ٢٥ ومثلها الحشر ٥٩: ٢، الكهف ١٨: ١٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ٥١٢، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المائدة، رقم ٥٠٥١، ٥/ ٣٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)، رقم ٤٠١٤، ٢/ ١٣٣٠- ١٣٣١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨٤، رقم ٣٠٤٥.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣/ ٥٢٠- ٥٤٦، ٥٧١- ٥٨٥.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣][1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرٍ)[2].

وفي آخر: (قالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين)[3].

[انظر: الابتلاء: المعينات على اجتياز الابتلاء]

موضوعات ذات صلة

الابتلاء، الأذى، الاستهزاء، الإكراه، الثبات

(١) النحل: ٢٣، ومثلها غافر: ٣٥ و٦٠، إبراهيم: ١٥، الفرقان: ٢١

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٢، رقم ٩١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٤٦، ٣/ ٢١٨٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الفرح

أولًا: المعنى اللغوي

الفرح: مصدر قولهم: فرح يفرح، هو خلاف الحزن يقال: فرح بكذا فهو فرح، ويطلق الفرح أيضًا: على البطر، ويقال: رجل فَرِح وفَرْحَان وامرأة فَرِحة وفَرْحَى[(١)].

والمفراح: الذي يفرح كلما سره الدهر. وهو الكثير الفرح، وقد أفرحه وفرحه.

والفَرْحة: المسرة، والفرحة أيضًا: ما تعطيه المفرح لك أو تثيبه به مكافأة له. وفي حديث التوبة: (لله أشد فَرَحًا بتوبة عبده)[(٢)]، وصفة الفرح ثابتة لله عز وجل كما يليق بجلاله وكماله[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون في اللذات البدنية والدنيوية[(٤)].

وقال المناوي: «الفرح: انفتاح القلب بما يلتذ به»[(٥)].

وقال الكفوي: «الفرح ما يورث أشرا أو بطرا، ولذلك كثيرا ما يذم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]. ويتولد هذا عن القوة الشهوية. وقيل: شرح الصدر بلذة عاجلة، وقيل: لذة القلب لنيل المشتهى»[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤١.

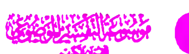
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٣، رقم ٢٧٤٤.

(٣) انظر: تهذيب اللغة ٥/ ٢٠، الصحاح، الجوهري ١/ ٣٩٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٩، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٤١.

(٤) المفردات، ص ٣٧٥، الذريعة في مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٩.

(٥) التوقيف على مهمات التعريف ص ٢٥٨.

(٦) الكليات، الكفوي ص ٥٠٨.



الفرح في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ف ر ح) في القرآن الكريم (٢٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٨١]
الفعل المضارع	٩	﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم:٤]
صفة مشبهة	٦	﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:١٠]. ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم:٣٢]

وجاء الفرح في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: البطر: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[هود:١٠]. يعني: بطر فخور.

الثاني: الرضا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الرعد:٢٦]. يعني: رضوا بها.

الثالث: السرور: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾[يونس:٢٢]. يعني: سروا بها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥١٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٥٩-٣٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [١].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ» [٢].

وقيل: هو انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا [٣].

الصلة بين الفرح والسرور:

هناك تقارب في المعنى بين الفرح والسرور إلى حد كبير، بحيث يصعب التفريق بينهما وفرق أبو هلال العسكري بينهما فقال: «الفرق بين السرور والفرح؛ أن السرور لا يكون إلا بما فيه نفع أو لذة على الحقيقة، وقد يكون الفرح بما ليس بنفع أو لذة: كفرح الصبي بالرقص والعدو والسباحة وغير ذلك مما يتعبه ويؤذيه، ولا يسمى ذلك سرورًا» [٤].

٢ الحبور:

الحبور لغة:

هو السرور. الحبرة: النعمة التامة [٥].

والحبور من الحبرة وهو الفرح، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾[الروم:١٥] [٦].

الحبور اصطلاحًا:

المبالغة فيما وصف بجميل [٧].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٢٨.
(٤) انظر: الفروق اللغوية ص ٢١٩.
(٥) الصحاح، الجوهري ٢/ ١٨٣، تاج العروس، مرتضى، الزبيدي ١٠/ ٥٠٦.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٧.
(٧) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٣١٦.

الصلة بين الحبور والفرح:

قيل: الفرح: انبساط القلب لنيل محبوب أو توقعه، والحبور: السرور الذي يظهر في الوجه أثره، فهو أشد من الفرح، ولذا خاطب الله تعالى أهل الجنة بقوله ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ ﴾ [الزخرف:٧٠].[1]

٣ البشرى:

البشرى لغة:

هي الخبر السار وكذلك البشارة، يقال: بشرته فأبشر واستبشر وتبشر وبشر فرح[2].

البشرى اصطلاحًا:

اسم لخبر يغير بشرة الوجه مطلقا سارا كان أو محزنا إلا أنه غلب استعماله في الأول وصار اللفظ حقيقة له بحكم العرف حتى لا يفهم منه غيره[3].

الاستبشار في الاصطلاح:

البشارة: هي الخبر الصدق السار الذي ليس عند المخبر به علمه[4] ووجود المبشر به وقت البشارة ليس بلازم بدليل قوله تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات:١١٢].

الصلة بين البشرى والفرح

البشارة إذا كانت في الخير، فإنه تورث الفرح والسرور.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٩٧.
(٢) انظر: المحكم والمحيط، ابن سيده ٨/ ٥٩، المصباح المنير، الفيومي ص ٣١
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٣٩
(٤) انظر: المصدر السابق.

حقيقة الفرح

أولًا: صفة الفرح في حق الله تعالى:

من الصفات الثابتة لله تعالى صفة الفرح فهي صفةٌ فعليةٌ خبريةٌ ثابتةٌ بالأحاديث الصحيحة، أثبتها النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الصفة من صفات الله تعالى لها معنى وأثرٌ.

جاء في صحيح مسلم عن الحارث بن سويدٍ، قال: دخلت على عبد الله أعوده وهو مريضٌ، فحدثنا بحديثين: حديثًا عن نفسه، وحديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن، من رجلٍ في أرضٍ دويةٍ مهلكةٍ، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده) [(١)].

فصفة الفرح من الصفات الفعلية الخبرية التي انفردت بها السنة دون الكتاب، وهي ثابتة بالسنة الصحيحة التي تلقاها أهل السنة بالقبول، وعقد إجماعهم استنادًا إليها على إثباتها، وهذه الصفة تدل بالتضمن على لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث يوفق من يشاء من عباده ليتوبوا فإذا تابوا تقبل توبتهم وفرح بها فرحًا شديدًا ولطيفًا في وقت واحد، إذ يرد إليه عباده الشاردين من طاعته لئلا يضيعوا، وهو الذي لا تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم [(٢)].

ففي هذا الحديث إثباتٌ لصفة الفرح لله تعالى، وشبه النبي صلى الله عليه وسلم فرح الله تعالى بتوبة عبده بفرح الذي ضلت راحلته وعليها طعامه وشرابه في أرض صحراء مهلكة، لا ماء فيها ولا طعام، فأيس منها، فنام وأيقن بالموت والهلاك، فاستيقظ فوجدها قائمة عند رأسه، فالله أشد فرحا من هذا براحلته.

قال ابن القيم: «والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة» [(٣)].

قال الهراس: عند شرحه لهذا الحديث «وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل، والكلام فيه كالكلام في غيره

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٣، رقم ٢٧٤٤.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب، محمد أمان بن علي جامي علي ص٢٩٧.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١٥٨.

من الصفات، أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده المثوبة والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب، وقبوله توبته.

وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع، فقد يكون فرح خفة، وسرور، وطرب، وقد يكون فرح أشرٍ وبطر، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين»[1].

وأما تفسير الفرح بلازمه، وهو الرضا، وتفسير الرضا بإرادة الثواب، فكل ذلك نفيٌ وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق، تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم[2].

قال المناوي: «في الحديث إظهار صفة الكرم والحلم والغفران، ولو لم يوجد لانثلم طرفٌ من صفات الألوهية، والإنسان إنما هو خليفة الله في أرضه، يتجلى له بصفات الجلال والإكرام والقهر واللطف»[3].

فمن صفات الله تعالى الفرح والغضب والسخط. وغيرها، واحتجاج أصحاب الفرق الضالة، بأن هذا انفعال وتأثير من العبد، والمخلوق لا يؤثر في الخالق، فلو أغضبه أو فعل ما يفرح به لكان المحدث قد أثر في القديم.

فالله تعالى خالق كل شيء، وربه ومليكه، فهو سبحانه خالق الأسباب التي ترضيه وتغضبه، وتسخطه وتفرحه، فهو سبحانه خالق ذلك كله، والمخلوق أعجز من أن يؤثر فيه[4].

فالسلف الصالح لا يؤولون ولا يلحقون صفة بأخرى، وإنما يثبتونها لله تعالى كما هي، وما أثبتها الله تعالى لنفسه، وكما أثبتها له رسوله.

قال البغوي «فهذه ونظائرها صفاتٌ لله تعالى ورد بها السمع، يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها، معرضا فيها عن التأويل، مجتنبا عن التشبيه، معتقدا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات، قال الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»[5].

فالفرقة الناجية، من أهل السنة والجماعة،

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص ١٦٦

(٢) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث، الصابوني ص ٥.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/ ٣٠٥.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٦٣

(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨.

يؤمنون به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهؤلاء هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة المرحومة هي الوسط في الأمم، فهم وسط الأمة في باب الصفات بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة»[1].

ومن الصفات القريبة لصفة الفرح، البش فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (ما توطن رجلٌ مسلمٌ المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم)[2].

فقال ابن حبان «العرب إذا أرادت وصف شيئين متباينين على سبيل التشبيه أطلقتهما معا بلفظ أحدهما، وإن كان معناهما في الحقيقة غير سيين. فتبشبش الله جل وعلا لعبده الموطن المكان في المسجد للصلاة والخير؛ إنما هو نظره إليه بالرأفة الرحمة والمحبة لذلك الفعل منه»[3].

والبشبشة؛ معناها يقارب معنى الفرح، والعرب تقول: رأيت لفلان بشاشة وهشاشة وفرحًا، ويقولون: فلان هش بش فرح، إذا كان منطلقًا، فيجوز إطلاق ذلك كما جاز إطلاق الفرح[4].

وقال المباركفوري: «إن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعز جلاله»[5].

وقد فهم معنى أمثال هذه الصفات، الرجل الأعرابي الذي قال حينما سمع أن الله تبارك ينظر إليكم الرب قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب[6].

فقال له أبو رزين العقيلي يا رسول الله أو يضحك الرب؟ (قال: نعم قال: لن نعدم من ربٍ يضحك خيرًا)[7].

فجعل الأعرابي العاقل - بصحة فطرته - ضحكه دليلًا على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرونٌ بالإحسان المحمود وأنه من صفات الكمال والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذمومٌ بذلك وقد قيل في اليوم الشديد العذاب: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن

(١) شرح العقيدة الواسطية، هراس ص١٨٢
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، ٢/ ٩٩، رقم ٨٠٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨١، رقم ٥٦٠٤.
(٣) صحيح ابن حبان ٤/ ٤٨٥.
(٤) انظر: صفات الله عز وجل، علوي السقاف ص٨٦.
(٥) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري ٨/ ٦.
(٦) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله بن محمد الغنيمان ٢/ ٩٠.
(٧) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله، باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ١٨٣ رقم ١٧٩.
وحسنه ابن تيمية، كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٣٩.

﴿رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان:١٠][1].

والمسلم حين يعلم أن من صفات الله تعالى الفرح والبش، والضحك فعليه أن يزداد إيمانا بربه، ويزداد حبا وتقربا إليه، ويكون لسان حاله يقول كما قال الأعرابي «لن نعدم من رب يضحك خيرًا».

ثانيًا: الفرح طبيعة إنسانية.

الفرح هو واحد من تلك العواطف والمشاعر القلبية، ولازم من لوازم الطبيعة الإنسانية فقد اعتنى القرآن ببيان أحواله، واعتنى بتوجيهه وضبط مساره، بل إن القرآن قد ارتقى به إلى مصاف الأعمال القلبية المطلوبة من أهل الإيمان.

فقد وجه القرآن الكريم المشاعر القلبية توجيهًا صحيحًا، ونظمها على أساس من التوازن والفاعلية المثمرة والفرح واحد من عدة انفعالات أساسية للنفس البشرية، وهي: الفرح، والحزن، والحب، والكره، والرغبة، والتعجب[2].

والفرح الفطري المعروف، كغيره من الانفعالات التي خلقت مع الإنسان، وجبلت عليها النفس، فما من إنسان إلا وهو يفرح ويحزن[3].

والإنسان بصفة عامة غير متزن تجاه انفعالاته، وما يعرض له، ويتأثر به، وهذ ما أكده القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم:٣٦].

لقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أسفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده، وبأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بإدخاره عند الله تعالى وذلك بأن يقول: المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر؛ وفي النعمة هكذا قضى وما أدري مآله هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فلا يزال خائفًا عند النعمة قائلًا في الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن، وأكمل من هذا أن يكون مسرورًا بذكر ربه في كلتا الحالتين، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا وغنيمته شكرًا والحزن

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٦/ ١٢١.
(٢) انظر: انفعالات النفس، ديكارت ص ٥١.
(٣) انظر: المدخل إلى عالم النفس الإسلامي، سبيعي ٢/ ٣٤.

والفرح المنهي عنهما هما اللذان تتعدى فيهما إلى ما لا يجوز»[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

فالله تعالى بقدرته يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء، حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن وجرين بهم بالريح اللينة الطرية التي تسير السفن فمن فطرتهم فرحوا بها، وفجأة جاءتها ريح عاصف أي: جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمرة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا بالهلاك رجعوا إلى طبيعتهم فدعوا الله مخلصين له الدين، أي: أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون[2].

قال القرطبي: «وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرًا، لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى رب الأرباب، ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين بطاعتك ومرضاتك»[3].

ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٣].

أي: فلما خلصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[4].

من طبيعة الناس إظهار الفرحة في المناسبات ومنه إظهار السرور في العيدين فهو من شعار الدين وإعلاء أمره، وفيه دليل أن العيد موضوع للراحات وبسط النفوس إلى ما يحل من الدنيا والأكل والشرب والجماع ألا ترى أنه أباح الغناء من أجل عذر العيد، فيجوز لهم إظهار الفرحة في مثل هذا اليوم[5].

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٢٢٣.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٤٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٢٥.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٤.
(٥) انظر: الكواكب الدراري، الكرماني ٢/ ٦٢، حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٥٨٧.

فعن عائشة قالت: (دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين. فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا)[1].

فالفرح: انفعال جبل عليه الإنسان وتلبس به، ومن الخذلان بقاء النفس على ما جبلت عليه، فلابد من مقابلة هذا الفرح الفطري بشيء مكتسب؛ ليضبط هذا الانفعال، وهذا متوافر في توجيهات الشرع، وهي تؤدي هذه المهمة خير أداء، هذه المهمة التي أوكلها الفلاسفة وعلماء النفس إلى الإرادة، أو المكابدة، أو قوة التفكير فحرص الإسلام على تهذيب الفرح وتوجيهه؛ لإبراز الجانب الإيجابي منه، ولاستثماره بما يعود على النفس بالخير والسعادة[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، ٢/ ٦٠٧، رقم ٨٩٢.
(٢) انظر: الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٧٩.

أنواع الفرح

بين القرآن الكريم أنواع الفرح فمنه ما يمدح أو يذم بحسب السياق الذي ورد فيه، وهذا يعني أن للفرح أنواعًا ثلاثة:

النوع الأول: المحمود، وهو ما يتعلق بالدين، وله آثاره الإيجابية.

النوع الثاني: المذموم، وقد تحدث عنه القرآن الكريم، فذكر صورًا منه، صدرت عن اليهود والمنافقين والكافرين والمترفين، وله آثار سلبية كثيرة.

النوع الثالث: الفرح المباح: هذ ينسجم مع طبيعة الإنسان السوية، مع ضرورة الاحتراز منه؛ لكيلا يؤدي التساهل فيه إلى الفرح المذموم.

أولًا: الفرح الممدوح:

إن أسمى درجات الفرح وأفضلها هو الفرح بالإسلام، فأمر الله به وأثاب عليه، ومن أعرض عنه كان له الضنك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وعن أبي سعيد الخدري، في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، قال: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من

أهله»(١).

قال ابن القيم: «يريد بذلك أمرين؛ الأول: الفضل في نفسه، والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له.

وهذا الفرح الذي يقتضيه اللفظ؛ هو بفضل الله وهو هداية الناس للقرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع السنة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة»(٢).

قال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾: «يفيد الحصر؛ فيجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك». فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل»(٣).

فالتعبير في الآية غاية في البلاغة؛ لما فيه من التأكيد والمبالغة في التقرير؛ فإن أصل المعنى بدونهما: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، فأخر الأمر وقدم متعلقة؛ لإفادة الاختصاص، كأنه قال: إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به؛ فهو فضل الله ورحمته(٤).

والفرح بفضل الله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعون من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، وسائر متاع الدنيا مع فقدهما، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية المفضلة على الحياة الدنيا الفانية - كما اشتهر فيما خطته الأقلام ولاكته الألسنة - بل لأنه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين، كما حصل بالفعل؛ إذ كانت هداية الإسلام بفضل الله وبرحمته سببًا لما ناله المسلمون في العصور الأولى من الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح، والعدل والإحسان، والفوز الكبير، فلما صار جمع المال، ومتاع الدنيا، وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات، وتركوا هداية الدين في إنفاقه والشكر عليه؛ ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم(٥).

إن الآيات هدفت أول ما هدفت إلى التنويه بالقيمة العليا لهذا الدين، الذي أخرج من آمن به من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، وجعلهم يدركون أن للحياة معنى أسمى وأعظم مما يتصوره الكافرون الجامعون لمتاعها.

فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان، فبذلك - وحده - فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال، ولا أعراض

(١) المعجم الأوسط، الطبراني ٥/ ٣٤٧، رقم ٥٥١٢.
(٢) الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٥٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٢٣-١٢٤.
(٤) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١١/ ٤٠٦.
(٥) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤٠٦.



هذه الحياة، إن ذلك هو الفرح العلوي، الذي يطلق النفس من المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها، لا عبدًا خاضعًا لها»[(١)].

ومن الفرح الممدوح فرح الصحابة الكرام عندما سمعوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي سأله عن الساعة: (أنت مع من أحببت)، فيقول أنس: «فما رأيت فرح المسلمين بعد الإسلام فرحهم أشد مما فرحوا به»، وفي حديث آخر جاء قوله: «فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي - صلى الله عليه وسلم: (أنت مع من أحببت)»[(٢)].

وكذلك عندما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم أنسًا بفضل انتظاره لصلاة العشاء؛ قال: (فما فرحت بعد الإسلام فرحي به)[(٣)].

فالصحابة كانوا يفرحون مما يستحق الفرح - ففرحهم بالإسلام؛ جعلهم يشعرون م بالنقلة التي نقلهم الإسلام إليها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، ٨/ ٤٠، رقم ٦١٧١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة، ١/ ٢٢٨، رقم ٥٨٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٣.

حين أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وعن عقبة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، قال: سمعت أيفع بن عبدٍ الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولًى له، فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: «الحمد لله تعالى» ويقول مولاه: «هذا والله من فضل الله ورحمته»، فقال عمر: «كذبت، ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨][(٤)].

فالفرح بالقرآن، وبالإسلام، وبالرحمة فرحٌ محمود؛ لأن هذه الأمور ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: يجمع الكافرون من متاع وضياع، وهم في غيهم سامدون. فما جمع من مال بين يدي عمر صعب عليه إحصاؤه يستدعي الفرح ولا شك، لكنه رضي الله عنه مهما كان لا يرقى بحال إلى أن يفرح به كفرحه بالإسلام، الذي كان سببًا في هذا الخير.

وفي قوله تعالى ﴿يَجْمَعُونَ﴾، قرأ رويس بتاء الخطاب (تجمعون)؛ خطابًا للمسلمين، والباقون بياء الغيبة، (يجمعون) والمقصود الكفار،[(٥)] أي: خيرٌ كذلك مما تجمعون

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٥.

(٥) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، القاضي ص ١٤٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٧٠.

أنتم أيها المسلمون، ولعل هذا ما يشير إليه قول عمر رضي الله عنه.

قرئ فلتفرحوا بالتاء، قال الفراء: وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال: معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار، قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبي فبذلك فافرحوا والأصل في الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد، وذلك لأن حكم الأمر في الصورتين واحد، إلا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله، وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم فليفرحوا لأنه وجده قليلا فجعله عيبا إلا أن ذلك هو الأصل[1].

إن الفرح بالإسلام يقتضي الفرح بمن أنزله، وتفضل به على خلقه، ولهذا يفرح المسلمون بالله، وتطمئن قلوبهم بذكره وتأنس، ويفرح المسلمون أيضًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حمل لهم الإسلام من الله، فعن البراء بن عازب في الهجرة، **(أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور مثلها)**[2].

قال ابن القيم: «الفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء - عند حصوله له - على قدر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء، لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته؛ فالفرح تابع للمحبة والرغبة»[3].

وهنا فرح محمود آخر وهو أهل الكتاب بالإسلام، وقد أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بالقرآن والإسلام، وأهل الكتاب هنا من أسلم منهم، كعبدالله بن سلام رضي الله عنه.

قال السعدي: «الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٨٥، مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لتركبن طبقًا عن طبقٍ)، ٦/ ١٦٨، رقم ٤٩٤١.

(٣) الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٥٥-٤٥٦.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه، ومن بعده و «كعب الأحبار» وغيرهما»[(١)].

وهذه بعض صور من الفرح المحمود:

١. الفرح بنصر الله.

قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ٢-٥].

احتربت الروم وفارس بين أذرعات[(٢)] وبصرى[(٣)]، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: لا يقرر الله أعينكم، فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف: كذبت يا أبا فصيل، اجعل بيننا أجلًا أناحبك عليه. والمناحبة: المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ظهرت الروم على فارس، وذلك عند رأس سبع سنين، وقد ورد أن هذا النصر تزامن مع غزوة بدر؛ فتكون الإشارة إلى فرح المسلمين بالانتصار على كفار مكة، وهي بشرى بفرح آجل، وقد تحقق، وهذا يجعل فرح المسلمين مضاعفًا، حين فرحوا بانتصارهم على كفار مكة، ثم فرحوا بانتصار الروم على الفرس[(٤)].

فأنزل الله تعالى هذه الآيات مشيرةً إلى هزيمة الروم وأن الفرس سيهزمون في معركتهم القادمة مع الروم، وسيكون هذا بعد بضع سنين، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقد تحقق وعد الله.

قوله تعالى: (غلبت) قرئت بالفتح

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧٣.
(٢) بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب اليه الخمر. معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ١٣٠.
(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ٤٤١.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٦٦.

على البناء للمعلوم، والروم فاعل، وقرئت (سيغلبون) بالمبني للمجهول، أي: سيغلبهم المسلمون فيما بعد، ويفرحون بهذا النصر»[1].

فالمسلم مأمور بأن يفرح، حين ينتصر الحق على الباطل، في أي من ميادين الصراع، وهو فرح محمود يثاب عليه.

٢. فرح الشهداء بلقاء الله تعالى.

لقد ذكر القرآن الكريم فرح الشهداء، أولئك الذين فرحوا بالإسلام في الدنيا؛ فهانت عليهم أرواحهم في سبيله؛ فماتوا من أجله؛ فامتد فرحهم في الآخرة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن (أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول ألكم حاجة تريدون شيئا فيقولون لا إلا ان نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى)[2].

قال ابن القيم: «حين يلقى المؤمن أهله وأصحابه، فيفرحون به ويفرح بهم، فرح الغائب يقدم على أهله، وهذا كله قبل الفرح الأكبر، يوم حشر الأجساد، بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض»[3].

إن فرح المؤمن بلقاء الله عندما يقال له: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

فلو لم يكن له إلا هذه الفرحة وحدها، لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها؛ أنواعٌ من الفرح؟ ويظهر هذا على الناجي يوم القيامة فيأخذ كتابه بيمينه، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٠][4].

وآخر فرح هو الفرح برؤية وجه الله تبارك وتعالى، فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ يقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٦١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٧.
(٣) الروح، ابن القيم ص٣٩٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٦.

[يونس:٢٦][1].

إن الفرح المحمود الطيب بآثاره، والمثاب صاحبه عليه - له حلاوة لمن تذوقها فلا يلقي بالًا لغيرها، وهذا الفرح المحمود من أسمى أقسام الفرح وأكملها، وتخلو صوره كلها من المكدرات والشوائب، ومن المزاحمات، فلا شحناء ولا تحاسد[2].

ثانيًا: الفرح المذموم:

عرض القرآن الكريم الفرح المذموم، فذكر منه صورًا، أسندها إلى طوائف من الناس صدر عنهم هذا الفرح، وكان هذا الفرح المذموم له أسبابه، ودوافعه، آثاره. والمتأمل في الآيات القرآنية - التي تحدثت عن هذا الفرح المذموم، نجد أن أكثرها في اليهود والمنافقين والكافرين والمترفين.

وهذه بعض صور الفرح المذموم من خلال الآتي:

١. فرح اليهود.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران:١٨٨].

قال مروان لرافع بوابه: اذهب إلى ابن عباس وقل له: لئن كان امرؤ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل عذب، لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذا، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه، ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧][3].

التبس على مروان بن الحكم معنى هذه الآية، وكان قد غفل عن سبب نزولها، ورأى أن فيها وعيدًا وتهديدًا لمن يفرح ويحب الثناء، وعلى هذا لن ينجو أحد من العذاب؛ فكل الناس يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فكان اليهود يخالطون الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أحيانًا، وحدث أن سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال اختبارٍ وكشف نياتٍ، فكذبوا عليه، ثم فرحوا بهذا الكذب، ثم أشعروا الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم يستحقون منه المدح والثناء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/ ١٦٣ رقم ١٨١.

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة ص ٢١٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ٦/ ٤٠، رقم ٤٥٦٨.

على تجاوبهم.

قال الضحاك: «كتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الارض كلها إن محمدا ليس نبي الله فاثبتوا على دينكم وأجمعوا كلمتكم على ذلك، فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففرحوا بذلك وقالوا: الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة ونحن أولياء الله، فلذلك قول الله تعالى يفرحون بما أتوا - بما فعلوا - ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا - يعني بما ذكروا من الصوم والصلاة والعبادة»[1].

وقد توعد الرسول صلى الله عليه وسلم من يكذب؛ من أجل أن يضحك الناس، ويدخل الفرح إلى قلوبهم[2]، فالكاذب يفرح؛ لأنه استطاع أن يضحك الناس، وهم يضحكون ويفرحون بما يسمعون.

٢. فرح المنافقين.

إن الصلة وثيقة بين المنافقين واليهود؛ فإن اليهود احتضنوا بذرة النفاق ورعوها، وكان منهم منافقون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١].

فالكذب أبرز صفة في المنافقين، وهو الذي يميزهم عن أهل الكفر الصريح، فهو عندهم منهج حياة؛ فكان أول وعيد للمنافقين على كذبهم: بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠].

وعن أبي سعيد الخدري: (أن رجالًا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو، تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ [آل عمران:١٨٨][3].

وهناك آياتٌ صريحةٌ في الحديث عن فرح المنافقين المذموم، والذي ظهر منهم في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٩٢
(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ٤/ ٥٥٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ٤/ ٢١٤٣، رقم ٢٧٧٧.

فقول الله تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ﴾ أي: بعضهم لبعضٍ: وقالوا﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله: قل لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرًا من النار[1].

فتخلف المنافقون عن مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام في الخروج للغزو، ثم جاؤوا يعتذرون، فعذرهم الرسولإهمالًا لهم، وتقليلًا من شأنهم، ففرحوا حينئذٍ بعدم الخروج، وفرحوا بإعذار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم.

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٤﴾ [التوبة:٩٤].

كشف هذا الفرح عن كذب المنافقين، وكشف كذلك عن كراهيتهم لهذا الدين؛ إذ لو كان في قلوبهم إيمان، لبكوا بسبب تخلفهم عن الغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم كما حصل مع فقراء المسلمين.

قال تعالى: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ [التوبة:٩٢].

إن البكاء من هؤلاء بسبب عدم الخروج علامة صدق وإيمان، كما كان الفرح من أولئك للسبب نفسه - وهو عدم الخروج - علامة كفر ونفاق، وقد توعدهم الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ [التوبة:٨٢].

والضحك هنا كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحًا؛ لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال[2].

وكذلك يفرح المنافقون، إذا مس المسلمين قرح، أو نزلت بهم نكسة، وتبدو عليهم مظاهر الإعجاب؛ قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٠.

﴿وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة:٥٠].

وقد أظهر إخوانهم اليهود من قبل الفرح بمصائب المسلمين، حيث ذكر القرآن الكريم في سياق الحديث عن قبائح أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

فالطائفتان تفرحان بمصاب المسلمين، وكذلك فرح كفار قريش بانتصار الفرس على الروم، مع أنه لم تكن هناك مودة أو تعاون بينهما، فالتشابه في المشاعر بين اليهود والمنافقين والكفار ليس بمستغرب؛ فالكفر ملة واحدة، والقواسم المشتركة في عداوة الجميع لهذا الدين وأهله، لذا حريٌّ بالمسلمين أن يجمعهم الفرح المحمود وميادينه، كما جمع الفرح المذموم أعداءهم[١].

٣. فرح الكافرين.

ذكر القرآن الكريم فرح الكافرين في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:٩-١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم:٣٦].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨].

وتشير الآيات إلى الإنسان الكافر باعتبار أنه جبل على عدم الاتزان، فالكافر أبرز أفراد النوع الإنساني في هذا المجال؛ لأن هذا الخلق هو عدم التوازن[٢] لا يزيله إلا الإسلام؛ فالذين لم يسلموا باقون عليه[٣].

إذا أذاق الله تعالى الإنسان رحمة فرح بها أي: إذا أعطاه رخاء وصحة وغنى فرح بها بطرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]أي: بلاء وشدة ومرض بما قدمت أيديهم من الذنوب فإن الإنسان كفور أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان[٤].

لقد كان لعدم توازن الكافر في انفعالاته مظاهر وآثار منها: أن فرحه محصور في الدنيا، ولا يلتفت إلى الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٥٧.

(٢) انظر: السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، العامري ٢٥/ ١٣٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٢١.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٢٣.

﴿ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

إن في الدنيا أشياء مفرحة تغري بالإنسان، ويبش لها؛ ولكنها قليلة زائلة، يخالطها الكدر والشوائب، وهي لا شيء إذا ما قيست بما في الآخرة من نعيم مقيم يفرح، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لولا أن كتب الله الخلود على أهل الجنة، لماتوا فرحًا)[(١)].

إن فرح الكافر مذموم، حين حصره في الدنيا على حساب الآخرة، وما نعيم الدنيا إلا مجرد ذوق، كما أشارت الآيتان السابقتان﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾[(٢)].

وفي قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، نموذجان لفرح المؤمن وفرح الكافر: لقد فرح أهل سبأ بهديتهم التي حملت إلى سليمان، وهي شيء تافه إذا ما قيست حتى بنعيم الدنيا، وقد ظنوا أن نبي الله سليمان سيفرح بالهدية كما فرحوا: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل:٣٥-٣٦].

أجابهم سليمان عليه السلام: أنتم وحدكم الذين تفرحون بمثل هذه الأشياء، أما نحن، فإنا نفرح بما آتانا الله من إيمان؛ فهو مصدر الفرح الحق.

فالفرح بالرحمة مأمور به، وفرحوا برحمة الله، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفا على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به، ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت إليه رغيفًا أو زبدية طعام أيضًا يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفًا وزبدية[(٣)].

إن الفرق ظاهر بين حال الكافر في فرحه وحال المؤمن، فارتباط فرح الكافر بالنعمة ذاتها يفسر عدم توازنه؛ لأنه يفرح بها فرح البطر إذا أقبلت، ويحزن حزنًا شديدًا إذا فقدها؛ لافتقاره للضابط المكتسب، الذي يكبح انفعالاته.

أما المؤمن، فإنه حين ترتبط النعمة عنده بالله تعالى؛ فإنه يفرح بها فرح المقر بفضل الله الوهاب لها، فلا يبطر؛ لأن المعطي فوقه يرقب فعله، وإن نزعت منه النعمة، أو فاته الحصول عليها يصبر؛ لاعتقاده أن ما حصل كان بقضاء الله وقدره، وقد تعود إليه، ويظفر بها مرة أخرى ما دام أمرها بيد الله تعالى.

هذا التوازن هو الذي يفتقر إليه الكافر؛

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب، ومن سورة مريم، ٥/ ٣١٥، رقم ٣١٥٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٥، رقم ٧٩٩٨.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ١٥

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٠١.

إعجابًا منه بما هو عليه، وتجاهلًا لأي صوت آخر؛ ولهذا كان فرحه فيما لا ينبغي، وعلى الوجه الذي لا ينبغي.

إن هذا المسلك الذي ارتضاه الكافرون أغرى بهم، فجعلهم يعرضون عن دعوة الرسل فرحًا بما عندهم وقناعةً به، وزهدًا بما وراءه، ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ [غافر:٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ويلحظ في الآية قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم﴾، وفي الآية الثانية ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، فهذا الذي يفرحون به من بدعهم هم، أو مما توارثوه واعتادوا عليه، وهو لا يغني من الحق شيئا، أما المؤمنون فإنهم يفرحون بما جاءهم من عند الله؛ فهو الرحمة والشفاء.

ناسب أن يأتي بعد قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون:٥٤].

وذلك تمثيل لحال اشتغالهم بما هم فيه من الازدهار وترف العيش، عن التدبر فيما يدعوهم إليه الرسول لينجيهم من العقاب بحال قوم غمرهم الماء، فأوشكوا على الغرق، وهم يحسبون أنهم يسبحون[(١)].

فأبواب التيه والخسران في الدنيا والآخرة فتحت على الكافرين، وكان سببها الفرح الباطل المذموم.

٤. فرح المترفين.

إن فرح المترفين أمثال قارون ومن على شاكلته، جعله نموذجًا لكل المترفين أمثاله، الذين صدر منهم الفرح المذموم؛ فقارون من اليهود الذين عرف عنهم حب المال وعبادته، وتقديم الفرح به على كل شيء.

فعن قتادة قوله: «كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله»[(٢)].

وفي القرآن الكريم إشارة إلى كفر قارون، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

فكفر قارون ظاهرٌ، لا إشكال فيه.

يبدو من خلال المحاورة بين قارون وقومه أنه كان مؤمنًا، كقولهم له: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص:٧٧].

فقارون تنقل بسبب فرحه ومرحه من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٧٣.

(٢) انظر: فسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٣.

حالة إلى أخرى أسوأ منها، وهذا من آثار الفرح المذموم، الذي يستدرج صاحبه، ويغري به حتى يورده النار.

إن ترف قارون ومرحه جعله أنموذجًا لكل أصناف الفرح المذموم؛ فقارون عرف عنه حب المال وعبادته، وتقديم الفرح به على كل شيء. وقد كان من بني إسرائيل، قوم موسى، فآتاه الله تعالى مالًا كثيرًا، فرح به فرحًا جعله يتجاوز الحد، فتطاول على قومه، وأعرض عن الاعتراف بفضل الله، وتجاهل الحقوق الواجبة عليه، فاستحق بذلك ما استحق[1].

فقارون بغى على قومه، وانحاز إلى فرعون، فاستدرجه الله تعالى بأن آتاه مالًا كثيرًا، فلما فتن به وفرح، أهلكه الله.

فالفرح أمر قد وقع، فالمعنى: لا يظهر عليهم بركته، ولا يعمهم رحمته. ولما نهوه عن الفرح المطغى، أمروه بأن يطلب، فيما آتاه الله من الكنوز وسعة الرزق، ثواب الدار الآخرة، بأن يفعل فيه أفعال البر، وتجعله زادك إلى الآخرة[2].

ونقل الطبري عن ابن عباس: الفرحين: المرحين، وعن مجاهد: المتبذخين، الأشرين، البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم[3].

إن أصحاب الفرح الباطل فتنةٌ لغيرهم من الناس، بخاصة أولئك الذين تعلقت نفوسهم بالدنيا ومتاعها، فكانوا بحاجة إلى تقريع يعيد لهم صوابهم، وهو ما قامت به الفئة المؤمنة، التي تستحق الوصف بالوصف المتقدم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص:٨٠].

كان هلاك قارون مؤذنًا بأن الترف لا ينجي من عذاب الله تعالى، وكان في هلاكه وعيد شديد، لمن هم على شاكلته من المترفين المنحرفين، وتسلية للمؤمنين.

فالفرح المذموم له آثارٌ سلبية، فهو يجعل صاحبه يسيء الظن بالله؛ لأنه يخشى أن ينزع الله منه الأشياء المفرحة، والفرح المذموم - الذي لا ضابط له - يؤدي إلى حزن مذموم لا ضوابط له عند فوات نعمة، أو حصول نقمة، وهذا الشعور يفضي إلى التسخط، وعدم الرضا بالقضاء والقدر؛ وهذا هو الخسران بعينه.

والفرح المذموم يلهي عن شكر المنعم؛ لانشغال صاحبه بالفرح وآثاره المتمثلة بالمرح بأنواعه، ولاعتقاده بأن لا فضل لأحد عليه، ولقد قالها قارون من قبل حين دعي إلى الشكر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٠/ ٣٨٣.

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٨/ ٣٢٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٢٣.

إن عدم الشكر سبب مباشر لنزع النعم، ولعذاب الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

ومن آثار الفرح المذموم الركون إلى الدنيا، والرضا بها، والحرص عليها؛ خشية أن يفوته بعض ما فيها من وسائل الفرح ودواعيه، وهذا يشغله - ولا شك - عن الآخرة والعمل لها.

يورث الفرح المذموم صاحبه العجب؛ بسبب حصوله على ما يفرح، والعجب مدعاة للاستهزاء بالآخرين، والبغي عليهم، كما فعل قارون.

ثالثًا: الفرح المباح:

الفرح لا تكاد تخلو منه نفس بشرية؛ فإنها تفرح، وتبدي سرورها ورضاها، حين تباشر ما من شأنه أن يفرحها في العادة، على اختلاف في الأشياء المفرحة بين إنسان وآخر، فقد يطير إنسان ما فرحًا بشيء، لا يحرك هذا الشيء نفسه ساكنًا عند آخر، ولا عجب، فإن المفرحات أشياء مكتسبة، بخلاف الفرح نفسه، هذا مع الإقرار بوجود أشياء يفرح عامة الناس بها؛ كالمال، والنجاح، والحياة، والتميز، وما شابه ذلك.

إن الفرح مباح، معفو عنه؛ كونه انفعالًا، ما لم يطرأ عليه مؤثر خارجي يحيله إلى فرح محمود، أو مذموم، ومن هنا وجه الشرع عنايته إلى تهذيب الفرح وضبطه.

إن المسلم أولى الناس بهذا الفرح؛ فإن فيه إظهارًا لنعمة الله تعالى عليه، وانسجامًا مع طبيعة النفس السوية.

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضحك ضحك الفرح عندما يرى ما يسره، وكان يضحك مما يضحك الناس، وكان يتعجب مما يتعجب من مثله، ويستغرب وقوعه [(١)].

فلما قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة إلى المدينة، يوم أن فتح الرسول صلى الله عليه وسلم خيبر، فتلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل جبهته، وقال: (**والله ما أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**)[(٢)].

فالرسول صلى الله عليه وسلم يفرح، ويسعى؛ ليفرح أصحابه معه، فقد جاء في حديث الدجال قوله صلى الله عليه وسلم: (**لكن تميمًا أتاني، فأخبرني خبرًا منعني القيلولة؛ من الفرح وقرة العين، فأحببت أن أنشر عليكم فرح نبيكم**)[(٣)].

(١) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن القيم ١/ ١٧٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٦٨١، رقم ٤٢٤٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج ٢/ ١٣٥٤ رقم ٤٠٧٤. وصححه الألباني

وكان الصحابة الكرام إذا رأوا الغيم، فرحوا[1]؛ استبشارًا بنزول المطر وإنبات الأرض، وما يتبع ذلك من خيرات تتمناها النفس، وتفرح بها.

إن توبيخ الله تعالى للكافرين بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [غافر:٧٥]- دليلٌ على أن الفرح بالحق ممكن أن يكون محمودًا أو مباحًا جائزًا.

فالفرح المباح قد يشتد، فيوقع صاحبه في أخطاء غير مقصودة، في أثناء تعبيره عن هذا الفرح، أي: تجاوز الصواب، وهو قول العبد الذي أضل راحلته: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[2]؛ فلما اشتد عليه الفرح منع صاحبه من إدراك البديهيات، فضلًا عن غيرها.

دوافع الفرح

راعي الإسلام طبيعة الفطرة الإنسانية: فنجد أن هناك فرحًا مشروعًا شاملًا لجميع حاجات ودوافع الإنسان التي تتطلبها جوانبه المختلفة مثل (الروح، والعقل، والجسد) مما يدل على أن من خصائصه العموم والشمول ومراعاة الفطرة.

لقد خلق الله الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكل من الجسد والروح مطالبه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٤].

والإنسان نفس ومزاج وأعصاب وإحساس، وهي وإن لم تكن ظاهرة إلا أن لها الدور الأعظم في صحة الجسد، وانتشاله من كثير من الأمراض، ولو تأمل الإنسان القرآن العظيم الذي ما فرط في شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

فالقرآن ذكر أمورًا وأشياء تدخل السعادة على النفس، إضافة إلى أمور أخرى تنبع من داخل النفس والذات الإنسانية.

وهذه الدوافع على أنواع نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: دوافع فكرية:

الفرح من الانفعالات الإنسانية الفطرية التي لابد أن تنتاب كل أحد منا في فترة من

في صحيح الجامع، ١/ ٤٩١، رقم ٢٥٠٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم)، ٦/ ١٣٣، رقم ٤٨٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، بابٌ في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٤، رقم ٢٧٤٧.

الفترات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم:٤٣].

لقد بين لنا القرآن الكريم المنهج السليم الذي يجب أن يقوم عليه الفرح لدى الفرد، فالفرح أمر نسبي يتوقف على أهداف الإنسان في الحياة، فمن كان هدفه الحصول على شيء من متاع الدنيا فقط وهذا حال الكثيرين ومنهم الكفار، كان نجاحه في تحقيق أهدافه باعثا على فرحه وسروره قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

وهذا النوع لا ينعم في الواقع بالحياة السعيدة المطمئنة المستقرة، فإذا أنعم الله عليه بنعمة الصحة وسعة الرزق ووفرة المال شعر بالفرح والسعادة، وإذا ما أصابه ضرر أو بلاء وفقد بعض النعم التي كان يتمتع بها أو عجز عن تحقيق هدف يأمل به تملكه الاكتئاب واليأس والاضطراب وجحد بالنعم الأخرى [(١)].

والدوافع الفكرية تنقسم إلى قسمين:

- دوافع فكرية حسية.
- دوافع فكرية غير حسية.

وهذا ما سيتم الحديث عنه في النقاط الآتية:

١ . دوافع فكرية حسية.

الدوافع الفكرية الحسية الخارجية للفرح، مثل: النظر في الألوان.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر:٢٧]].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه:١٠٢]وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠].

وقال سبحانه ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩].

من دوافع الفرح الفكرية النظر إلى الألوان لما لها التأثير على فرح لإنسان، فهي تعالج النفس، وتعدل الطبع والمزاج، وتسمو بالأرواح، وتغذي الأعصاب وتفيد الإحساس بالراحة [(٢)].

وتأثير اللون في حياة البشر اليومية لا يخفى على أحد، فهناك ألوان تبعث السرور في النفس، وتشيع السعادة في حياة الفرد، ومنها ما ينفر منه المرء، وتشعره بالكآبة

(١) انظر: القرآن وعلم النفس، نجاتي ص٨٦.

(٢) انظر: مجلة العلم عدد ٢٨١، فبراير ٢٠٠٠، ص ٢٢.

والملل والاضطراب النفسي، وهناك ألوان ترفع معنويات الفرد، وأخرى تثبطها، ومنها ما يوحي بدفء المشاعر، ومنها ما يوحي ببرودها وجمودها.

وذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة الألوان وهي: الأبيض والأخضر والأصفر والأحمر والأسود واللون الأزرق.

فاللون الأبيض، ذكر للصفاء، والقلوب الطيبة التي لا تخفى أضغانًا، كالمرآة تعكس ما يقع عليها، لذا كان علامة على وجوه أهل السعادة يوم القيامة، وهو لون شرابهم وكؤوسهم وأنهارهم، ولون نسائهم، هو اللون العاكس لحال السعداء.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٥-٤٦].

قوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان: ١٦]

أي: قوارير كأنها في بياضها من فضة، فهن إضاءات صافيات الغلائل فيها أنها في طيب الرائحة وسطوعها، وأرجها كأرج المسك والكافور[(١)].

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ «أي خمر جارية ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قال الحسن خمر

(١) انظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ١/ ٢٩٣.

الجنة أشد بياضا من اللبن»[(٢)].

وأما اللون الأسود: ورد ذكره في القرآن الكريم في جزاء الفرح المذموم، و حال الكفار في عرصات يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

فللون الأسود في تلك الآيات الكريمة، لون الحزن والهم والغم والكآبة في الدنيا، وكذلك هو لون جهنم، كما في حديث أبي هريرة قال: (أوقد على النار ألف سنةٍ حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ حتى اسودت فهي سوداء مظلمةٌ)[(٣)].

وأما اللون الأزرق: قال تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: ١٠٢].

يقول أبوالسعود: «يحشر المجرمون

(٢) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس ٦/ ٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٧١٠، رقم ٢٥٩١.
وصحح الترمذي وقفه على أبي هريرة.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ٤٧٠، رقم ١٣٠٥.

زرقًا أي: حال كونهم زرق العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرقٌ ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميًا لأن حدقة الأعمى تزرق»[(١)].

يأتي اللون الأخضر في الجمال في المرتبة الثانية فقبله الأبيض ثم الأخضر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام:٩٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠].

وعند العرب الأخضر يطلق على كل جميل فيقال: الأخاضر للذهب واللحم ويكنى عن المرأة السوداء بالخضراء تفاؤلًا، وكذا عن الحسناء.

واللون الأخضر لون النباتات والزروع التي نشاهدها يوميًا والتي تدخل على النفس كثيرًا من البهجة والسرور، ولون الخضرة يقوي النظر ويزيد في حاسة البصر، وسبب ذلك فيما يقوله أهل الطب أن الأخضر يجمع الروح الباصر جمعًا رفيقًا مستلذًا غير عنيف.

يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل:٦٠]: «حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة، ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية، وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر والحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب، وأن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وأن تموج الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلًا عن معجزة الحياة النامية في الشجر وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر»[(٢)].

وأما اللون الأصفر: قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩].

طلبوا من موسى عليه السلام زيادة في التعنت وكثرة السؤلات وصفًا آخر لهذه البقرة التي أمروا بذبحها، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فأجابهم الله

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٦.

تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ أي صفراء اللون: وهذا أجمل لون؛ كشعاع الشمس الذهبي عند الغروب.

قال ابن عباس: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: أي: تعجبهم من حسن منظرها وجمال لونها[(١)].

قال ابن عباس: «من لبس نعلًا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾»[(٢)].

يقول الكسائي: فقع لونها إذا خلصت صفرته وعن كون اللون الأصفر باعثًا للسرور[(٣)].

قيل: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ شديد الصفرة تكاد من صفرتها تبيض، وقيل: صافية اللون، وهي تسر الناظرين، لأنك إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها[(٤)].

وأما الدافع الفكري الثاني للفرح هو الحلي والأحجار الكريمة.

فقد تعددت الآيات الكريمة التي تحدثت عن تحلي المؤمنين يوم القيامة بألوان الحلي المختلفة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، إضافةً إلى الآيات التي أكدت على كون الذهب والفضة من شهوات الحياة الدنيا المحببة إلى النفس، والتي تدخل الفرح في من اقتناها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

الذهب مؤنث، ولذلك يصغر على ذهيبة، ويجمع على أذهاب وذهوب، واشتقاقه من الذهاب، ويقال: رجل ذهب بكسر الهاء-رأى معدن الذهب فدهش و «الفضة» تجمع على فضض، واشتقاقها من انفض إذا تفرق[(٥)].

قال القرطبي: «والذهب مكيالٌ لأهل اليمن، قال: واشتقاق الذهب والفضة، يشعر بزوالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود»[(٦)].

والذهب والفضة: إنما كانا محبوبين يبعثان على الفرح لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء، فمالكها كالمالك لجميع الأشياء[(٧)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ١٣٨.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ١٦٤.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١١٥.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، بن عادل ٥/ ٧٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٢
(٧) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٧٦.

وأما الأحجار الكريمة فقد ذكرت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، على سبيل وصفها مصدرًا للجمال، ومصدرًا للفرح، وعلى أنها باعثة على البهجة والانشراح والمتعة.

قال تعالى واصفًا الحور العين في الجنة: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن: ٥٨].

أي: كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه[(١)].

وقال تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: ٢٣].

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣﴾ [فاطر: ٣٣].

الأساور: جمع أسورة التي هي جمع سوار فالأساور جمع الجمع، وهي حلية تلبسها النساء الآن في معاصمها، ولؤلؤًا هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف[(٢)].

ترتبط الأحجار الكريمة في أذهان الناس بالفرح والجمال، ويعتقد البعض أن لها أثرًا علاجيًا في العديد من الأمراض الجسدية والنفسية.

٢. دوافع فكرية غير حسية.

الدوافع الفكرية غير الحسية للفرح، مثل: الفرح بما عند الإنسان الجاهل من العلم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾ [غافر: ٨٣].

أخبر الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به[(٣)].

فحين جاءتهم الرسل إلى هؤلاء الجاهلين، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة والزراعة، واغتروا بتلك القشور التي كانوا يسمعونها ممن كانوا يزعمون أنهم على شيء من العلم الديني، واستهزءوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى إلى الرشد، وتدعو إلى إخلاص

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٨٣.
(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٢/ ٥٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٠.

العبادة لله، واعتقدوا- لغبائهم- وانطماس بصائرهم- أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها[1].

ذكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ قال فيه وجوه:

الأول: أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[النمل:٦٦].

وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب.

والثاني: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بنى يونان، وكانوا إذا سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم.

والثالث: فرحوا بعلمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾[الروم:٧].

فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات، لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به[2].

ثانيًا: دوافع نفسية:

لقد بين القرآن أن الفرح والسرور والسعادة الحقة ذلك الذي يكون نتاج العمل الصالح. وأن تمسك الإنسان بالإيمان والتقوى والعمل الصالح هو السبيل للحصول على السعادة في الحياة الآخرة والأمن والطمأنينة والسرور والفرح الدائم.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[النحل:٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾

[يونس:٥٧-٥٨].

كثيرًا ما نسمع من يقول عن شخص ما: نكدي، وآخر مرح، فلو ملك الأول المال والعقار وحصل الوضع الاجتماعي المناسب. هل يتغير طبعه، ولو تعرض الثاني لمتاعب الزمان هل يتغير طبعه؟ أم الفرح يورث كالمال تمامًا!

فالقرآن الكريم وضح أن الفرح والشقاوة تورث كالصفات والأخلاق والأحاسيس والتدين والكفر كما تورث الصفات الحسية من طول أو قصر أو لون بشرة أو لون شعر؛ لنرى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَ

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٢/ ٣١٧.

(٢) الكشاف ٤/ ١٨٢.

﴿ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

لو تأملنا في قوله تعالى الآية الكريمة ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نجدها تشير إلى أن الكفار يضلون غيرهم من عباد الله، إضافة إلى أنهم يلدون الفجار الكفار أمثالهم. فقد أشارت الآية أن مواليدهم الخارجة من بطون أمهاتهم فجارًا كفارًا، فجرهم وكفرهم معهم مصاحبًا لهم، موروثًا عن آبائهم وأجدادهم يسري في عروقهم لا ينفك عنهم، بل هو من أصل خلقتهم كلون بشرتهم، أو عيونهم أو هيئة شعرهم لذلك لا خير فيهم، ولا يستحقون البقاء الذي لا ينتج إلا أمثالهم، فلا بد من استئصال بذور الشر التي فقدت الغاية من سبب وجودها على هذه الأرض.

وجاء في الأمثال «تكاد المرأة أن تلد أخاها» دليلٌ على توارث الصفات الخلقية. وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: للرجل الذي سأل عن غلامه الذي ولد أسودًا، فقال له: (هل لك من إبل. قال: نعم، قال: ما ألوانها. قال: حمر، قال: هل فيها من أورق قال: نعم، قال: فأنى ذلك. قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك هذا نزعة)[1].

وعن مريم عليها السلام نجد القرآن الكريم يصفها بحسن المنبت قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].

وفي هذا يقول الإمام علي: «إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره»[2] أي: من كان ينتمي إلى نسب عريق في الفضائل.

فالفرح: يشمل كل ألوان الخير والراحة والرفاه والبركة.

والشقاء: يشمل جميع صنوف القلق والضيق والشدة.

وجينات يرثها الإنسان بتقدير الله وإرادته مصداقًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم (أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلةً ثم يكون علقةً مثله ثم يكون مضغةً مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلماتٍ فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أم سعيدٌ ثم ينفخ فيه الروح فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، ٧/ ٥٣، رقم ٥٣٠٥.

(٢) انظر: غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي ص ١٤٤

فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها)[1].

وعن سعد ابن أبي وقاصٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء والمرأة السوء والمركب السوء والمسكن الضيق)[2].

مما سبق يتبين أن الصفات التي لها قابلية الانتقال من الآباء إلى الأبناء عديدة مثل لون البشرة والعين والشعر، وكذلك السجايا الخلقية والصفات الحميدة كالشجاعة والكرم والبشاشة والتفاؤل، أو الرذيلة كالكفر والفجور والكآبة والشقاء والتشاؤم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، ٩/ ١٣٥، رقم ٧٤٥٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٩/ ٣٤٠، رقم ٤٠٣٢.
وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٢.

أساليب القرآن في الحديث عن الفرح

أولًا: الحديث عن الفرح الممدوح:

القرآن الكريم سيبقى المعجزة الخالدة الدائمة في اللفظ والمضمون والأسلوب، فقد كانت معجزات الأنبياء السابقين متفوقةً عاليةً على تحديات عصورهم وأممهم. أما القرآن فهو معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، الخالدة الباقية على البشرية وعلى العالمين على مر العصور والدهور.

فأساليب القرآن الكريم في عرض الفرح، تعد عنايةً فائقةً بتنوع أساليب النصوص القرآنية وتدبرها وتأملها، واستنباط الأسلوب الذي يسري في نسقها، وجوانب الجمال الذي تتسم به.

١ . الأسلوب القصصي.

فأشار القرآن الكريم إلى أن القصص القرآنية وسيلةٌ من الوسائل الكثيرة إلى تحقيق الهدف الأصيل، والعناصر في القصة القرآنية تابعةٌ للهدف منها، وللعبرة التي سيقت من أجلها.

وقصة فرح قريش بنصر فارس على الروم وفرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر الله.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم:١-٥].

٢. الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر.

عرض القرآن الكريم الفرح بالأساليب المباشرة وغير مباشرة فمن الأساليب المباشرة فرح المؤمنين بما من الله عليهم من الهداية ومعرفة الحق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨].

ومن الأساليب غير مباشرة فرح مؤمني أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦].

فقد ذكر الله تعالى فرح الذين آتيناهم الكتاب ولم يذكر من هم بالأسلوب المباشر إنما كنى عنهم.

والأسلوب غير المباشر هو ذكر الشيء بذكر لوازمه، للتعبير عن المعنى، وهي باب من أبواب المجاز، وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أبي الجهم حين استشارته فاطمه بنت قيس في خطبة أبي الجهم لها؟

فقال صلى الله عليه وسلم عنه: **(أما أبو جهم، فلا يضع عصاه عن عاتقه)**[(١)]، كناية عن كثرة ضربه للنساء.

٣. أسلوب الوعد.

وهو فرح المؤمنين في الجنة بما أكرمهم الله به من الرضوان والنعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٠].

وقال سبحانه: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف:٧٠].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم:١٥].

٤. أسلوب الترغيب.

القرآن الكريم ربى الأمة الإسلامية من خلال الترغيب في ثواب الله وجنته ورضوانه، رباهم على التخلص من الشح، وأن ينفقوا في سبيل الله، ويؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن خلال الترهيب من غضب الله وعذابه، رباهم على التخلص من شهواتهم، وقد سلك في آياته أساليب متعددةً لتحقيق أهدافه، واتخذ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، ٢/ ١١١٤، رقم ١٤٨٠.

وسائل متنوعةً للوصول إلى غاياته.

ومن اساليب الترغيب، قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٨].

ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروحٍ به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه [(١)].

والفرح الإيماني هو فرح أهل الإيمان بما بعث الله به رسوله من الهدى والحق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

وهذا الفرح يعد من أعمال القلوب المطلوبة، ومن أعظم مقامات الإيمان.

يقول ابن تيمية: «أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦]» [(٢)].

ومما يدخل في هذا الفرح فرح المؤمن بالطاعة إذا عملها، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك، فأنت مؤمن) [(٣)].

والمتأمل في الشريعة يرى أنها ربطت الفرح بالطاعات، فكان عيد الفطر بعد الفراغ من صيام رمضان وقيامه، وكان عيد الأضحى عقب أداء مناسك الحج.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله عز وجل: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنةٌ، وللصائم فرحتان: فرحةٌ حين يفطر، وفرحةٌ حين يلقى ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) [(٤)].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذا الفرح: «وهذا فرح محمود غير مذموم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس:٥٨].

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها، وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها، ويسرها له، ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان الفرح

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٧٩، ٢٢١٦٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٦٤، رقم ٦٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ٩/ ١٤٣، رقم ٧٤٩٢.

بالله، والسرور به، فيفرح به إذ هو عبده ومحبه، ويفرح به سبحانه ربًا وإلهًا ومنعمًا ومربيًا»[1].

ثانيًا: الحديث عن الفرح المذموم:

١. الأسلوب القصصي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص: ٧٦].

هذه هي قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلهما بعد قصة الملك والسلطان وكيف كانت نهايتهما.

قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم مع أنه منهم، وعاش معهم ولكنه لم يرع لذلك كله حرمة أو جوارا، وبغى عليهم حتى جمع ذلك المال الوفير، وبغى عليهم بتكبره وطغيانه وظلمه لهم.

وآتاه الله من الأموال المنقولة والثابتة ما إن علمه والإحاطة به والمحافظة عليه لتنوء به العصبة من أولى العلم والقوة وكان قارون من قوم موسى، وكان ذا مال وفير، فقال له الصالحون من قومه لا تفرح وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض.

لا تفرح بدنياك فرحا مصحوبا بالبطر والأشر، والفتنة والغرور فالدنيا عرض زائل، وعارية مستردة يربح فيها من عرفها، ويخسر من اغتر بها لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. إن الله لا يحب الفرحين.

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة نعم فالدنيا طريق الآخرة، هي المزرعة للباقية من زرع فيها الخير حصد، ومن أضاع عمره فيما لا يرضى ربه ندم والعاقل من طلب بدنياه آخرته، ومن ابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة والله سبحانه لا يطالبك بأن تعطى مالك كله، بل إن تنفق القليل طلبا لرضا الرب الجليل، ترجع بالخير الكثير والجزاء الجزيل.

ولا تنس نصيبك من الدنيا نعم فهذا هو الطريق الوسط والرأي الرشد، أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وتعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، فليس من الدين الزهد في الدنيا حتى تتركها وتعيش عالة على غيرك، بل الدين يطالبك بالعمل والجد والغنى من طريق الحلال، فإذا جمعت المال فأعط حق الله فيه، ولا تنس نصيبك من الدنيا، أي: تمتع ببعضه بلا إسراف ولا تقتير، انظر إلى هذا النظام المحكم الدقيق الذي وضعه الحكيم البصير! وأحسن كما أحسن الله إليك والإحسان هو الإتقان في العمل، وهو يقتضى إعطاء كل ذي حق حقه.

ولا تبغ الفساد في الأرض بالظلم أو

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١١١.

العسف أو الكبر أو الإضرار بالناس فكل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها، إن الله لا يحب المفسدين بأي شكل كان.

انظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصح- لأنه غير موفق- بل زاد عليه بقوله: قال: إنما أوتيته على علم عندي!! بمعنى أنه أوتى هذا المال لفضل علمه وكمال استحقاقه له، أو المعنى أنه أوتيه على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة، وإنماء المال، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمي وتمام مجهودي وتجاربي، فليس لأحد حق له في هذا المال، وكأنه ينكر إنعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حر التصرف. ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث بين له حقيقة الأمر.

أعنده مثل هذا العلم الذي افتخر به وتعاظم، ورأى نفسه مستوجبة لكل نعمة، ولم يعمل به حتى يقي به نفسه مصارع السوء التي أهلك الله بها الطغاة المتجبرين الذين هم أشد منه قوة، وأكثر مالا وعددا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، وهكذا يجب على الإنسان ألا يغتر بماله، وأولاده وجموعه مهما كانت، فإن الله إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، وليعلم المسلم أن الأيام دول، وأن الدهر قلب، وليعتبر بما حصل في الماضي، وليحصن ماله بالإنفاق.

هذا حال قارون مع ماله، وموقفه ممن وعظه، وغروره بنفسه واستمع إلى الناس، وقد انقسموا إلى فريقين: فريق ينظر نظرة سطحية، فتعميه الدنيا وزخارفها عن الوضع السليم والطريق المستقيم وآخر قد نور الله بصيرته فهو ينظر إلى الدنيا بعين العبرة والعظة، عين الرجل الفاهم للحقائق الذي لا تخدعه المظاهر الخلابة.

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب إليه أهل العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخسف الله بقارون وبداره وبماله وبجموعه الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، ويمنعون عنه بأس الله وبطشه، حيث لم يعمل عملا صالحا يقربه إلى ربه، ولم يحصن ماله بالصدقة والزكاة، ولم يتقرب إلى الله وإلى الناس بترك الكبر والغرور والغطرسة، ولهذا كله كانت النتيجة أن ضاعت دنياه، وخسف الله به الأرض، والله على كل شيء قدير، وبعباده خبير بصير[(١)].

٢. الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر.

من الأسلوب المباشر قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى

(١) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٢/ ٨٤٨.

﴿... الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

من الأسلوب غير المباشر قوله تعالى وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦].

وإذا رسخ في قلب المسلم الاعتقاد الذي تقرره هذه الآية الكريمة والآيات الأخرى التي في معناها فلن يفرح فرح أشر وبطر بحصول النعمة ولكن فرح شكر وامتنان واعتراف بالفضل لمن أسداها وهو المولى سبحانه وتعالى، ولن يأسى على فوات أو زوال النعمة أسىً يذهب به كل مذهب، ويجعل الدنيا تضيق عليه بما رحبت، ولكنه سوف يسلم لله ويرضى بما قضاه، ولنفسه العزاء الأكبر.

٣. أسلوب الوعيد.

توعد الله الذين يفرحون بالباطل، فقال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران:١٨٨].

وهناك نوع آخر من الفرح المذموم، وهو أحد العلامات الدالة على النفاق، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٨١].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾)[1].

٤. أسلوب الترهيب.

استخدم القرآن الكريم اسلوب الترهيب للدلالة على الفرح المذموم، وأهله أولئك المعاندون للرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا النوع من الفرح.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر:٨٣].

ويقول سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا)، ٦/ ٤٠، رقم ٤٥٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، ٤/ ٢١٤٢، رقم ٢٧٧٧.

﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣١-٣٢].

وفي هذه الآيات يخبر المولى عز وجل عن المعاندين لرسله، وكيف أنهم أعرضوا عما جاءت به الرسل من الحق فرحين بما عندهم من العلم الذي هو في حقيقته جهل، وبما لديهم من شبهات وأباطيل يعارضون بها دعوة الحق التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام [(١)].

٥. الإخبار بحال الكافرين والمنافقين.

أخبر القرآن الكريم عن فرح الكافرين والمنافقين بما يصيب المؤمنين من مصائب الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة:٥٠].

هذا أسلوب من نوع آخر من كيد المنافقين ومن خبث بواطنهم للإسلام والمسلمين، والمعنى: إن تصبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفرا، أو كان غنيمة، أو كان انقيادا من بعض ملوك الأطراف لك، يسؤهم ذلك، وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، من قبل أي قبل ما وقع وتولوا عن مقام التحدث بذلك، والاجتماع له إلى أهاليهم، وهم فرحون مسرورون [(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٣، ٧/ ١٥٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٦، الموسوعة القرآنية، الإبياري ١٠/ ٢٣

ضوابط الفرح

الأصل في الفرح الإباحة: لقوله صلى الله عليه وسلم (ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم، فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية، فإن الله لم يكن نسيًا، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤])[1].

فالأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل الدليل على التحريم[2].

وأما الضوابط الشرعية في الفرح:

أولًا: ألا يكون الفرح فيه استهزاء بالدين:

الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه ويجعله مرتدًا عن الإسلام[3].

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فبعض المسلمين يطلقون نكتة أو نادرة فيها استهزاء ببعض شعائر الإسلام وفرائضه، أو يتمازح وهو في معصية دون أن يعلم أن ذلك جرمٌ عظيمٌ قد يؤدي به إلى الكفر والعياذ بالله، مثل الاستهزاء ببعض السنن على سبيل المزح، وببعض الأحكام الشرعية كتقصير الثوب وإعفاء اللحية أو الصلاة والصوم وغيرها.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «من أذنب ذنبًا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي»[4].

ثانيًا: أن يكون صادقًا في إفراح الناس ولا يكذب عليهم:

اعتاد بعض الناس ذكر الطرائف الكاذبة بقصد إضحاك الناس. قال رسول صلى الله عليه وسلم: (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له)[5].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا)[6].

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، ٢/ ١٣٧، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٣٧٥.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ٢٢١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/ ٢٧٣..

(٤) انظر: الحلية، أبو نعيم ٤/ ٩٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، ٤/ ٤٥٤، رقم ٤٩٩٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٩، رقم ٧١٣٦.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ١٢٠، رقم ٩٢٢٠.
وحسنه الألباني في التعليقات الحسان ٨/ ٢٢٣.

ولا شك أنهم وقعوا في ذلك بسبب الفراغ وضعف الإيمان والبعد عن ذكر الله تعالى، ومصاحبتهم لجلساء السوء الذين يزينون لهم بعض المحرمات.

عن جابر بن سمرة كنت أجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا، وكان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، فكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم قدم عبادة الله تعالى على الفرح كما ظهر من الحديث.

ثالثًا: ألا يكون في فرحه سخرية واستهزاء بالناس:

السخرية والاستهزاء بالناس من الكبائر، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١].

قال ابن كثير: «المراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم، وهذا حرام، ويعد من صفات المنافقين»[2].

ويقول الطبري: «اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان»[3].

وعن الحسن: (إن المستهزئين بالناس ليفتح لأحدهم باب الجنة فيقال: هلم، فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه)[4].

ولقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السخرية بالمسلمين فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ (بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه)[5].

رابعًا: أن لا يكون في فرحه ترويع للمسلمين:

قال ابن أبي ليلى: «حدثنا أصحاب محمد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، ١/ ٤٦٣، رقم ٦٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٧٦.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٧.

(٤) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ٥/ ٣١٠، رقم ٦٧٥٧.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، ٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.

صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا)[1].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبًا ولا جادًا)[2].

لقوله: صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)[3].

والقاعدة الشرعية: إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام[4].

خامسًا: ألا يكثر من الفرح المباح:

ينبغي ألا يداوم على الفرح؛ لأن الجد سمات المؤمنين، وما الفرح إلا رخصة وفسحة لاستمرار النفس في أداء واجبها، فبعض الناس لا يفرق بين وقت الجد واللعب. فمن الغلط العظيم أن يتخذ الفرح حرفة»[5].

قال تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ [النجم:٦٠].

والمذموم من الضحك ما كان مصحوبًا بصوت ويسمى القهقهة، وذلك لما يترتب عليه من آثار سيئة، كموت القلب وذهاب الهيبة وضياع الوقت.

قال الماوردي: «وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة، مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار»[6].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته. وقال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: إذا ضحك العالم ضحكةً مج من العلم مجةً[7].

وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: مال هذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

«إن الصغيرة الضحك»[8].

سادسًا: ألا يكون الفرح فيه غيبة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم في

(١) أخرجه أبو داود في سننه،كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٤٥٨، رقم ٥٠٠٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٦٨، رقم ٧٦٥٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٤٥٨، رقم ٥٠٠٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٥٧، رقم ٧٥٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤٣٨، رقم ٢٢٧٧٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٤٩٨.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ١١٩.

(٥) إحياء علوم الدي، الغزالي ٣/ ١٢٩.

(٦) أدب الدنيا والدين ص ٣١٣

(٧) المصدر السابق.

(٨) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢١.

تعريف الغيبة (ذكرك أخاك بما يكره)[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢].

وما أروع هذا التمثيل حيث يقول الله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ وحقا من ولغ في العرض فكأنه أكل اللحم من أخيه وهو ميت لا يقدر على رده، وكذلك المغتاب في غيبة أخيه ينهش من عرضه وهو لا يستطيع رده، فهذا أسلوب غاية في التنفير من الغيبة، ثم أتبع ذلك ربنا جل جلاله بقوله: فكرهتموه فقد صور المغتاب بصورة من يحب شيئا، حقه أن يكون في غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ، وزاده أن صوره بصورة الميت، وحقه أن يكون منه أنفر[2].

فالغيبة عادة مرذولة، وصفة مستهجنة، كثيرا ما أودت بالصلات، وأثارت الأحقاد، وشتتت من جمع، وفرقت من شمل، وهي مع هذا عذابها شديد وعقابها أليم، وهي بالفساق أولى فاتقوا الله واجتنبوها وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٩.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٥١٠.

ألسنتهم[3].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك: فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**)[4].

«الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب فهو سماها غيبة يقول: تباح، لكن في الحقيقة هي ليست غيبة هذه: نصيحة، لكن لما كان بعض الناس يرى أنها غيبة تسامح في إطلاق الغيبة عليها وعلى فرض أنها غيبة فإنها مباحة بل واجبة.

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، ٤/ ٦٠٨، رقم ٢٤٠٧.
وحسنه الالباني في صحيح الجامع، ١/ ١٢٤، رقم ٣٥١.

ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك، فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحا لها، وإما بأن يكون فاسقا، أو مغفلا، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلما وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به؛ ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفا بلقب، كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفهم بغير ذلك كان أولى»[1].

سابعًا: ألا يكون الفرح في تبذير للمال:

قال تعالى ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

(١) رياض الصالحين، النووي ص٤٣٢.

وهذا في أمر واجب وهو الإنفاق على ذي القربى والمسكين وابن السبيل فكيف الحال في الأفراح التي ينفق فيها المال على المنكرات.

ثامنًا: ألا يكون الفرح في اختلاط بين الرجال والنساء:

وهذا يفضي إلى من النظر المحرم، والخلوة المحرمة، بالإضافة إلى أنه قد يكون ذريعة لمخالفات شرعية أكبر، والله تعالى قد نهى عن مجرد قرب الزنا ولم يقتصر على تحريم الزنا، بل القربان فقد قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور:٣٠-٣١].

وكذلك يجب على أفراحنا أن تخلو من المعازف لقوله صلى الله عليه وسلم: (ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة)[١].

تاسعًا: ألا يكون الفرح في الميسر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠].

قال صلى الله عليه وسلم (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله)[٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم الخنزير)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، ٧/ ١٠٦، رقم ٥٥٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب اللعب بالنرد، ٢/ ١٢٣٧، رقم ٣٧٦٢. وحسنه الالباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١١٣، رقم ٦٥٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير، ٤/ ١٧٧٠، رقم ٢٢٦٠.

الفرح بين القرآن وعلم النفس

الفرح انفعال فطري محله القلب، يمدح ويذم بحسب تعلقه، لذا اهتم الإسلام به؛ ليجعله فرحًا محمودًا.

إن مفهوم الفرح لم يستطع أحد من علماء النفس، أن يقدموا له تعريفًا جامعًا مانعًا، فعبروا عنه أحيانًا بأنها ضد الشقاوة، أو ضد التعاسة، أو قالوا ضد النحوسة، ولكن اتفقوا بما فيهم فلاسفة المسلمين على أن الفرح هو جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، وزاد المسلمون على أنها تتحقق من خلال اتباع منهج الإسلام الذي يأمر بالسيطرة على الشهوات البدنية ومجاهدة النفس.

١. يرى سقراط أن الفرح يتحقق بالسير في طريق الفضيلة.

٢. وقال أفلاطون الفرح سلامة النفس وليس في سلامة البدن، وهي في فضائل الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

٣. وأما أرسطو فيعتبر الفرح هبة من الله يحصل عليها الإنسان عندما يسير في طريق الفضيلة ويعمل الخير[١].

وأما علماء النفس من المسلمين:

قال ابن سينا اعتقد أن السعيد في الدنيا سيكون سعيدًا في الآخرة، لأن سعادة الدنيا وإن كانت أدنى من الآخرة إلا أنها توصل إليها وتتكون سعادة الإنسان في الدنيا من نوعين من اللذات: لذات حسية مرتبطة بشهوات البدن، ولذات معنوية مرتبطة بحاجات النفس وهي أفضل وأرقى، وعرف الفرح: بأنها البقاء السرمدي في الغبطة الخالدة في جوار من له الخلق والأمر تبارك وتعالى[٢].

دعا الكندي إلى الرضا في كل الأحوال من أجل الفرح، والسرور، والقناعة بأخذ القدر الذي يحتاجه الإنسان من مطالب البدن دون ألم على ما فاته[٣].

رأى ابن مسكويه أن الفرح تتحقق في تحصيل اللذات المادية والمعنوية معًا، وبصحة النفس وصحة الجسم معًا، وقسم الفرح إلى نوعين: أهمهما الفرح الأخلاقية، ويحصل عليها الإنسان عندما يعيش في خير دائم مطلق[٤].

وعرف ابن مسكويه الفرح فقال: هي تمام الخيرات وغاياتها، والتمام: هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شيء آخر[٥].

وقسم أبو حامد الغزالي: الفرح إلى

(١) انظر: تحصيل السعادات، الفارابي ص٤٩.

(٢) انظر: السعادة وتنمية الصحة النفسية، كمال مرسي ١/ ٢٥-٢٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) الموسوعة الفلسفية العربية والاصطلاحات والمفاهيم، د.معن زيادة ٢/ ٤٧٨.

قسمين:

٤. الملذات الحسية أو المادية والمرتبطة بإشباع حاجات الجسم.

٥. الملذات النفسية أو المعنوية: وهي أرقى من الملذات الحسية، ويحصل عليها الإنسان من إشباع حاجاته النفسية والاجتماعية والدينية، ويرى الغزالي أن أسعد الناس في الدنيا أكثرهم معرفة بالله، والفرح الحقيقي عنده هو الفرح الأخروي فهو الفرح الدائم والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل فيه [(١)].

وخلاصة القول في الفرح عند علماء النفس أنه ليس بالأمر الهين، أن نعثر على الفرح فهو أمر داخلي يتأثر بما يدور حوله في الخارج.

فالفرح: هو ذلك الشعور المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة، هذا الشعور يأتي نتيجة الإيمان بالله والرضا عن الله وقضائه وقدره بقناعة وصبر في شعارنا الدائم«إنا لله وإنا إليه راجعون» وبذلك يكون الإنسان في حالة صلح مع خالقه ومع نفسه، ثم مع الناس في طهر ونور وخير وأمل وحلم. لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وأما في القرآن الكريم فقد ذكر السبب الأول في جلب الفرح الحقيقي للإنسان في الدنيا والآخرة.

فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

وقال الألوسي نقلًا عن الراغب: في الفرح هو «معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير ويضادها الشقاوة، وفسر الشقاوة بنكد العيش وسوئه، فالشقي والسعيد هما المتصفان بما ذكر وفسر غير واحد الأول: بمن استحق النار بمقتضى الوعيد، والثاني: من استحق الجنة بموجب الوعد، وهذا هو المتعارف بين الشرعيين، وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام الإنذار والتحذير» [(٢)].

فالشقاوة قوة أسباب البلاء، والفرح: «قوة أسباب النعم، ومعنى الآية ها هنا عند أهل السنة، فمنهم شقي سبقت له الشقاوة، ومنهم سعيد سبقت له الفرح، وقال بعضهم: إن الفرح والشقاء ها هنا في الرزق والحرمان

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٩٧٨-٩٧٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٣٣٥.

وفسر بعضهم: الشقاوة بالعمل السيء والفرح بالعمل الحسن والمأثور الصحيح هو الأول[1].

قال لبيد[2]:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه

ومنهم شقي بالمعيشة قانع

قال سيد قطب «ونشهد الذين سعدوا، نشهدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع»[3].

ويقول السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ «والأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون»[4].

وأما الشعراوي فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: جاء بالاسم المحدد لكل من القسمين شقي وسعيد، لأن الاسم يدل على الثبوت، فالشقاء ثابت لمن نعت بالشقي، والفرح ثابتة لمن نعت بالسعيد[5].

والفرح حقيقة نفسية في القلوب الصافية، وهو فرح الالتقاء على الحق، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم، ومؤازرة الكتاب الكريم له.

موضوعات ذات صلة:

البشرى، البكاء، الحزن، الرضا، السعادة، الغم

(١) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٨-٤٥٩.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٥٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٢٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٦
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٦٨٢.







عناصر الموضوع

المجلد السادس والعشرون

التعريف بفرعون

أولًا: اسمه ونسبه:

لقد اختلف في اسم فرعون اختلافًا كثيرًا، وستعرض لبعض أقوال المفسرين في ذلك، ثم نستعرض النظريات التي تحدثت عن حقيقة فرعون واسمه، لنستخلص أصح الأقوال في ذلك.

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩].

«واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيبي وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد وهذا من أوهامهم وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح»[١].

وقال الرازي: «واختلفوا في فرعون من وجهين، أحدهما: أنهم اختلفوا في اسمه فحكى ابن جريج عن قوم أنهم قالوا: مصعب بن ريان، وقال ابن إسحق: هو الوليد بن مصعب، وذكر وهب بن منبه أن أهل الكتابين قالوا: إن اسم فرعون كان قابوس وكان من القبط، الثاني: قال ابن وهب: إن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى وهذا غير صحيح، إذ كان بين دخول يوسف مصر وبين أن دخلها موسى أكثر من أربعمائة سنة، وقال محمد بن إسحق: هو غير فرعون يوسف وأن فرعون يوسف كان اسمه الريان بن الوليد»[٢].

ولسيد قطب كلامٌ نفيس حيث يقول: «ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفًا من أهداف القصة القرآنية ولا يزيد في دلالتها شيئًا، ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف عليه السلام الذي استقدم أباه وإخوته، وأبوه يعقوب هو إسرائيل، وهؤلاء كانوا ذريته. وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرًا"[٣]. وهذ ما يميل إليه الباحث.

ثانيًا: زمانه ومكانه:

قال ابن عاشور: «جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٠

(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٥٠٥.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٧٧.

يوسف عليه السلام في تربية العزيز طيفار كبير شرط فرعون، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيوة، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرعاة الرحالين والهكسوس في سنة ٣٣٠٠ أو سنة ١٩٠٠ قبل المسيح على خلاف ناشيء عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة ١٧٠٠ ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشرة، فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح، ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى. وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمنا طويلا غير أن الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعا بجهة يقال لها أرض (جاسان) ومكث الإسرائيليون على ذلك نحوا من أربعمائة سنة تغلب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر حتى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة وملك ملوكها جميع البلاد المصرية ونبغ فيهم رمسيس الثاني الملقب بالأكبر في حدود سنة ١٣١١ قبل المسيح، وكان محاربا باسلا وثارت في وجهه الممالك التي أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب، وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة (رعمسيس) ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانا لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبي نسائهم وتسخير كبارهم ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر، أو لأن القبط لما أفرطوا في استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم»[(١)].

ويقول أيضًا: «والأرض: هي أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد؛ لأن ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع؛ لأن فرعون اسم ملك مصر»[(٢)].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٠.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٦٧.

وصف القرآن لفرعون

لقد وصف القرآن الكريم فرعون وصفًا دقيقًا في كثيرٍ من الآيات؛ فقد وصفه بالعلو والاستكبار، والطغيان، والإفساد، والإسراف، والكيد، والإضلال، والغرور، والاستبداد، وفيما يلي بيان ذلك.

أولًا: العلو والاستكبار:

إن فرعون تجبر في أرض مصر وتكبر، وعلا أهل مصر وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودة[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

قال القرطبي: «أي استكبر وتجبر، قاله ابن عباس والسدي وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية وقيل: بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده»[(٢)].

وفي سورة المؤمنون يصفه الله عز وجل بالاستكبار والعلو أيضًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٦].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٤٨.

قال السمعاني: «أي: طالبين للعلو بغير الحق، والاستكبار طلب التكبر، ويقال: عالين، قاهرين لمن تحتهم بالظلم»[(٣)].

وفي سورة يونس قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس:٧٥].

وكان استكبارهم مجلبة للإثم والوزر عليهم كما قال الطبري: «يقول: فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون، وكانوا قومًا مجرمين، يعني: آثمين بربهم؛ بكفرهم بالله»[(٤)].

وفي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

قال المراغي: «فاستكبروا عن الإيمان بها (الآيات التسع) لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته»[(٥)].

وقال السعدي: «فاستكبروا لما رأوا الآيات وكانوا في سابق أمرهم قومًا مجرمين فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال»[(٦)].

(٣) تفسير القرآن ٣/ ٤٧٦.
(٤) جامع البيان ١٥/ ١٥٥.
(٥) تفسير المراغي ٩/ ٤٣.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠١.

وأكد هذا المعنى الزمخشري في تفسيره: فاستكبروا عن قبول الآيات التسع، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها وكانوا قومًا مجرمين كفارًا ذوى آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

قال الرازي: «فاستكبروا أي عن عبادة الله وقوله: في الأرض إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف يستكبر من في الأرض»[2].

ولم يكن استكبارهم عن جهل ولكن كانوا على علم وفهم؛ قال ابن عاشور: «وأومأ قوله تعالى فاستكبروا في الأرض إلى أنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كما قال تعالى ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]»[3].

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٣٦١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٥/ ٥٦.
(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٥٠.

ثانيًا: الطغيان:

ومن صفات فرعون الطغيان؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤].

يقول الطبري: «إنه تجاوز قدره، وتمرد على ربه»[4].

ويقول الزمخشري: «لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح»[5].

قال المراغي: «أي اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى، وادعه إلى عبادتي، وحذره نقمتي، فإنه قد تجاوز قدره، وتمرد على ربه، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وقال: أنا ربكم الأعلى»[6].

وقد ذهب إلى هذا المعنى ابن كثير ومدعمًا كلامه بقول وهب بن منبه فقال: «وقوله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فارا منه هاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى»[7].

(٤) جامع البيان ١٨/ ٢٩٩.
(٥) الكشاف ٣/ ٦٠.
(٦) تفسير المراغي ١٦/ ١٠٥
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٠.

قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإني معك أيدي ونصري، وإني قد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني، فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علي، وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغنيت بما عندي، وحقي إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى»[1].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢﴾ [الفجر: ١٠-١٢].

قال الرازي: «طغوا في البلاد أي عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى: فأكثروا فيها الفساد ضد الصلاح فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد»[2].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ٱلَّذِينَ﴾: عادًا وثمود وفرعون وجنده، ويعني بقوله ﴿طَغَوْا۟﴾: تجاوزوا ما أباحه لهم ربهم، وعتوا على ربهم إلى ما حظره عليهم من الكفر به. وقوله: ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: التي كانوا فيها»[3].

وقد تناول طغيانهم في البلاد جميع أنواع الإثم كما قال الخازن: «الذين طغوا في البلاد يعني عادًا وثمودًا وفرعون عملوا بالمعاصي، وتجبروا، ثم فسر ذلك الطغيان بقوله فأكثروا فيها الفساد يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم»[4].

ومما سبق يتضح أن فرعون تجاوز الحد في الظلم حتى تعدى حده.

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، محمد بن أحمد الملطي ص١٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٥٤.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٤١٠.
(٤) لباب التأويل ٤/ ٤٢٦.

ثالثًا: الإفساد:

وصف الله فرعون وقومه بالفساد والإفساد في كثيرٍ من الآيات؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف:١٠٣].

فلقد حل بهم العذاب نتيجة حتمية لفسادهم في الأرض قال ابن كثير: «وذلك لما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله»[(١)].

وكان لورد تلك الفاصلة القرآنية ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وقعٌ شديد وبلاغة رفيعة، قال البقاعي: «ولما كان للتعميم بعد التخصيص والتفصيل بعد الإجمال من الموقع في النفوس ما لا يخفى، وكان النهي عن الإفساد بالصد عن سبيل الله هو المقصود بالذات لأنه ينهى عن كل فساد، خصه بالذكر إشارة إلى أنه زبدة المراد بعد التعميم»[(٢)].

وقد عد الشوكاني تكذيب الرسل من أشد أنواع الفساد؛ وهذا ما وقع فيه فرعون وقومه، قال الشوكاني: «فانظر كيف كان عاقبة المفسدين أي: المكذبين بالآيات الكافرين بها وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد»[(٣)].

وقال تعالى مخاطبًا فرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩١].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره، معرفًا فرعون قبح صنيعه أيام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرب الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية: الآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مهلٍ، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ[(٤)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

وقد خص الزمخشري الإفساد بالقتل فقال: «وقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٧.
(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٦١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٦٣.
(٤) انظر: جامع البيان ١٥/ ١٩٤.

أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب، لأنه فعل لا طائل تحته[1].

بينما أجمل الطبري كيف كان إفساد فرعون فقال: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبره في الأرض على أهلها، وتكبره على عبادة ربه»[2].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر:١٠-١٢].

وقد تناول طغيانهم في البلاد جميع أنواع الإثم والفساد والإفساد قال الخازن: «ثم فسر ذلك الطغيان بقوله فأكثروا فيها الفساد يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم»[3].

رابعًا: الإسراف:

لقد أسرف فرعون؛ فادعى الربوبية، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ [يونس:٨٣].

وقد عد الواحدي ادعاء الربوبية هو الإسراف حيث قال: «وإنه لمن المسرفين: حيث كان عبدًا فادعى الربوبية»[4].

بينما النسفي فقد أضاف الظلم والكبر لادعائه الروبية فقال: «وإنه لمن المسرفين في الظلم والفساد وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية»[5].

بينما اعتبر الشيخ الشعراوي الإسراف تجاوز الحد بادعاء الألوهية فقال: «والمسرف: هو الذي يتجاوز الحدود، وهو قد تجاوز في إسرافه وادعى الألوهية، وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقال الحق سبحانه أيضًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

وعلا فرعون في الأرض علو طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين، وقال الحق سبحانه على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١].

إذن: فقد كان فرعون مسرفًا أشد الإسراف»[6].

أما الطبري فقد فصل كيف كان إسراف فرعون فقال: «﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وإنه

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٢.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٥١٧.
(٣) لباب التأويل ٤/ ٤٢٦.
(٤) الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ص٥٠٥.
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢/ ٣٦.
(٦) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٥١.

لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[1].

وقال تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١].

قال أبو السعود: «كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقًا لهم بليغًا في الإسراف»[2]، ولقد أسرف فرعون فاجترأ على محارم الله، قال السعدي: المفسدون هم المتجاوزون لحدود الله المتجرئون على محارمه[3].

قال الطبري: «إنه كان جبارا مستعليًا مستكبرًا على ربه، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: من المتجاوزين ما ليس لهم تجاوزه. وإنما يعني جل ثناؤه أنه كان ذا اعتداء في كفره، واستكبار على ربه جل ثناؤه»[4].

قال الزحيلي «إن فرعون كان جبارا عنيدًا، مسرفًا في التمرد والعتو متجاوزًا الحد في الظلم والفساد، شديد البطش والفتك، حتى إنه ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا»[5].

ففرعون في إسرافه تجاوز كل حدود العقل كما قال محمود حجازي: «وإن فرعون لمن المسرفين المتجاوزين حدود العقل والإنسانية، وهكذا كل جبار عتيد»[6].

خامسًا: الكيد:

الكيد هو المكر[7]، وقد كاد فرعون ومكر لموسى كثيرًا؛ فقد أمر هامان ببناء صرحًا له كي يبلغ أبواب السماء فيطلع إلى إله موسى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

قال ابن عاشور: «والمراد بكيده ما أمر به من بناء الصرح والغاية منه»[8].

وقال السمعاني: «أي: وما حيلة فرعون ومكره إلا في هلاك وخسران»[9].

وقد قال الرازي: «وما كيد فرعون إلا في تباب والتباب الهلاك والخسران، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ

(١) جامع البيان ١٥/ ١٦٧.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٦٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧٣.
(٤) جامع البيان ٢٢/ ٣٧.
(٥) التفسير المنير ١١/ ٢٤٤.
(٦) التفسير الواضح ٢/ ٨٤.
(٧) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٣٣.
(٨) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٤٨.
(٩) تفسير القرآن ٥/ ٢١.

﴿١﴾ [المسد: ١]»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٥].

قال الطبري: «وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جوز عن سبيل الحق، وصد عن قصد المحجة، وأخذ على غير هدى»[2].

أما الرازي فقال: «﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل، لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها»[3].

وقال الشوكاني: «في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلا، ويحيق بهم ما يريده الله عز وجل»[4].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

قال الواحدي: «أي: حيله وسحرته»[5].

قال الرازي: «ودخل تحت قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات»[6].

وقد أوضح ابن عاشور كيف جمع فرعون كيده فقال: «ومعنى جمع الكيد: تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء، وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجة خصمه بكل وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومبادأته بما يفت في عضده ويشوش رأيه حتى يذهب منه تدبيره»[7].

وقد فسر الشنقيطي هذا الكيد بنظيره من القرآن فقال: «وقوله تعالى: فجمع كيده الظاهر أن المراد بـ ﴿كَيْدَهُ﴾ ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه، وعليه فالمراد بقوله فجمع كيده هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران: أحدهما تسمية السحر في القرآن كيدًا، كقوله ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩].

وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه: ٦٤].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥١٧.
(٢) جامع البيان ٢١/ ٣٧٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٠٦.
(٤) فتح القدير ٤/ ٥٦٠.
(٥) الوجيز الواحدي ٦٩٨.
(٦) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٦٤.
(٧) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٤٧.

وكيدهم سحرهم، الثاني أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

وقوله ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته.

وقوله في «الشعراء»: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٨].

وقوله في «يونس»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس:٧٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: جاء فرعون بسحرته للميعاد ليغلب نبي الله موسى بسحره في زعمه»[١].

سادسًا: الإضلال:

لقد أعطى الله فرعون وملأه الزينة والأموال، لكنهم استغلوها في إضلال الناس، ولم ينتفعوا بها في مرضات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال سيد قطب: «ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم»[٢]، فكانت العاقبة أن طمس الله على أموالهم، وشد على قلوبهم؛ بل وأصبحوا أئمة يدعون إلى النار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص:٤١].

قال المراغي: «أي وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم أهل العتو والكفر بالله، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقى بفاعلها في النار، وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله ورسوله، بل دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباءوا بجزاءين: جزاء الضلال وجزاء الإضلال»[٣].

ولقد وصفه الله بالإضلال بصريح الآية فقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٩].

قال ابن عاشور: «إن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم

(١) أضواء البيان ٤/ ٣٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٧.
(٣) تفسير المراغي ٢٠/ ٦٢.

من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام»[1].

وإلى هذا ذهب الطبري فقال: «يقول جل ثناؤه: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ يقول: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه»[2].

وقال أبو السعود مبينا المعنى: «أي سلك بهم مسلكًا أداهم إلى الخيبة والخسران في الدين والدنيا معًا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتصل بالعذاب الخالد الأخروي وقوله تعالى ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي ما أرشدهم قط إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رب مضلٍ قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه، وفيه نوع تهكم به في قوله ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فإن نفي الهداية عن شخص مشعرٌ بكونه ممن يتصور منه الهداية في الجملة، وذلك إنما يتصور في حقه بطريق التهكم وحمل الإضلال والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي، وجعلهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله العقل السليم»[3].

سابعًا: الغرور:

سيطر الغرور على قلب فرعون فأضله ضلالًا بعيدًا، واغتر بما آتاه الله من النعم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف:٥١-٥٢].

قال المراغي: «نادى: إني غني كثير المال عظيم الجاه، فلي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان»[4].

وقال الخازن مبينًا غرور فرعون: «أفلا تبصرون أي عظمتي وشدة ملكي»[5].

وقد بين القشيري أن غروره كان سبب هلاكه فقال: «تعزز بملك مصر، وجرى النيل بأمره! وكان في ذلك هلاكه ليعلم أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٧٢.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٢.
(٤) تفسير المراغي ٢٥/ ٩٦.
(٥) لباب التأويل ٤/ ١١١.

من تعزز بشيء من دون الله فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء»[1].

وقد أشار ابن كثير إلى غرور فرعون وعتوه وكفره في مقولته تلك فقال: «يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾»[2].

ولقد وصل الغرور بفرعون أن يدعي الألوهية ويأمر قومه بعبادته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

«فتضمن كلامه نفي إلهية غيره وإثبات إلهية نفسه»[3]، ولقد أمر هامان أن يبني له قصرًا منيفًا ليظهر غروره بادعائه الألوهية كما قال ابن كثير: «فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون»[4].

بل وهدد وتوعد موسى بأن يسجنه أن لم يعبده ويتخذه إلهًا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

قال النسفي: «أي لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل ولو قيل لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر»[5].

ثامنًا: الاستبداد:

إن مقومات استبداد فرعون: ادعاء الربوبية، وأداء الألوهية. أما ادعاء الربوبية كما في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف:٥١]؛ فيدعي لنفسه صفات الربوبية التي وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[البروج:١٢-١٦].

وأما ادعاء الألوهية كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

فيدعي صفة الألوهية التي جاءت في قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٣٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٢٦٠
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٣٨.
(٥) مدارك التنزيل ٢/ ٥٦٠.

﴿دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]؛ فالحاكم المستبد يبدأ فيدعي بأن كل البلد ملكه الشخصي، ويتصرف على هذا الأساس ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ ثم ينتقل إلى التصرف على أساس أن الناس العقلاء ملكه أيضا، تمهيدًا للادعاء الثاني، وهو ادعاء الألوهية، الذي يختص بالعاقل فقط كما في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣].

فالألوهية تتضمن الطاعة الكاملة من الناس لفرعون، بألا يتصرفوا بشيء بقناعاتهم الشخصية دون إذن منه، لذا قال فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:١٢٣].

وأنزل بهم العقوبة بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾ [الأعراف:١٢٤]؛ لا لأنهم آمنوا برب موسى وهارون، وإنما لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، ولو أنهم استأذنوه لكان من الأرجح أن يأذن لهم، لأنهم باستئذانهم له، لا يتحدونه في ألوهيته.

وقد استبد فرعون لدرجة أنه لم يتفرد برأيه فقط بل ألزم قومه أن لا يروا إلا ما يرى، لاسيما في قتل موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

قال الزمخشري: «أي: ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله، يعني لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب وما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الرشاد»[١].

وقد استنكر على السحرة أن يؤمنوا بالله قبل أن يأذن لهم؛ حتى الإيمان بالله لا يفترض إلا أن يكون بإذن منه.

قال تعالى: «﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾ [الأعراف:١٢٣].

قال الواحدي: «أصدقتم موسى من قبل أمري إياكم»[٢].

(١) الكشاف ٤/ ١٦٤.

(٢) الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ص ٤٠٧.

فرعون وموسى عليه السلام

لقصة فرعون مع موسى فصولٌ كثيرة ومحطاتٌ عديدة، وستوقف عند بعض تلك المحطات؛ فالمحطة الأولى هي تربية فرعون لموسى عليه السلام.

أولًا: تربية فرعون لموسى عليه السلام:

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩].

كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه -يعنون بيت المقدس- رجل يكون على وجهه هلاك مصر؛ فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت[1].

ولقد ولد موسى في تلك الظروف، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

فانصاعت لأمر ربها، وكانت النتيجة أن أخذه فرعون ليربيه في قصره تلبية لرغبة زوجته، وقر عين أمه بأن حرم عليه المراضع إلا هي.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه:٤٠].

قال المراغي: «فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لي بعلا وأولادًا ولا أستطيع المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها إلى ما طلبت، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا وجزيل العطايا ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع»[2].

ومما يستنتج من تربية فرعون لموسى:

١. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

---

(١) انظر: جامع البيان ٢/ ٤٤.

(٢) تفسير المراغي ٢٠/ ٤١.

٢. أن الله إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وأتى به شيئا فشيئًا بالتدريج لا دفعة واحدة.

٣. أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها.

٤. أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها، كما لا يقوم لها أمر دنياها.

٥. أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والمخاوف.

٦. أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع.

٧. جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه[1].

ثانيًا: آيات موسى عليه السلام إلى فرعون:

أيد الله موسى بآيات كثيرة، علها تثني فرعون عن كفره وتجعله يؤمن بالله وحده، ولكنه أبى واستكبر وكان من العالين، واتهم موسى بأنه رجلٌ مسحور.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

قال الطبري: «التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات»[2].

وآيات موسى ذكرت كثيرًا في القرآن، وقد اختلف المفسرون في تحديدها اختلافًا كثيرًا، وهناك كلامٌ نفيس للرازي يجمع فيه بين الأقوال جميعًا حيث قال في تبينها:

أحدها: أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحًا.

وثانيها: انقلاب العصا حية.

وثالثها: تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها.

ورابعها: اليد البيضاء.

وخمسة أخر وهي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

والعاشر: شق البحر، وهو قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة:٥٠].

والحادي عشر: الحجر، وهو قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف:١٦٠].

الثاني عشر: إظلال الجبل، وهو قوله

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص٢٢٧.

(٢) جامع البيان ١٧/ ٥٦٤.

تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف:١٧١].

والثالث عشر: إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه.

والرابع عشر والخامس عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

والسادس عشر: الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لأنه بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول إنما يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول: أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما[1].

ثالثًا: دعاء موسى عليه السلام على فرعون:

بعد أن طال السجال بين موسى عليه السلام وفرعون، دعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

فالوارد في كثيرٍ من الآثار أن أستجيب له بعد أربعين عامًا، لا أنه مكث أربعين عامًا يدعوا عليهم.

قال السيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله، وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ في قوله: قال قد أجيبت دعوتكما ـ قال: بعد أربعين سنة»[2].

وقال الزمخشري: «المعنى: إن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته فاستقيما فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٤١٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٨٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٦.

وقال السمرقندي: «قال مقاتل: فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وهكذا روى الضحاك: أن الإجابة ظهرت بعد أربعين سنة، وقال بعضهم: بعد أربعين يومًا، وقال بعضهم: كان هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل وأيس من إيمانهم»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [يونس:٨٩].

قال السمعاني: «أنه كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة، وكذلك كان بين دعاء يعقوب وإجابته أربعون سنة»[2].

وقد بين ابن عاشور كيف كانت استجابة دعوة موسى وهارون على فرعون وقومه فقال: «ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومة دعوة موسى وتنحط غلواؤهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ [الأعراف:١٣٠].

وقال أيضًا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣﴾ [الأعراف:١٣٣]»[3].

ومن هدايات هذه الآيات أن استجابة الدعاء لا يلزم أن يكون فوريًا، وإنما يكون في الوقت الذي تقتضيه حكمة الله، فلا ينبغي للداعي أن يستعجل.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١٢٩.
(٢) تفسير القرآن ٢/ ٤٠١.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢٧٢.

أساليب فرعون في مواجهة دعوة موسى

للطغاة على مر العصور أساليب في مواجهة الحق الذي يزلزل أركان دولهم، ولقد انتهج فرعون مع نبي الله موسى عليه السلام أساليب شتى لمواجهته؛ فقد ادعى الألوهية والربوبية، واتهم موسى اتهامات كاذبة ما أنزل الله بها من سلطان، كالسحر والجنون وادعاء المؤامرة، وفيما يأتي بيان ذلك.

أولًا: دعوى الألوهية:

لقد طغى فرعون وتجبر لدرجة ادعاءه الألوهية؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

ولقد أوضح الرازي أسلوب فرعون في مواجهة دعوة موسى عليه السلام فيقول: «اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه»[(١)].

قال السعدي في معنى قوله هذا: «أي: أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري، لعلمته»[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٥٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦١٦.

لقد نفى علمه بآلهة أخرى ولم ينف وجودها أصلًا، لذلك هدد موسى عليه السلام قائلًا: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

وفي سورة طه يسأل موسى عن ربه قائلًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩].

وفي سورة النازعات ظهر تجبره وطغيانه في ادعائه الربوبية، حيث قال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٥-٢٦].

يقول السمرقندي: «ويقال: الآخرة والأولى. يعني: العقوبة بالكلمة الأولى، والكلمة الأخرى، فأما الأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ما والأخرى قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويقال: قوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كان في الابتداء، حيث أمرهم بعبادة الأصنام، ثم نهاهم عن ذلك، وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره»[(٣)].

ويقول سيد قطب: «فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء،

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣.

وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا! وأمام هذا التطاول الوقح، بعد الطغيان البشع، تحركت القوة الكبرى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[1].

وقد خلد القرآن الكريم قوله ذلك ليبقى لعنة عليه إلى قيام الساعة، ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

ثانيًا: الاتهامات الكاذبة:

منهج الطغاة في كل عصرٍ من العصور، إعراضٌ، ثم تكذيبٌ، فتشهير، فإيذاء، فقتل أو حبس، وقد لجأ فرعون الطاغية لأسلوب الاتهامات الكاذبة؛ والتي تتهم موسى بالكذب، والتشهير به؛ بأنه ساحر أو مجنون.

قال تعالى على لسان فرعون عندما عجزت الحجة أمام دعوة موسى عليه السلام وآياته البينة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ [الإسراء: ١٠١].

فقد كذب فرعون تلك المعجزات الباهرات والآيات البينات، واعتبرها عجائبًا سحرية مكذبًا موسى ومتهمًا له بالسحر؛ قال الطبري: «فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك»[2].

وكلام الذين يكيلون الاتهامات الكاذبة غير متزن فضلًا عن تناقضه؛ فقد اتهم فرعون موسى بالسحر والجنون.

قال تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩﴾ [الذاريات: ٣٨-٣٩].

«قال أهل العلم: هذا تناقض؛ لأن السحر لا يكون إلا بعقل كامل، والمجنون هو الذي لا عقل له»[3].

ولما فشلت الاتهامات الكاذبة التي كالها لموسى انتقل لمرحلة التهديد بالقتل؛ فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

مدعيًا خوفه على دينهم من التبديل؛ وما ذلك إلا للضعف حيلته وحجته؛ قال ابن عاشور: «وقد حمله غروره وقلة تدبره في الأمور على ظن أن ما خالف دينهم يعد فسادًا إذ ليست لهم حجة لدينهم غير الإلف والانتفاع العاجل»[4].

ثالثًا: ادعاء المؤامرة:

كلما زاد البغي والطغيان على الدعاة إلى الله زادت الأتباع، هذه سنة إلهية؛ فبعدما فشلت الاتهامات الكاذبة والتهديد، وفشله بمقارعة موسى عليه السلام بالحجة؛ فهم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٥.
(٢) جامع البيان ١٧/ ٥٦٨.
(٣) تفسير السمعاني ٥/ ٢٦٠.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٢٥.

أهل السحرة، والسحرة هم أحد أركان ملكه، بعد فشله في تحدي السحرة لموسى وانقلابهم عليه، اتهم موسى عليه السلام والسحرة بالمؤامرة عليه، هذا هو ديدن الطغاة وأساليبهم في مواجهة الحق.

وقد خلد الله هذه القصة فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف:١١٣-١٢٣].

قال الزمخشري: «إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر»[1].

وقد فند ابن كثير هذه الشبهة فقال: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل كقوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩].

فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم[2].

(١) الكشاف ٢/ ١٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٨.

دعائم ملك فرعون

لكل طاغية متجبر بطانة سيئة، تزين له الباطل وتنافقه أو تتبعه، رجاء جاهٍ أو منصبٍ، أو عرضٍ زائل، لتكون دعامة من دعائم دولة الكفر والطغيان؛ وقد كانت دعائم دولة فرعون تتمثل في التالي: علية القوم، والسحرة، والجنود، وأصحاب الأموال، تفريق قومه، عملًا بقاعدة: فرق تسد؛ ففرق قومه لتبقى سيادته قائمة، فيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: علية القوم:

أولى دعائم ملك فرعون علية القوم، وهم علية القوم؛ «وعلية القوم: أشرافهم وصفوتهم وأرفعهم قدرًا وأسماهم مكانةً»[(١)].

ولقد أطلق القرآن عليه لفظ الملأ، قال الشعراوي: «الملأ: هم علية القوم، الذين يملأون العيون، ويتصدرون المجالس»[(٢)].

وقال ابن الأثير: «الملأ: أشراف الناس ورؤساؤهم، ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم. وجمعه: أملاء»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].

يقول سيد قطب معلقًا على كلمة الملأ: «لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى»[(٤)].

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١١].

قال ابن كثير: «أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون»[(٥)].

وقال سيد قطب: «وأشار عليه الملأ وقد خدعتهم مكيدته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد»[(٦)].

ثانيًا: السحرة:

لقد كان السحرة بمثابة اليد الضاربة،

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٥٤٨.
(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥٦٣.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٥١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤١.
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٤.

والمعول الذي سيقضي على دعوة موسى من جذورها؛ فبعد تكذيب موسى والتشهير به ونسبه إلى الجنون لم يجد فرعون بدًا من المواجهة الحقيقية مع موسى، لذا فقد استخدم الدعامة الضاربة التي يبني ملكه عليها، ألا وهي السحرة، فجمعهم ثم أتى موسى.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٦٠].

قال الرازي: «فجمع كيده، السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك»[1].

ولكن كيد فرعون في تباب وهلاك، ولقد انقلب السحر على الساحر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

فقد جمع فرعون السحرة وأغدق عليهم الأموال لجمعهم، ووعدهم بالعطايا والمكافآت، ولكن هي سنة الله فلقد انكفأت تلك القوة على صاحبها، وآمنت بالله إيمانًا حقيقيًا.

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٨].

وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين. على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه. فالجماهير حاشدة، فها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته. ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، عندئذ جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٦٤.

بالعذاب والنكال[1].

وقد كان السحرة قد أقسموا جهد أيمانهم أن ينصروه؛ قال الزمخشري: «وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء: لم يقبل منه، ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف»[2].

ثالثًا: الجنود:

الجيم والنون والدال يدل على التجمع والنصرة والجنود: جمع جند وهو العسكر المتجمع للقتال، وأطلق على الأمم التي تجمعت لمقاومة الرسل[3].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف:٥٤-٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

من الآيات السابقة يتضح لنا أن الله قد أغرق قوم فرعون، وأنه أغرق جند فرعون؛ وهذا يعطي دلالة واضحة بأن قوم فرعون كان عبارة عن الملأ والجنود، بمعنى أن كل قوم فرعون غير الملأ هم جنود فرعون.

لـما علم فرعون بخروج بني إسرائيل مع موسى، أرسل في المدائن يجمع الجنود؛ قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٥٣].

يقول سيد قطب: «وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى «التعبئة العامة» وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود، ليدرك موسى وقومه ويفسد عليهم تدبيرهم وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير! وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند»[4].

ولقد استكبر فرعون وعلا في الأرض وزاده في ذلك غروره بقوة جنوده.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٩].

فماذا كانت العاقبة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص:٤٠].

قال الطبري: «فجمعنا فرعون وجنوده

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٨٥.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٧.

من القبط فألقيناهم جميعهم في البحر فغرقناهم فيه»[1].

وقد قضى الله في كتابه أن فرعون وجنوده كانوا خاطئين في حساباتهم وتقديرهم للأمور وأن الغلبة دائمًا حليف المؤمنين الصابرين المحتسبين وأن هلاكهم سيكون على يد من ربوه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

«كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم»[2]، وهذه نهاية طبيعية لكل ظالم مستبد.

رابعًا: أصحاب الأموال:

القوة المستبدة، والسياسة المضللة، وسطوة المال، أساسات أصيلة وأركان ركينة لكل دولة ظلم وطغيان، فقد تجسدت هذه الأركان بوضوح في دولة فرعون الطاغية.

قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فقد تجسدت القوة والاستبداد في فرعون والذي اقترن اسمه بالجنود؛ فذكر فرعون وجنوده تلك القوة التي جعلته يستخف بالشعب ويوهمه أنه من يملك الارض والأنهار وأن الخير مقرون به وبدونه تعم الفوضى والفقر، وهامان تجسيد للإرادة السياسية لفرعون، تجسيد لحكومة المستبد تلك الحكومة التي تسخر كل ثروات الوطن ومقدراته لخدمة رغبات الفرعون فهامان يبني لفرعون البناء الذي اراده ويصوغ شريعة للظلم ويجسد طبقة رجال دولة الطاغوت؛ فالقوة العسكرية والجنود التي يتحكم بها فرعون لا تقدر على إقامة دولة شمولية لولا هامان وأمثاله، وقارون تجسيد طبقة رجال الأموال، طبقة نسيت كافة الاخلاق والمثل وبغت على الناس بأموالها وتسلطت عليهم بقربها من مركز الحكم فكنزت الاموال وادعت أنها جمعتها على علم عندها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون والأثاث والرياش، وأموالا كثيرة الأنواع والمقادير، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة

(١) جامع البيان ١٩/ ٥٨٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٠.

والشهوات البدنية بدون حساب، لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح[1].

قال المراغي: «جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتخضع رقاب الناس»[2].

خامسًا: تفريق قومه:

شأن الطغاة في كل العصور تفريق أقوامهم حتى لا يجتمعوا عليهم فيهددوا سلطانهم، فالقاعدة عندهم هي: فرق تسد، وها هو فرعون يجسد تلك القاعدة واقعًا حقيقيًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:٤].

قال الطبري: «أي فرقًا يذبح طائفة منهم، ويستحيي طائفة، ويعذب طائفة، ويستعبد طائفة»[3].

قال ابن عاشور: إن فرعون جعل أهل المملكة شيعًا وفرقهم أقسامًا وجعل منهم شيعًا مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينهما التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين، وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فتنة، ولقد كان يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشئوا فيها[4].

وقد بدىء بالحديث عن فرعون، فكشف عن شخصه الذي يكشف عن إنسان يلبس ثوب الجبروت والطغيان؛ فقد علا في الأرض، وجعل الناس شيعًا، وهم أمة واحدة، من طينة واحدة؛ فهو بعلوه واستكباره قد انعزل عن الناس، فكان رأسًا، وكان الناس جميعًا أرجلًا، كان سيدًا، وأصبح الناس كلهم في سلطانه عبيدًا، كان إلهًا، وصار الناس له مألوهين، ثم إنه بعمله هذا قد صنف الناس أصنافًا، ورتبهم طبقات، وبذلك تسلطت كل طبقة على من

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/٣٨٦.
(٢) تفسير المراغي ١١/١٤٨.
(٣) جامع البيان ١٩/٥١٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/٦٨.

هي تحتها وبذلك أغرى الناس بالناس، وشغل بعضهم ببعض[1].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٠/ ٣٠٩.

امرأة فرعون

امرأة فرعون: اسمها آسيا بنت مزاحم، وهي زوجة فرعون[2]، مدحها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[3].

أولًا: محبتها لموسى عليه السلام:

لقد قذف الله تعالى حب موسى منذ طفولته في قلب من يراه، لاسيما امرأة فرعون، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

قال الطبري: «فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنته وغذته وربته، وإلى فرعون، حتى كف عنه عاديته وشره، وقد قيل: إنما قيل: وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»[4].

ولما ألقته أمه في اليم والتقطه آل فرعون وأتوا به إلى زوجته، تحركت محبتها تجاهه، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٩٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل عائشة رضي الله عنها، رقم ٣٧٦٩، ٥/ ٢٩.
(٤) جامع البيان ١٨/ ٣٠٣.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨﴾ [القصص:٨-٩].

قال ابن كثير: «فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها»[(١)].

ثانيًا: ثباتها على الإيمان:

كانت تعيش في أعظم القصور وأفخمها، وقد كان قصرها مليئًا بالجواري والعبيد والخدم فلقد كانت حياتها مترفة منعمة.

ولما دعا موسى عليه السلام إلى توحيد الله تعالى آمنت به وصدقته، ولكنها في البداية أخفت ذلك خشية فرعون وما لبثت حتى أشهرت إسلامها واتباعها لدين موسى عليه السلام، وجن جنون الفرعون لسماعه هذا الأمر المروع بالنسبة له، وحاول عبثًا ردها عن إسلامها وأن تعود كما كانت في السابق.

فتارة يحاول إقناعها بعدم مصداقية ما يدعو له موسى عليه السلام وتارة يرهبها بما قد يحل بها من جراء اتباعها لموسى عليه السلام ولكنها كانت ثابتة على الحق ولم يزحزحها فرعون في دينها وإيمانها مقدار ذرة[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ⑪﴾ [الفجر:١٠-١١].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في قوله عز وجل: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ قال: (وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحًى عظيمًا حتى ماتت)[(٣)].

قال السمعاني: وهي آسية بنت مزاحم، وكانت آمنت بالله وبموسى عليه السلام سرا ثم أظهرت، فعذبها فرعون وعاقبها، وقد وتدها بأربعة أوتاد من حديد، فصبرت على ذلك، فأظهرت حينئذ آسية إيمانها[(٤)].

ولقد خلد الله ذكرها وجعلها مثلًا للثبات والإيمان إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪﴾ [التحريم:١١].

قال سيد قطب: «وإفراد امرأة فرعون

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٢٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٣.

(٣) أخرجه الحاكم، في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والفجر، رقم ٣٩٢٩، ٢/ ٥٦٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن ٥/ ٤٧٩.

بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة»[1].

وقال أبو السعود: «أي جعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أن وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله وهي في أعلى غرف الجنة»[2].

فلقد عذبها فرعون عذابًا شديدًا، لكنها استعانت بالله طالبة منه ثلاثة أمور:

أولاها: أن يبني لها بيتًا في الجنة، وقد أراها الله بيتها في الجنة قبل موتها تحت العذاب.

وثانيها: أن ينجيها من أعمال فرعون الوثنية الخبيثة[3].

وثالثها: أن ينجيها من القوم الظالمين، قوم فرعون، وظلمهم هو شركهم بالله؛ فقد دعت بأن ينجيها الله من شركهم[4].

قال ابن القيم: «فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة فإن الجار قبل الدار»[5].

وهذا يدل دلالة واضحة على ثبات إيمانها وصدقها، قال المراغي: «وفى هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث»[6].

وقال ابن عاشور: «فكانت امرأة فرعون مثلا لمتانة إيمان المؤمنين»[7].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٢.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٧٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ١٦٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٧.
(٥) الفوائد ١٩٧.
(٦) تفسير المراغي ٢٨/ ١٦٩.
(٧) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧٦.

مؤمن آل فرعون

لقد قيض الله لموسى عليه السلام رجلًا من آل فرعون يدافع عنه، لتسكين الفتنة وإزالة الشر، ذلك الرجل الذي حمل هم الدعوة إلى الله، متبعا ومقتديا بموسى وهارون، وفيما يلي تفصيل قصته.

أولًا: التعريف به:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر:٢٨].

قال الزمخشري: «كان قبطيًا ابن عم لفرعون: آمن بموسى سرًا وقيل كان إسرائيليًا ومن آل فرعون صفة لرجل، أو صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه: سمعان أو حبيب، وقيل: خربيل، أو حزبيل، والظاهر: أنه كان من آل فرعون»[1].

وقيل: هو ذلك الرجل الذي حذر موسى من المؤامرة في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].

قال السمعاني: «يقال: كان اسمه شمعون، ويقال: شمعان، وقيل: هو حزقيل مؤمن من آل فرعون»[2].

قال القشيري: ومن جعله إسرائيليًا ففيه بعد؛ لأنه يقال: كتمه أمر كذا، ولا يقال: كتم منه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

وأيضًا ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول، يعني: كونه تكلم بهذا الكلام أمام فرعون، وجهر بكلمة الحق ونصر موسى نصرًا مؤزرًا، ودعا الناس إلى الإيمان بالله عز وجل، وخوف فرعون وقومه من أيام الأحزاب التي هلك فيها عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، لو كان من قوم من بني إسرائيل قوم موسى لما كان يحتمل منه فرعون هذا الكلام فهو من قوم فرعون كما تدل الآية[3].

وخلاصة الأمر أن هذا الرجل قد سماه الله مؤمنًا، وقد حمل رسالة للدفاع عن نبي الله موسى ودعوته؛ فقد خلد الله ذكره إلى يوم القيامة، دون النظر لاسمه أيًا كان.

ثانيًا: نهيه عن قتل موسى عليه السلام:

لقد كانت المهمة الأساسية لهذا الرجل المؤمن الصادق أن يوقف جريمة نكراء، ألا وهي قتل نبي الله موسى، فلقد أفصح عن إيمانه بموسى عليه السلام، معرضًا نفسه للقتل والإيذاء، متحديًا جبروت فرعون قائلًا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

(١) الكشاف ٤/ ١٦٢.
(٢) تفسير القرآن ٤/ ١٢٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٠.

﴿رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

ولم يكتم هذا الرجل المؤمن إيمانه خوفًا؛ لذلك أظهر إيمانه في أحرج الأوقات، عندما قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فعند ذلك أظهر هذا الرجل المؤمن إيمانه، فلو كان يكتم إيمانه خوفًا من فرعون لكان أجدر به أن يستمر على كتم إيمانه، وقد وصل الحال مع فرعون إلى أنه هدد بقتل موسى، وقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

والحق أنه كان لهذه الكلمة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ تأثير عظيم في نفس فرعون.

وقد كررها أبو بكر في محاولة عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج البخاري عن عروة بن الزبير قال: (قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟)[1][2].

ثالثًا: تحذيره لفرعون وقومه من عذاب الله في الدنيا:

لقد كان ناصحًا أمينًا حكيمًا لا يخاف في الله لومة لائم؛ فبدأ بتذكيرهم نعم الله عليهم، ثم خوفهم بحال الأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٢٩-٣١].

يذكرهم بأنهم الآن ظاهرون في الأرض، وهذا الظهور ظهور وقتي، ويذكر أيضًا بأن الدولة التي تحارب الدين يؤذن بزوالها، قال ابن كثير: يحذرهم أن يسلموا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدولة للدين إلا سلبوا ملكهم، فأي دولة تحارب شرع الله لابد أن تزول وأن تذل بعد عز[3].

ولقد حذر هذا الرجل المؤمن الصالح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم ٣٦٧٨، ٥/ ١٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٠.

قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فبدأ بتخويف العذاب الدنيوي، فقال: يا قومي، إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثلما أصاب الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوا رسلهم من الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حل بهم بأس الله، ولم يجدوا لهم ناصرا ينصرهم، ولا عاصما يحميهم، فقوله: مثل دأب، أي مثل حالهم في العذاب، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب[1].

رابعًا: تحذيره لفرعون وقومه من عذاب يوم القيامة:

أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حل مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بأن خوفهم وأنذرهم عذاب الآخرة عاطفًا جملته على جملة عذاب الدنيا[2].

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢-٣٣].

في ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة؛ فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام. وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار. وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3].

خامسًا: دعوته لقومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٣٦.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٨٠.

﴿ٱلْفَقْرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر:٣٨-٤٤].

قال الزمخشري: «قال أهدكم سبيل الرشاد فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم لدنيا وتصغير شأنها، لأن الإخلاد إليها هو أصل الشر كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد»[(١)].

وقد أجمل المراغي قول الرجل المؤمن لقومه فقال: «اعلم أن هذا المؤمن لما رأى تمادى قومه في تمردهم وطغيانهم أعاد إليهم النصح مرة أخرى، فدعاهم أولًا إلى قبول هذا الدين الذي هو سبيل الخير والرشاد، ثم بين لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة، وأنها هي الدار التي لا زوال لها، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذي يوجب النجاة والدخول في الجنات، وهم يدعونه إلى الكفر الذي يوجب الدخول في النار، ثم أردف هذا بيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة، فلا فائدة في عبادتها، ومرد الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء، وهو الذي يجازى كل نفس بما كسبت، وأن المسرفين في المعاصي هم أصحاب النار ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله وتفويض أمره إلى الله الذي يدفع عنه كل سوء يراد به»[(٢)].

سادسًا: عاقبة أمره:

لقد كانت العاقبة للمتقين في هذه القصة، كما هي العاقبة دائمًا، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر:٤٥].

وكانت نهاية مؤمن فرعون تختلف عن نهاية مؤمن آل يس، فمؤمن آل يس قتلوه، ورجموه بالحجارة كما تهددوا الرسل، وانتقل من دار البلاء إلى رحمة الله عز وجل، ولما عاين الكرامة: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وأما مؤمن آل فرعون﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾؛ فالمؤمن دائمًا رابح

(١) الكشاف ٤/ ١٦٨.

(٢) تفسير المراغي ٢٤/ ٧٤.

سواء قتل فانتقل إلى كرامة الله ورحمته وما عند الله خير، أو انتصر في الدنيا فوقاه الله سيئات ما مكروا.

فمن يعمل مع الله عز وجل، ويتاجر معه لا يمكن أن يخسر بحال من الأحوال، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝٢٩﴾ [فاطر:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾ [النساء:٧٤].

فالمؤمن رابح في كل الأحوال سواء انتصر أو استشهد، بخلاف الكافرين والمكذبين، الذين يحاربون شرع الله عز وجل، هم في خسارة وبوار في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال:٣٦].

فتجارتهم خاسرة في الدنيا والآخرة.

قال السمعاني: اختلف القول في نجاته، منهم من قال: نجا حين نجا موسى وبنو إسرائيل، وذلك عند مجاوزة البحر، والقول الثاني: أن مؤمن آل فرعون لما قال هذه الأقوال، ونصح هذه النصيحة طلبه فرعون ليقتله فهرب، فبعث في طلبه جماعة، فوجدوه في جبل يصلي وحوله السباع يحرسونه ففزعوا ورجعوا[1].

(١) تفسير السمعاني ٥/ ٢٣.

العقوبات الالهية لفرعون

تعرض فرعون وقومه جراء كفره وادعائه الربوبية والالوهية، لأنواعٍ شتى من العقاب؛ فهناك العقاب الدنيوي، كالقحط والجدب، ونقص الثمرات، والموت غرقًا، وهناك العقاب البرزخي المتمثل في عرضه وقومه على النار غدوًا وعشيًا، ثم العذاب الأخروي، ألا وهو العذاب الشديد في نار جهنم، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: العقوبات في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٦].

ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالسنين، أي بالجدب سنة بعد سنة، والقحط، يقال منه: «أسنت القوم»، إذا أجدبوا، ونقص من الثمرات، واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل لعلهم يذكرون، عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة[(١)].

قال الزمخشري: «أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم»[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

أي: فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصائب والنكبات، وهي آيات بينات على صدق رسالة موسى، إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلًا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٥.
(٢) الكشاف ٢/ ١٤٤.

وصحة رسالته.

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسًا وفي سورة الإسراء تسعًا وهي:

١. الطوفان: فقد نزلت عليهم أمطار أغرقت أرضهم وأتلفت زرعهم وثمارهم.

٢. الجراد: وقد أكل الأخضر واليابس.

٣. القمل: وقد امتلأت بها أجسادهم وملابسهم.

٤. الضفادع: وقد امتلأت بها مياههم وأوانيهم وفراشهم وأسرتهم.

٥. الدم: فقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم[1].

ثم كان الانتقام بالغرق؛ قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٦].

قال الشعراوي: «يوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم، وفي مقومات حياتهم، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا؛ لأنه لا فائدة منهم؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم، لا عن جبروت قدرة، بل عن عدالة تقدير؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم»[2].

ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق، فقد ذكر على هيئة الإيجاز، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل.

ثانيًا: العقوبات في القبر:

قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

«ومعنى عرضهم على النار أن أرواحهم تشاهد المواضع التي أعدت لها في جهنم، وقوله: غدوًا وعشيًا كناية عن الدوام لأن الزمان لا يخلو عن هذين الوقتين»[3].

قال الجزائري: «إخبار بأن أرواح آل فرعون تعرض في البرزخ على النار غدوًا وعشيًا وذلك بأن تكون في أجواف طير سود على خلاف أرواح المؤمنين فإنها تكون في أجواف طير خضر ترعى في الجنة. إلى يوم القيامة»[4].

والتحقيق أن فرعون يعذب هو وقومه بعد موتهم وقبل قيام الساعة، قال القرطبي: «والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ»[5].

وقال الزحيلي: «إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحًا

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٣.
(٢) الخواطر ٧/ ٤٣٢٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٩.
(٤) أيسر التفاسير ٤/ ٥٣٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣١٨.

ومساء إلى قيام الساعة»[1].

وقد أخرج البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)[2].

ثالثًا: العقوبات في الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: ٤٥].

قال الشنقيطي: «وحاق بآل فرعون سوء العذاب معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجيا في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ»[3].

لقد انهت الآيات قصة فرعون بفاصلة تناسب نهايته البغيضة.

قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

قال ابن عاشور: «هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد، أي يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وعلم من عذاب آل فرعون أن فرعون داخل في ذلك العذاب بدلالة الفحوى»[4].

ويقول الزحيلي: «ثم أوضح الله تعالى ذلك العذاب السيء، فقال: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة، أدخلوا آل فرعون أشد العذاب أي إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحًا ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ويقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون في جهنم، حيث يكون العذاب فيها أشد ألمًا وأعظم نكالًا»[5].

ويجوز أن يعذب فرعون وقومه في المكان الذي يعذب به المنافقين كما قال الأخفش: «قال ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقال ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيجوز أن يكون آل فرعون أدخلوا مع المنافقين في الدرك الأسفل وهو أشد العذاب»[6].

ويؤكد الرازي هذا المعنى نقلًا عن ابن الأنباري فيقول: «إنه تعالى قال في صفة

(١) التفسير المنير ٢٤/ ١٣١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم١٣٧٩، ٢/ ٩٩.
(٣) أضواء البيان ٦/ ٣٨٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٥٩.
(٥) التفسير المنير ٢٤/ ١٣١.
(٦) معاني القرآن ٢/ ٥٠٢.

المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال في آل فرعون ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فأيهما أشد عذابًا، المنافقون أم آل فرعون؟ وأجاب بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون في الدرك الأسفل، وقد اجتمع فيه الفريقان»[1].

الدروس المستفادة من قصة فرعون

لقد اشتملت قصة فرعون مع موسى على هداياتٍ جمة، نقتطف بعضًا منها كما يلي:.

- من كان مع الله فلن يضره ضعفه، ومن لم يكن مع الله فلن تنفعه قوته، مفارقة عجيبة في هاتين الآيتين: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص:٤٠]؛ فالأولى يلقى موسى في اليم وهو الطفل الضعيف والذي لا حول له ولا قوة فينجو، بينما في الثانية فرعون وجنوده وطواغيته يلقون في اليم رغم قوتهم وجبروتهم فيهلكون.
- إن قصة موسى ونجاته من كيد عدوه فرعون وهو حملًا في بطن أمه، ثم طفلًا وشابًا ورجلًا قبل أن يكون رسولًا، لأعظم آية على حفظ الله لأوليائه ودفاعه عنهم ونصره لهم.
- إذا توجهت عناية الله إلى أمرٍ غير ذي قيمة جعلته آية ومعجزة؛ فقد توجهت إلى عصا موسى؛ فأصبحت معجزة

---

(١) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٥١.

خالدة بانقلابها إلى حية تسعى، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه:٢٠].

- وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، قال تعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:٦٠].
- وضرب بها البحر فانفلق شقين، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء:٦٣].
- المؤمن الصادق يؤيده الله بأمور لا تخطر على باله، وكلما زاد في الصدق مع الله والإخلاص له أتاه تأييد الله ونصره وفرجه من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء:٦٢].
- أهمية صفتي الأمانة والقوة، فبهما تصلح الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص:٢٦].
- صفة الحذر من صفات أهل الإيمان والعقل والحكمة، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].
- والخوف هنا خوف الحذر وليس خوف الجبن.
- نصرة المظلوم واجبة، كما في موقف الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يحذر موسى، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص:٢٠].
- وموقف مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].
- الظلم سبب زوال النعم وحلول النقم، كما بين الله في سبب هلاك آل فرعون، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص:٤٠].
- دخول المعركة من أجل عرض قليل من الدنيا الفانية عنوانٌ للفشل وإعلان للهزيمة الساحقة، كما هو حال السحرة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾ [الأعراف:١١٣].
- فكانت عاقبتهم الغلبة، قال تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾ [الأعراف:١١٩].
- أهمية اللين والحكمة والهدوء في الدعوة والإقناع والحوار وحل

المشاكل، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]. وقد فعلا عليهما الصلاة والسلام.

- إن الفصاحة والإعراب من دواعي قبول قول الداعي، قال تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤]؛ فقد كان هارون أفصح من موسى، وكان موسى هو الرسول ويساعده هارون النبي.

- العلو في الأرض له نهاية مؤلمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤].

- هذا الذي جعل فرعون ينتهي سلطانه، فالعلو في الأرض، من أعظم الذنوب عند الله.

- الإمامة لا تنال إلا بالصبر واليقين؛ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤].

- إن الدعاء وحده دون العمل لا يكفي لجلب نصرة الله؛ فبني إسرائيل دعوا الله فترة طويلة دون أن يرتفع الظلم عنهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٥-٨٦].

- ولـما أمرهم موسى بالتغيير وأطاعوه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧].

- ثم كان دعاء موسى بعد التغير، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

- فكانت النتيجة، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩].

- بيان حسن تدبير الله تعالى في منع موسى من سائر المرضعات حتى يرده إلى أمه، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص:١٢].

- التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها، فإن من زينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ

فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧].

- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة؛ إذ الأولى زائلة والآخرة باقية واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء، قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر: ٣٩].
- مشروعية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في دار الآخرة من سعادة وشقاء، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠].
- إثبات عذاب القبر ونعيمه، إذ آل فرعون تعرض أرواحهم على النار صباح ومساء، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٦].
- يشترك الأنبياء في أمور، وهي تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وإعراض أقوامهم عنهم، واتهامهم بالكذب والتمويه والسحر، والتهديد بالطرد والتشريد أو القتل والتعذيب، ولكن النصر في النهاية للأنبياء والمؤمنين.
- تحقق نصر الله تعالى لموسى عليه السلام، وأحبط مكائد فرعون وقومه، وجعل مكرهم في خسران وضياع.
- لقد كان دفاع هذا الرجل المؤمن الصالح من آل فرعون في مجلس فرعون وسلطانه في غاية القوة والجرأة والعقل والمنطق.
- كان مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه من أشد الناس إخلاصًا لهم وحبًا وحرصًا على إنقاذهم من ورطة الكفر، والدخول في ساحة الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له.
- لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن يأتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.
- إن الله تعالى لا يهدي أبدًا إلى الحق أهل الإسراف في المعاصي والكذب، وإنه تعالى أعطى موسى الآيات المعجزات الباهرة، ومن أيده الله بذلك لا يكون مسرفًا كذابًا، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين.
- إن من المستغرب حقا أن يخشى أصحاب السلطان والقهر المعتمدين على الجند أو الجيش أو العسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة، من

الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الذين ليس لهم إلا البيان القوي، والحجة الهادفة، والكلمة المؤثرة، وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة وأثبت منها وأنفذ، لذا تهتز العروش بصوت الحق، ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقوياء، وقوة الشجعان، فهذا فرعون الطاغية ملك مصر يحذر رجلا عاديًا هو موسى عليه السلام لا سند له من قوة مادية أو سلاح أو عسكر.

- لقد كانت الكلمات التي ختم بها مؤمن آل فرعون حججه وبراهينه دستور الحق، وسنة الله، وسبيل إقامة العدل، وأساس الحساب في الدار الآخرة.
- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨]. إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، أو إلى أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الألوهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يدمره ويهدم بنيانه.
- قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]. يعني أن تدمير الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل، فكذبوهم وكفروا بهم، كان عدلًا، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء.
- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر:٣٣]. تنبيه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم بعد أن أكد التهديد بقوله: ما لكم من الله من عاصم.
- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤]. كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، أي مثل ذلك الضلال في الآباء والأجداد يضل الله من هو مشرك، شاك في وحدانية الله تعالى[(١)].

موضوعات ذات صلة:

الاستدراج، بنو إسرائيل، موسى

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٨.



عناصر الموضوع

مفهوم الفساد

أولًا: المعنى اللغوي:

«الفاء والسين والدال كلمة واحدة، فسد الشيء يفسد فسادًا وفسودًا وهو فاسد وفسيد»[(١)]، وفسد: كنصر وعقد وكرم، ضد صلح فهو فاسدٌ، والفساد: أخذ المال ظلمًا. والمفسدة: ضد المصلحة[(٢)].

والفساد: «خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الفساد في الاصطلاح خلقٌ كثيرون، ولكن هذا البحث سيتناول هذا المصطلح بما يتفق مع طبيعته القرآنية، حيث جاء في تعريفه الآتي:

١-تعريف الجرجاني للفساد بأنه: «زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة»[(٤)].

٢-تعريف الشيخ محمد رواس قلعه جي بأنه: «إخراج الشئ عن أن يكون منتفعًا به منفعة مطلوبة منه عادة»[(٥)].

وبالنظر إلى التعريفين السابقين يتبين أن التعريف الثاني أكثر وضوحًا وانسجامًا مع الدراسة القرآنية، خاصة أنه يشمل كل ما من شأنه تخريب وإفساد، وأيضًا يتفق مع أصل الفساد لغةً.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٧٤٨.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٠٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٩.
(٤) التعريفات ص١٦٦.
(٥) معجم لغة الفقهاء ١/ ٤١.



الفساد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فسد) في القرآن الكريم (٥٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]
الفعل المضارع	١٤	﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء:١٥٢]
المصدر	١١	﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣]
اسم الفاعل	٢١	﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١٢]

وورد الفساد في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: تغير الشيء عما كان عليه من الصلاح، وقد يقال في الشيء مع قيام ذاته، ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال بالكلية؛ فيشمل الخراب والهلاك والقتل وغير ذلك من المعاني التي تندرج تحت معنى الفساد. ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٨-٥١٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الفاء ص٨٧٦-٨٧٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٦١-٣٦٢، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٦٩-٤٧٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلم:

الظلم لغةً:

الظلمة: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه[(١)].

الظلم اصطلاحًا:

مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير[(٢)].

الصلة بين الظلم والفساد:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي يتبين أن الفساد أعم وأشمل من الظلم؛ إذ إن الظلم هو مجاوزة الحد فقط، والفساد هو خروج عن الاعتدال.

٢ الفسق:

الفسق لغة:

تعريف الفسق لغةً: (فسق: الفسق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق، وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه. وفسق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته)[(٣)]

الفسق اصطلاحًا:

(العصيان وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته، وعن طريق الحق. ورجل فاسق: أي عصى وجاوز حدود الشرع)[(٤)].

الصلة بين الفسق والفساد:

الفسق هو خروج عن حجر الشرع، والفساد هو خروج عن أي اعتدال، وعلى هذا فإن الفسق أعم من الكفر، لكن الفساد أعم منه.

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، ١٠/ ٣٠٨.
(٤) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه، عبدالله الأثري ص ٢٤٠.



٣ الطغيان:

الطغيان لغةً:

«تجاوز الحد في العصيان»[١].

الطغيان اصطلاحًا:

قال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[٢].

الصلة بين الطغيان والفساد:

الفساد أعم وأشمل؛ إذ إنه خروج عن الاعتدال، والطغيان هو تجاوز للحدود في العصيان.

٤ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[٣].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، سواء تجاوزه حقيقة أم لم يتجاوزه[٤].

الصلة بين البغي والفساد:

الفساد أعم وأشمل؛ إذ إن البغي قد لا يقتضي فعلًا، إنما هو طلب، والفساد هو كل خروج عن الاعتدال سواء أكان قلبًا أو قولًا أو فعلًا.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٤٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٧.

مجالات الفساد ومظاهره

تعددت مجالات الفساد كما عرضها القرآن الكريم، وسنبينها فيما يأتي:

أولًا: الفساد في مجال العقائد:

١ . الشرك.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية: الشرك وهو الذ ي يترتب عليه فساد نظام الحياة الكونية والبشرية، وهو القائم على عبادة العباد بدلًا من عبادة رب العباد.

ومما ذكره القرآن الكريم في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢].

أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها ملكًا لله وعبادًا له لفسدت السماوات والأرض واختل نظامها الذي خلقتا به. وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين؛ إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي: أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له؛ ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك ـ تملكه وما ملك. وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

والآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزمر: ٣٨].

فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع؛ إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق؛ إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

والفساد المترتب على الشرك: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا متسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيها. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح.

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفًا بصفات الإلهية المعروفة آثارها،

وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف. وفرع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يصفونه به من وجود الشريك[1].

وهذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله، إلا أن يكون هناك إله واحد، يدبر أمره، وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عند تتعدد الآلهة، عندما يتعبد الناس الناس، عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته، وأن له فيهم حق التشريع لذاته، وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته، والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به، وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد.

٢. النفاق.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية النفاق:

فأهل النفاق سبب كل بلية أصيبت بها الأمة، وسبب تسليط العدو عليها، بل هم العدو الحقيقي، فهم الذين يكشفون أسرار الأمة لعدوهم، وهم الذين يدلون العدو على مواضع الضعف، وهم الذين يتربصون بالأمة الدوائر، ويبطئونها عن الجهاد، ويوالون الكفار حتى حدث بسبب ذلك فساد كبير أصاب الأرض وما عليها.

ومما ذكره القرآن الكريم في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١١-١٢].

فأهل النفاق: مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملًا إلا بالتصديق به، والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، وبمالتتهم الكفار على المسلمين، بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم؛ مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم.

وفي الآيات: «محاورة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المحاورة انقطعت بين الفريقين ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربعة أمور:

أحدها: تكذيبهم.

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٣٣.

والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: أنهم أولى بالفساد.

والرابع: نفي الشعور عنهم بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع ثم نفى العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل، أن يكون الرجل مفسدًا، ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفى الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الأيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا»[1].

والعلاقة بين الفساد والنفاق: أن النفاق أدى إلى فساد آلات الإدراك عند المنافقين، والتي بدورها أدت إلى اختلال موازين الحكم على الأشياء.

وفي هذا المعنى قال سيد قطب رحمه الله: «والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم يصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان، يقولونها؛ لأن الموازين مختلة في أيديهم، وإذا اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية»[2].

٣. موالاة غير المؤمنين.

أمر عز وجل المؤمنين بولاية بعضهم بعضًا، وإلا حدثت الفتنة والفساد الكبير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، ٤/ ٩٤٢.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨.

[٧٢-٧٣].

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، ثم قال: إن لم تجانبوا المشركين وتولوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس، أي: محنة بالحرب، وما يتبعها من الغارات والجلاء والأسر والفساد الكبير الذي يترتب عليه من الشر مالا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم إقامة كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض؛ لأنهم بهذه الولاية يستطيعون أن يواجهوا المجتمع الجاهلي الموالي بعضهم بعضًا.

«فإن لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضهم لبعض، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي؛ لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفرادًا، وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده.

ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيدًا للعباد مرة أخرى وهو أفسد الفساد. ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير، والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة، يتحملون أمام الله -فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها- تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة هذا الفساد الكبير»[(١)].

ومن يقف على تاريخ الدول الإسلامية التي سقطت وبادت، والتي ضعفت بعد قوة يرى أن السبب الأعظم لفساد أمرها ترك ولاية المؤمنين أو استبدالها بولاية غير المؤمنين.

فالمؤمن لا يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله، وما أحوج ناسًا ممن يدعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض، أن يتدبروا هذا القرآن، فالحمية للدين لتكبت في أول الأمر عمدًا، ثم تهمد ثم تخمد، ثم تموت.

ثانيًا: الفساد في مجال العبادات:

١ . عبادة غير الله.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٦.

﴿لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥].

«إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد، والعبودية لإله واحد، وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس. إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها فتتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة، وشهوات البشر الصغيرة.

إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد -من دون الله- وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده -عقيدة وعبادة وشريعة- وما تحرر الإنسان قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة»[1].

٢. مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد أرسل الله الرسل؛ ليطاعوا فيما أمروا ونهوا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٦٤].

وأقسم سبحانه وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا يتحقق إيمان العباد حتى يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياته، ويتحاكموا إلى سنته بعد مماته، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمه، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًا.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

ومما ذكره القرآن في معرض الحديث عن أسباب الفساد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «من تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٧٥٣.

الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين»[(١)].

٣. الحكم بغير ما أنزل الله.

بين الله في كتابه الكريم وجود صنف من البشر إذا صار حاكمًا أفسد في الأرض بالظلم والقتل وفعل المعاصي والرشا وقطع الأرحام العامة والخاصة.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢].

اختلف في معنى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾.

فقيل: «هو من الولاية: قال أبو العالية رحمه الله: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكامًا أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا. وقال الكلبي رحمه الله: أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج رحمه الله: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام. وقال كعب رحمه الله: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضًا.

وقيل: من الإعراض عن الشيء: قال قتادة رحمه الله: أي: فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم». وقيل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم»[(٢)].

والمعنيان من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وللجمع بينهما نقول: إن القرآن قد شمل كل ما يحتاجه الحاكم الصالح في إرساء دعائم الحكم الصالح.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥].

والمراد بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ صار واليًا له حكمٌ ينفذ وعملٌ يستبد به، وإفساده حينئذٍ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد، وإهلاكه الحرث والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة في الأموال، وإما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم. ومن انقطع أمله انقطع عمله، إلا الضروري الذي به حفظ الدماء، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل. وقد شرحت لنا حوادث الزمان وسير الظالمين هذه الآية فقرأنا وشاهدنا أن البلاد التي يفشو فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقل ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان،

(١) الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه ١/ ٤٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٦.

ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتى لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه فيكون بأس الأمة بينها شديدًا ولكنها تذل وتخنع للمستعبدين لها. وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبر، ما فيه ذكرى ومزدجرٌ[1].

ثالثًا: مجال الأخلاق:

١ . اتباع الأهواء.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية اتباع الهوى: فما من مجتمع ولا دولة تعرض عن شريعة الله التي اختارها عز وجل؛ لتحكم حياة البشر، إلا ويتبع أهواء الذين لا يعلمون، فهما طريقان لا ثالث لهما: إما اتباع شريعة الله؛ فيكون الإصلاح الشامل والحياة الطيبة، وإما اتباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فيكون الفساد الشامل للأرض وما عليها.

قال الشاطبي رحمه الله المقصد الشرعي من وضع الشريعة: «إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد له اضطرارًا»[2]، ويدلل على ذلك بأدلة منها:

الأول: النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله سبحانه وتعالى والدخول تحت أمره و نهيه[3].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يجتمع وضع الشريعة على وفق أهواء الناس مع عبادة الله تعالى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١].

الثاني: ما دل على ذم مخالفة هذا القصد: من النهي أولًا عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله، وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات، والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة، والشهوات الزائلة[4].

الثالث: ما علم بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تصلح مع الاسترسال في اتباع الهوى، والمشي مع الأغراض؛ لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك وهو مضاد لتلك المصالح، وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة[5].

ولحصول هذه الاختلافات الكثيرة اقتضى الأمر جعل المرء يسير تبع الشريعة

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٩٩٩.
(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ١٦٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٦٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٧٠.

لا تبع هواه؛ لأن الشريعة وضعت على وفق المصالح المطلقة، دون النظر إلى الأفراد موافقة أو مخالفة، وبذلك تنضبط الأمور وتسير[1].

ومما ذكره القرآن في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى في اتباع الأهواء: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١].

أي: «لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك؛ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفساد أهوائهم واختلافها»[2].

«ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر وفساد الأخلاق، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق و العدل»[3].

فالأهواء الفاسدة المختلفة لا يمكن أن يقوم عليها نظام السماء والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع.

«فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.

وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد. ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءًا من الناموس الكوني تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعًا.

والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير؛ فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد، إنما يخضع للحق الكلي، ولتدبير صاحب التدبير»[4].

٢. الطغيان.

ومن صور الفساد الرئيسة: الطغيان. فليس وراء الطغيان إلا الفساد.

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٥٦ بتصرف.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٥.

قال تعالى في معرض حديثه عن سبب فساد قوم عاد وثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾[الفجر: ٦-١٢] أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس[(١)].

قال السعدي رحمه الله: «هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله»[(٢)].

ومعنى طغيانهم في البلاد: أن كل أمة من هؤلاء طغوا في بلدهم، ولما كان بلدهم من جملة البلاد (أي: أراضي الأقوام) كان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطغيان في البلاد؛ لأن فساد البعض آيل بفساد الجميع بسن سنن السوء؛ ولذلك تسبب عليه ما فرع عنه من قوله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾؛ لأن الطغيان يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سوء لأمثاله وزملائه، فكل واحد منهم يطغي على من هو دونه.

وذلك فساد عظيم؛ لأن به اختلال الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطغي عليه من الرعية، فيضمرون السوء للطاغين، وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور، وتربص الدوائر بها فيكونون لها أعداء غير مخلصي الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال، ويحذرونهم.

فتتوزع قوة الأمة على أفرادها عوضًا عن أن تتحد على أعدائها فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل؛ وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سببًا لكثرة الفساد[(٣)].

فليس وراء الطغيان إلا الفساد؛ «فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال. إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٣.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٨٤.

﴿رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعًا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميدانًا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة؛ لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلابد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات؛ كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة. وهو فساد أي فساد.

فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد[1].

٣. المعاصي.

المعاصي سبب من أسباب الفساد في الأرض، والطاعات سبب من أسباب صلاح الأرض.

لقد نهى الصالحون من قوم موسى عليه السلام قارون عن العمل بالمعاصي، والتي منها إنفاق ماله في غير وجهه، وإمساكه عن وجهه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧] أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله[2].

ومن صور الفساد بالمال: البغي والظلم، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة، والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء، والفساد بالنقص في الثمار والزروع ومحق البركات من السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، أي: فشا الفساد، وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا بسبب المعاصي والذنوب.

وفساد البر: يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر: كذلك يظهر في تعطيل

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٢٢.

منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان وغير ذلك، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس.

ومن مظاهر الفساد بسبب المعاصي الحروب والغارات، بالجيوش والطائرات، والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس من الظلم وكثرة المطامع، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت في الأرض فسادًا، إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها.

ومن مظاهر الفساد بسبب المعاصي: ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح؛ لتأثير شؤم المعصية في الماء، روى مسلم بسنده عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أخبره: (**أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة**)[1].

والله سبحانه وتعالى يريد الصلاح في الأرض، وتطهيرها من الفساد والمفسدين.

٤ . جحود نعم الله.

من الأسباب الرئيسة في الفساد: جحود نعم المنعم إنكارًا باللسان، رغم اليقين بالجنان.

وجحود النعم يصدر من الفرد ويصدر من الأمة.

فمما حكاه القرآن الكريم عن الفرد ما حكاه عن قارون لما وعظه الصالحون من قومه رد عليهم قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٧]. أي: إنما أعطيت هذه الكنوز بما عندي من العلم والقدرة.

فالآية دالة عن أن من أعظم الفساد جحود نعم الله، وإسناد الحصول عليها لعلم العبد وقدرته ونسيان المنعم الكريم، واستخدامها في البغي والظلم والقتل والصد عن سبيل الله، كما يحدث في الوقت المعاصر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق؛ باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم ٢٩٨١.

ومما حكاه القرآن عن جحود الأمم ما حكاه عن قوم موسى عليه السلام وهم نموذج لمن كذب الرسل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٣-١٤]. أي: فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعي أنكروها وقالوا: هذا سحر بين لائح يدل على مهارة فاعله وحذق صانعه، وكذبوا بها بألسنتهم وأنكروا دلالتها على صدقه وأنه رسول من ربه، لكنهم علموا في قرارة نفوسهم أنها حق من عنده، فخالفت ألستهم قلوبهم؛ ظلمًا للآيات، إذ حطوها عن مرتبتها العالية وسموها سحرًا؛ ترفعًا عن الإيمان بها[1].

فالآيتان تدلان على أن الجحود سبب للفساد.

وحكى القرآن عن قوم صالح عليه السلام حيث ذكرهم بنعم الله عليهم سواء كانت الخاصة أو العامة.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]، أي: فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين.

والمعنى: ولا تتصرفوا في هذه النعم تصرف عثيانٍ وكفرٍ بمخالفة ما يرضي الله فيها حال كونكم متصفين بالإفساد ثابتين عليه[2].

ومما ذكر صالح به قومه: أولًا: نعمًا خاصة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وذكرهم بما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا. ثم ذكر نعمًا عامة بقوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أنزلكم بها وأسكنكم إياها.

فالحق لا يجحده الجاحدون؛ لأنهم لا يعرفونه، بل لأنهم يعرفونه. يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم؛ لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم. فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين. وهذا ظلم لأنفسهم وظلم للناس؛ لأنهم حجبوا أنفسهم عن الحق الجلي الذي يقود النفوس إلى الصلاح والإصلاح، واستبدلوه بالفساد الذي حرم العباد من استنشاق عبير الحق، والتمتع بالأمن والسعادة في ظل الحرية التي يتيحها الإسلام وفق ضوابط الشريعة.

(١) تفسير المراغي ١٩/ ١٢٥.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٨.

رابعًا: الفساد في مجال العمل:

١ . قتل النفس ظلمًا.

لقد كانت فعلة ابن آدم، وقتل أخيه ظلمًا وعدونًا، وسنه القتل لمن بعده، سببًا من أسباب الفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾[المائدة: ٣٢]. أي: بسبب جناية القتل هذه شرعنا لبني اسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، الموجب للقتل كالشرك والمحاربة فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قتل نفس حرمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم.

وقال سيد قطب رحمه الله: «من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شرًا ولا عدوانًا، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعًا وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملًا عظيمًا يعدل إنقاذ الناس جميعًا، وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة».

إن قتل نفس واحدة -في غير قصاص لقتل، وفي غير دفع فساد في الأرض- يعدل قتل الناس جميعًا؛

لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس. فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته الحق الذي تشترك فيه كل النفوس. كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع -سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى- هو استحياء للنفوس جميعًا؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعًا[1].

وقد تحمل ابن آدم مثل وزر من يرتكب القتل من بعده؛ لأنه أول من سن القتل، روى مسلم بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٧٨.

وسلم: «لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها لأنه كان أول من سن القتل»[1].

٢. ذبح الأبناء واستحياء النساء.

من صور الفساد الرئيسة ذبح الأبناء واستحياء النساء، وهذا الفعل يؤدي إلى الفساد؛ لأنه يؤدي إلى وقف نمو الجيل الذي آمن، مما يؤدي إلى انقراض المؤمنين المتمسكين بهذا الدين.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[الأعراف: ١٢٧].

الملأ: الرؤساء سموا بذلك؛ لأنهم ملاءٌ بما يحتاج إليه، وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم[2].

«فالإفساد في الأرض -من وجهة نظرهم- هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ حيث يترتب عليها تلقائيًا، بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله؛ إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه، وإذن فهو -بزعمهم- الإفساد في الأرض بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تمامًا لهذه الأوضاع الربوبية فيه لله لا للبشر، ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه»[3].

ولما حرض الملأ فرعون على قتل موسى عليه السلام ومن آمن معه قال لهم فرعون: «سنقتل أبناء قومه تقتيلًا ما تناسلوا -فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج- ونستبقي نساءهم أحياءً كما كنا نفعل من قبل ولادته؛ حتى ينقرضوا، وإنا فوقهم قاهرون، وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان»[4].

وهدف فرعون من قتل الأبناء وإبقاء النساء واستعمالهن في الخدمة، حتى لا يستطيع موسى عليه السلام من نشر دعوة رب العالمين بواسطة الرهط والشيعة الذين آمنوا معه؛ فلذلك عزم على تقليل رهطه وشيعته.

إنها طبيعة الطغيان وأساليبه في مواجهة أهل الحق في كل مكان وفي كل زمان. لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام!.

٣. أكل مال اليتيم بغير حق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات؛ باب بيان إثم من سن القتل، رقم ١٦٧٧.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٥٨.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٤.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٧٠.

أوصى الله المؤمنين باليتامى حتى ملكت عليهم نفوسهم، فتركتهم في حيرة وحرج من أمر القيام على اليتامى، واستغلال أموالهم؛ خوفًا من أن ينالهم شيء من الظلم، وتأثم الصحابة من مخالطة اليتامى، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم، وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله، فلا يخالطونه في شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له وحده.

ثم فطنوا إلى ما في هذا من الحرج مع عدم المصلحة لليتيم، بل فيه مفسدة له في تربيته وضياع ماله، إلى ما في ذلك من الاحتقار والإهانة له، ومن ثم احتاجوا إلى السؤال عما يجمع بين المصلحتين: مصلحة اليتيم؛ ليعيش في بيت كافله عزيزًا كأحد عياله، ومصلحة الكافل فيسلم من أكل ماله بغير حق، فأجيبوا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

روى أبو داود بسنده، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيمٌ فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه[(١)].

«أي: قل لمن يسأل عن المصلحة في معاملة اليتامى من عزل أو مخالطة: إن كل ما فيه صلاح لهم فهو خير، فعليكم أن تصلحوا نفوسهم بالتربية والتهذيب، وأموالهم بالتنمية والتثمير، ولا تهملوا شئونهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم، ولا وجه للتأثم من مخالطتهم في المأكل والمشرب والكسب، فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونوا خلطاء في الملك والمعاش، وفي ذلك منفعة لهم لا ضرر عليهم، إذ كل واحد منهم يسعى في خير الجميع، والمخالطة مبنية على المسامحة؛ لانتفاء مظنة الطمع، فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته، ويتحرى له رجحان كفته.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾

أي: والله يعلم ما تضمره القلوب، وتميل إليه من قصد الإفساد أو الإصلاح في هذه المخالطة، وسيحاسبكم على الدقيق والجليل من الأمور، وإنما نبه القلوب إلى

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم ٢٨٧٣.

ذكر علمه تعالى؛ لتلاحظ ذلك حين العمل، وترقب الجزاء على ما تعمل؛ حتى تأمن الزلل، وتبتعد عن مواطن الشبهة، فشهوة الطمع كثيرًا ما تسول للإنسان أكل مال اليتيم، كما تزين له أكل مال أخيه الضعيف ولا وازع ولا زاجر إلا تقوى الله، ومراقبته في السر والعلن.

فالله مطلع على ضمائركم عالم بما في قلوبكم، وهذا تهديد عظيم، والسبب أن اليتيم لا يمكنه رعاية الغبطة لنفسه، وليس له أحد يراعيها، فكأنه تعالى قال: لما لم يكن له أحد يتكفل بمصالحه فأنا ذلك المتكفل وأنا المطالب لوليه، وقيل: والله يعلم المصلح الذي يلي من أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، ويعلم المفسد الذي لا يلي من إصلاح أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، فاتقوا أن تتناولوا من مال اليتيم شيئًا من غير إصلاح منكم لمالهم»[1].

واليوم نرى بعضًا من الأوصياء على الأيتام يظهرون العفة والزهد في أكل أموالهم، وهم يلتهمونها التهامًا، فتراهم بعد قليل أصبحوا من ذوى الثراء، وأجرهم المفروض ليس فيه الغناء، فلا نرى منهم إلا الفساد والإفساد، دون مراقبة لله في أعمالهم، ومراجعة نفوسهم في أفعالهم، غير ناظرين إلى الوعيد الشديد الذي تقشعر الجلود. وبدأ بالمفسد أولًا؛ ليقع الإمساك عن الإفساد.

وفي الآيات دليل على:

١. جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة، لطف من الله سبحانه وتعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وقد اكتنف هذه المخالطة الإصلاح قبل وبعد، فقبل، بقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وبعد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فالأولى أن يراد بالمخالطة ما فيه إصلاح لليتيم بأي طريق كان.

٢. النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة.

٣. ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاء لألسنة السوء، وتهمة الظن بالإثم، فلو تمالأ الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاع اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين.

٤. لما أذن الله عز وجل في مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم، كان ذلك دليلًا على جواز التصرف في مال اليتيم تصرف الوصي في البيع، والقسمة، وغير ذلك على الإطلاق لهذه الآية.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٦.

٤ . إهلاك الحرث والنسل.

من صور الفساد إهلاك الحرث والنسل؛ لأن بهما عمارة الكون وتحقيق خلافة الله في الأرض، وإهلاكهما سبب في تعطيل حكمة الله في الكون، والله لا يحب من هذا صفته وهذا فعله.

والحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع، والنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم[1].

والنسل: الولد؛ لكونه ناسلًا عن أبيه. قال تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وتناسلوا: توالدوا[2].

ومما ذكره الله في ذكر أسباب الفساد قوله تعالى في صفة المنافق: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

قال مجاهد رحمه الله: «إذا سعى في الأرض إفسادًا منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك»[3].

وقال سيد قطب رحمه الله: «هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه ويتنافر مظهره ومخبره، هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد، وإذا انصرف إلى العمل كانت وجهته الشر والفساد في قسوة وجفوة ولدد تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والأثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالأنسال، وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد مما كان يستره بذلاقة اللسان ونعومة الدهان والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ولا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة الدنيا فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر.

إن هذا النموذج تراه حيًا يتحرك، تقول في غير تردد: هذا هو، هذا هو الذي عناه القرآن، وأنت تراه أمامك ماثلًا في الأرض الآن وفي كل آن»[4].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ٨٠٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٥٤.
(٤) في ظلال القرآن، ١/ ١٩٨-١٩٩. باختصار.



الأساليب القرآنية في محاربة الفساد

تنوعت الأساليب القرآنية في محاربة الفساد، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: النهي عن الفساد وإنكاره:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وسائل دفع الفساد داخل المجتمع، وإذا خلا منه مجتمع عم الفساد، وانتشرت المنكرات، وعم الله المجتمع بالعذاب والهلاك.

ولذلك اهتم القرآن الكريم بهذه القضية، بل جعلها من أهم سمات الخيرية في الأمة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠].

ومما ذكره القرآن في معرض الحديث عن مقاومة الفساد قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦].

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم وفسادهم في الأرض للإعلام بأنه لو كان منهم جماعات وأحزاب أولي بقية من الأخلاق والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم وأفسدهم، وإذن لما هلكوا، فإن الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله.

كما أن الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فشو الأمراض والأوبئة فيها، ما دامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض، أو من وسائل العلاج والتداوي بعده، فإذا لم يمتثل الجمهور لأمرهم ونهيهم فعل الفساد فعله فيهم، والله لا يحفظ الأمم لذوات الصالحين، وبركة أجسادهم، ولا بعبادتهم الشخصية العائد نفعها عليهم، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وطاعة الأمة لهم»[1].

وقد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته[2].

«فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من الصور فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١.

بالعذاب والتدمير، أما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال.

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره عز وجل، هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورة، فهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع»[1].

وأمر شعيب عليه السلام قومه بعدم العيث في الأرض مفسدين، وتكرر هذا الأمر في القرآن في ثلاث آيات؛ لأنهم كانوا من أشد الأمم فسادًا في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

وقال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

بخس: البخس النقص بخسه حقه يبخسه بخسًا إذا نقصه، والبخس من الظلم[2].

«نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها وذلك أنهم: كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله»[3].

وبينت الآية: «أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض»[4].

ولما نهاهم شعيب عن ذلك قالوا له في استهزاء: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وفي هذه الآية ربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين العقيدة؛ للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٤٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٤.

وقد أمرهم شعيب عليه السلام بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض.

ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي؛ لأن إقدامهم عليه كان فاشيًا فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان، فابتدأ بالأمر بالتوحيد؛ لأنه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان، وهي مفسدة عظيمة؛ لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدر[1].

وهذا المنهج ينبغي أن يقتدي به المصلحون في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ثانيًا: سنة التدافع:

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون الأخذ بسنة التدافع إنما يخالفون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء مدافعة الفساد وأهله، يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم، وأنفسهم وأعراضهم، وأموالهم وهذه ضريبة القعود عن مدافعة الفساد، وإيثار الحياة الدنيا.

قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

هاتان الآيتان دستور التدافع بين الحق والباطل، وهما يكشفان عن حكمة الله عز وجل العليا في الأرض من تدافع القوى وتنافس الطاقات، وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار، وهنا تكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا، وتقود الركب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ العدو بجنود المسلمين، لغلب المشركون، فقتلوا المؤمنين، وخربوا البلاد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢١٣.

والمساجد»[1].

قال الطبري رحمه الله: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضًا وهم أهل المعصية له، والشرك به لفسدت الأرض، بمعنى: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله تعالى ذو منٍ على خلقه، وطولٍ عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم»[2].

«لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها تعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب، وتتدافع، تنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه، وهنا يمضي الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة الواثقة بالله تغلب في النهاية، وتنتصر؛ ذلك بأنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة، إنها تنتصر؛ لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار»[3].

ويدفع الله عز وجل «شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع المجوس بالروم النصارى، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]»[4].

«ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٠٣.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦٤- ٢٦٥.
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٢/ ٢١٦.

الأرض»[1].

ثالثًا: الكشف عن عمل المفسدين:

كشف الله سبحانه وتعالى عن المفسدين في كتابه الكريم؛ لأنه عليم بهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[آل عمران: ٦٣].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٤٠].

وممن كشف الله سبحانه وتعالى عنهم للمؤمنين اليهود وعملهم بالفساد، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤].

فكشف الله سبحانه وتعالى للمؤمنين عن سجايا اليهود حتى يكونوا على بينة منهم، فمن طبيعتهم وأخلاقهم وأعمالهم أنهم كلما عقدوا أسبابًا يكيدون بها للإسلام وأهله، وكلما أبرموا أمورًا يحاربون بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيئ بهم، ومن سجيتهم أنهم -دائمًا- يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته، «وعلة عدم محبة الله سبحانه وتعالى لهم أنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم، ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش»[2].

وإيقاد نيران الحرب والفتن والقتال بمحاولة منع اجتماع كلمة العرب، وخروجهم من الأمية إلى العلم، ومن الوثنية إلى التوحيد، وبالكيد للمؤمنين، وتشكيكهم في الدين؛ حسدًا لهم، وحبًا في دوام امتيازهم عليهم، والله لا يحب المفسدين في الأرض، فلا يصلح عملهم، ولا ينجح سعيهم؛ لأنهم مضادون لحكمته في صلاح الناس وعمران البلاد[3].

وإذا رأينا اليوم اليهودية العالمية توقد نار الحرب على البلاد الإسلامية، وتسعى في الأرض فسادًا وتفلح! فينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. فمفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة، التي يتحقق لها وعد الله. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم، التي تتلقى وعد الله، وتقف ستارًا لقدر الله، ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام، تؤمن به على حقيقته، وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته،

يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله.

واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد، ويصبون كل

---

(١) الكشاف ١/ ١٤٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣١٩.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٨٠.

ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون -لا بأيديهم ولكن بأيدي عملائهم- ضربات وحشية منكرة، لا ترعى في العصبة المؤمنة إلًا ولا ذمة. ولكن الله غالب على أمره. ووعد الله لابد أن يتحقق.

إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد في الأرض، وما لا يحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله[1].

وإنا لنرى بفضل الله سبحانه وتعالى هذه العصبة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، تنمو وتزداد وتقوى شوكتها، وهي -بإذن الله- الأمل بعد رعاية الله وحفظه لها في القضاء على اليهود، وتطهير الأرض منهم، ومن فسادهم ومن أمثالهم، فنسأل الله لهم العون والتأييد.

وفي معرض حديث القرآن عن المنافقين، واعتقادهم الباطل أنهم مصلحون، أخبر الله عنهم أنهم هم المفسدون، وأعلم المؤمنين أن المنافقين مفسدون.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١١-١٢].

فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ إثبات لفسادهم وفضح لسعيهم؛ لأن الكفر فساد في الأرض؛ إذ فيه كفران نعمة الله، وإقدام كل أحد على ما يهواه؛ لأنه إذا كان لا يعتقد وجود الإله ولا يرجو ثوابًا ولا عقابًا تهارج الناس، ومن هذا ثبت أن النفاق فساد.

ودخول أداة الاستفتاح (ألا) على الجملة تنبه السامعين على الاهتمام بالخبر وإشاعته وإعلانه.

فوجب على المصلحين كشف فساد المنافقين وإعلانه وإشاعته بين الناس؛ حتى يأخذوا حذرهم، ولا يفتنوا بحلو كلامهم، ويعاملوهم معاملة العدو المتربص، كما قال الله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون: ٤].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣٠.

عاقبة المفسدين

إن سنة الله عز وجل في الأفراد والجماعات قد مضت بأن يذوق المفسدون سوء عاقبة فسادهم.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[الحشر: ١٥]، أي: ذاقوا سوء أعمالهم. فالفرد إذا أفسد وظهر عليه آثار الفساد، ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب فساده، فإنه يزداد غيًا وفسادًا، ولا يحسب للعواقب حسابًا، فيسترسل في ظلمه وفساده إلى أن يحيق به عذاب الله الشديد.

ولقد أمرنا الله عز وجل أن ننظر لنتأمل عاقبة المفسدين، وما حل بهم من الخزي والنكال، وأيضًا وجه أنظار وعقول المفسدين؛ ليعتبروا بما حدث للمفسدين من الأمم السابقة؛ حتى يكون رادعًا لهم عن العصيان والفساد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[النمل: ١٤].

فالخطاب في الآيتين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولمن بعده وسار على نهجه «بما حل بالمكذبين بالرسل»[١] من عاقبة أمرهم: «إذ نصر عبده ورسوله موسى عليه السلام عليهم، وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة وقوة، نصره عليهم: بإبطال سحرهم، وإقناع علمائهم، وسحرتهم بصحة رسالته و كون آياته من الله، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه، وإغراق فرعون، ومن اتبعه من ملئه و جنوده.

وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر، على القائلين إنما الغلب للقوة المادية على الحق، ولاسيما المغرورين بعظمة دول -أمريكا وبريطانيا وأوربا وإسرائيل- الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق، وعلى أولئك الباغين بالأولى، فأولى لهم أولى، ثم أولى لهم أولى!»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[الأعراف: ٨٦].

والخطاب في هذه للمفسدين أي: «وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٦٠.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٠.

حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات، والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ المقصود منها أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا، وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ المقصود منها: «إنهم إذا عرفوا عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال، احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا، فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولًا والترهيب ثانيًا»[2].

فالقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى دراسة سنن الله في الأرض من أجل أن: «يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق»[3].

ولقد أخذ الله الأمم المفسدة بذنوبهم، واختلفت سوء العاقبة بحسب عظمة الذنب، فكلما كان الذنب عظيمًا كان العقاب عظيمًا، وكلما خف الذنب خف العقاب.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأخذ عز وجل هذه الأمم بالإتلاف والإهلاك؛ لأنهم من أشد الأمم فسادًا في الأرض، فالحاصب ما أصاب عادًا، والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود، والذين خسفت بهم الأرض قارون وأهله، والذين أغرقهم: فرعون وهامان ومن معهما من قومهما.

فالفساد له عواقب دنيوية، وأخروية، وهذا بيانها:

أولًا: العواقب الدنيوية:

١ . حرمان التأييد الإلهي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

«ليس المراد بعدم إصلاح عملهم

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٨٣.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٢.

عدم جعل فسادهم صلاحًا، بل عدم إثباته وإتمامه، أي: «لا يثبته، ولا يكمله، ولا يديمه، بل يمحقه ويهلكه، ويسلط عليه الدمار»[1].

قال الألوسي رحمه الله: «المراد بعدم إصلاح ذلك عدم تقويته بالتأييد الإلهي»[2].

٢. التدمير والهلاك.

أخبر الله عن التسعة رهط المفسدين من قوم صالح ومكرهم بنبيهم وتبيتهم لقتله، وسوء عاقبتهم.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨-٥١] . فالله دمر التسعة الرهط، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، ولم يشذ منهم أحد، ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم.

٣. الإصابة بالآفات والعلل.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين، والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان؟ وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض؟ وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم، ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم، وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم»[3].

٤. الإبعاد من الرحمة، وسوء العاقبة والمآل.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٧٠.
(٢) روح المعاني ١١/ ١٦٧.
(٣) زاد المعاد ٤/ ٣٢٦.

بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، والجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

٥ . الخسران.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له.

٦ . إقامة حد الحرابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «روى الشافعي رحمه الله في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنه في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال، قتلوا وصلبوا. وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال، قتلوا ولم يصلبوا. وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا، قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالًا نفوا من الأرض، وهذا قول كثير من أهل العلم.

فمن كان من المحاربين قد قتل فإنه يقتله الإمام حدًا، ولا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء، ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول، بخلاف ما لو قتل رجلٌ رجلًا لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة، فإن هذا دمه لأولياء المقتول إن أحبوا قتلوا، وإن أحبوا عفوا، وإن أحبوا أخذوا الدية؛ لأنه قتله لغرض خاص. وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس، فضررهم عام بمنزلة السراق، فكان قتلهم حد الله، وهذا متفق عليه بين الفقهاء»[1].

«فالمنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده. إنما يرفع سيف القانون ويصلته؛ ليرتدع من لا يردعه إلا السيف. فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب، وتقويم الطبع، وهداية الروح، ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي»[2].

ودلت الآية على أمرين: أحدهما: التخيير في جزاء المحاربين، والأمر الثاني: أن هذه

(١) السياسة الشرعية، ابن تيمية ١/ ١٠٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٨١.

العقوبات هي لأجل الحرابة، وليست لأجل حقوق الأفراد من الناس، ولذلك فلو أسقط المعتدى عليهم حقوقهم لم يسقط عن المحارب عقوبة الحرابة.

ثانيًا: عاقبة الأقوام المفسدين في الآخرة:

١ . حرمان النعيم الأخروي.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري رحمه الله: «تلك الدار الآخرة يجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحق في الأرض وتجبرًا عنه، ولا ظلم الناس بغير حق، وعملًا بمعاصي الله فيها»[١].

وإن حصل لهم بعض القهر والراحة فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب، وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم فيها حظ[٢].

وقال سيد قطب رحمه الله: «فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم؛ ليملأها النور بالله، ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة، تلك الدار العالية السامية»[٣].

٢ . الزيادة في العذاب.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

«قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل، وبعضها في النهار»[٤].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في درجاتهم في الجنة ودرجاتها كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]»[٥].

وقال سيد قطب رحمه الله: «فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى،

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣.
(٥) المصدر السابق.

فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقًا»[1].

فإذا قيل: إنا نرى المفسد الظالم الباغي قد يزداد في دنياه مالًا وولدًا، ويتمتع بصنوف اللذات، من الدور والقصور، والفراش الوثير، والسكن في الجنات، ويركب فاره الخيول المطهمة والمراكب الفاخرة، ويشار إليه بالبنان، بينا نرى المطيع لربه، المظلوم من بنى جنسه قد يعيش عيش الكفاف، ولا يجد ما يقيم به أوده، ويسد به مخمصته، أفيكون من حكمة الحكيم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب، أو ينتصف للمظلوم من الظالم ويرجع الحق إلى صاحبه، وربما لا يحصل هذا في الدنيا؟!

الجواب: لابد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف، والكيل بالقسط والميزان، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمن، على ألسنة رسله الكرام، صدق ربنا، وإن وعده الحق، وإن هذا اليوم آت لاشك فيه؛ لتجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم[2].

موضوعات ذات صلة

الإصلاح، التغيير، الدفع، الصلاح

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٨.
(٢) تفسير المراغي ٢٣/ ١٠٥.





عناصر الموضوع

مفهوم الفطرة

أولًا: المعنى اللغوي:

يدل أصل مادة (فطر) على فتح شيء وإبرازه، من ذلك الفطر من الصوم. يقال: أفطر إفطارًا. وقومٌ فطرٌ أي مفطرون. ومنه الفطر، بفتح الفاء، وهو مصدر فطرت الشاة فطرًا، إذا حلبتها[(١)].

والفطرة: الاستقامة على التوحيد[(٢)].

وفطر: اخترع وأنشأ[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الفطرة: «الجبلة المتهيئة لقبول الدين»[(٤)].

وقيل: «الخلقة؛ لأن من معاني الفطرة الخلقة»[(٥)]، التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه»[(٦)].

قال النبي صلى الله عليه وسلم[(٧)]: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠])[(٨)].

وولادة المولود في سياق هذا الخطاب النبوي يكون معناها «أي على الجبلة القابلة لدين الحق»[(٩)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥١٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٦/ ٢٥٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٩٥.
(٤) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني ص ١٦٨.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار ٣/ ٤٦.
(٦) بهجة قلوب الأبرار، السعدي ص ٥٩.
(٧) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٣/ ٣١٠.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.
(٩) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠٠.

الفطرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فطر) في القرآن الكريم (١٩) مرة، ويخص موضوع البحث منها (١٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]
اسم الفاعل	٦	﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤]
المصدر	١	﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]

ووردت الفطرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: إيجاده الشيء وإبداعه[٢]. ولم تخرج في الاستعمال القرآني عن معناها اللغوي.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الفاء، ص٨٨٠-٨٨١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النشأة:

النشأة لغة:

أصل مادة (نشأ) يدل على ارتفاعٍ في شيءٍ وسموٍ. ونشأ السحاب: ارتفع. وأنشأه الله: رفعه[١]، ويقال: «أنشأه الله: خلقه. وأنشأ الله الخلق أي: ابتدأ خلقهم»[٢].

النشأة اصطلاحًا:

الدلالة الاصطلاحية لمصطلح الإنشاء هي (الابتكار).

الصلة بين النشأة والفطرة:

دلالة مصطلح النشأة على الابتكار لها صلة بإحدى معاني الفطرة وهي (الإبداع)؛ لأن الله عز وجل ينشأ الفطرة في الإنسان ويبدعها من العدم.

٢ الغريزة:

الغريزة لغة:

أصل مادة (غرز) على الإدخال والقرب والحبس[٣]. وأقرب المعاني اللغوية لدلالة لفظة (الغريزة) اصطلاحًا نفسيًا هو معنى (الحبس) فكأن الغريزة محبوسة في الإنسان كحبس اللبن في جسم الناقة فغرز ولم يخرج.

الغريزة اصطلاحًا:

«سجية، فطرة، طبيعة من خير أو شرٍ تصدر عنها صفات ذاتية»انقاد لغريزته- مكافحة الغرائز البهيمية»[٤]، «هي ملكة تصدر عنها صفات ذاتية»[٥] ومن معانيها الطبيعة[٦].

الصلة بين الغريزة والفطرة:

الغريزة أخص من الفطرة فبينهما عموم وخصوص، فالغريزة إحدى جوانب الفطرة.

---

(١) انظر: قاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢٨ - ٤٢٩.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٧٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤١٦.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٦٠٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٦٧١.
(٦) انظر: شمس العلوم، الحميرى ٨/ ٤٩٣١.

٣ الجبلة:

الجبلة لغة:

الفطرة. جبل الله عز وجل الخلق يجبلهم ويجبلهم. وهذه جبلة فلان أي خليقته التي خلق عليها «[١]، «وجبلة الوجه: بشرته»[٢].

الجبلة اصطلاحًا:

إن الجبلة تعني الخلق[٣] و«الجبلة: الطبيعة والخلقة المركوزة في أصل الخلقة»[٤].

الصلة بين الجبلة والفطرة:

الجبلة تعطي معنى من معاني الفطرة (الخلقة).

---

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٦٩.
(٢) العين، الفراهيدي ٦/ ١٣٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٣٥٨.
(٤) معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي ١/ ١٦٠.

الله تعالى فاطر الموجودات

إن من أهم ركائز الفطرة الصحيحة الإيمان بالله جل وعلا الفاطر أي فاطر الموجودات كيف لا وهو مبدعها صغيرها وكبيرها، ومن أسمائه (الفاطر)، وهو فاطر أعظم شيئين في الكون وهما السموات والأرض، وهو فاطر الخلق؛ لكن بعض الناس جحدوا فطرة الله سبحانه وتعالى وراحوا يؤلفون مناهج أرضية إنسانية قاصرة بحجة أن الله عاجز عن تدبير شؤون خلقه، فحول ملاحدة الشيوعية الشهادة لله بالوحدانية إلى ضلالة.

فبدلوا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بكلمة أخرى وهي (لا إله والكون مادة)، هذا بالنسبة للشيوعية، وأما بالنسبة لمتزعمي الرأسمالية في أمريكا وأوربا فإنهم مشركون ووثنيون: يعتقدون بآلهة ثلاثة: «الأب والإبن و روح القدس»، ويقدسون الصليب، وعبدوا المادة التي خلقها الله فضلوا وأضلوا، سنتناول في جو هذا المبحث المحاور التي ذكرناها وهي (اسم الله الفاطر ودلالته، والله فاطر السموات والأرض، والله فاطر الخلق).

أولًا: اسم الله الفاطر ودلالته:

ودليله قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر: ١].

وتعني لفظة «الفاطر: الخالق، المنشئ للخلق»[(١)].

فأغلب مواضع لفظة (فاطر) في القرآن الكريم تعني الخالق[(٢)].

وهي «المخترع المبتدي، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكين يبين التوبيخ، أي أيشك فيمن هذه صفته؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك»[(٣)].

وأما اشتقاقه «فاشتقاقه من الفطر وهو الشق، ويشبه أن يكون معناه هو الإحداث دفعةً»[(٤)].

ودلالة «كونه فاطرًا فهو عبارةٌ عن الإيجاد والابداع، فكونه تعالى خالقًا إشارةٌ إلى صفة العلم، وكونه فاطرًا إشارةٌ إلى صفة القدرة»[(٥)].

«فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات»[(٦)].

و«أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارةٌ عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٩١.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٦٧٤.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٢٧.
(٥) المصدر السابق ١٢/ ٤٧٤.
(٦) المصدر السابق ١٢/ ٤٩٢.

يدل عليه ويدل عليه وجوهٌ:

أحدها: أنه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١].

فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض.

وثانيها: أنه قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلًا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودًا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفةً بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجدًا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدًا للكون لا يقتضي كونه موجدًا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدًا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه تعالى موجدًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن»[1].

وقال آخرون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني البدأة التي ابتدأهم عليها يريد أنه مولود على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من قبولهم عن آبائهم اعتقادهم. قالوا والفطرة في كلام العرب البداءة والفاطر المبدئ والمبتدئ، فكأنه قال: صلى الله عليه وسلم يولد على ما ابتدأه الله عليه من الشقاء والسعادة وغير ذلك مما يصير إليه وقد فطره عليه واحتجوا بقوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ - ٣٠].

وروى بإسناده إلى ابن عباس قال: لم أدر ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدأتها[2] «وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة و ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيفٌ على استحالة الألوهية لغير الفاطر»[3].

وقال تعالى على لسان الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يدعوهم: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢٢].

«أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع

(١) المصدر السابق ١٨/ ٥١٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

إليهم؛ لأن الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق»[1].

ثانيًا: الله تعالى فاطر السماء والأرض:

من خلال البحث في القرآن الكريم لغرض معرفة مواضع ورود لفظ ﴿فَاطِرِ﴾ مقترنًا بلفظي ﴿السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ نجده في عدة مواضع ترد في سياق بيان القدرة الباهرة لله عز وجل من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

وفاطر السماوات أي: «مبتدئهما»[2]، و«يعني خلقكم خالق السموات والأرض»[3].

كذلك نجد موضعًا آخر في سياق سورة يوسف عليه السلام لبيان النعم الإلهية في قوله - جل وعلا: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

«يعني أنه بدأ خلقها فقوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على تلك البداية التي ابتدأ الله - عز وجل خلقه بها، وأخذ مواثيقهم عليها من الاقرار له بالربوبية، ثم يعرب عنه لسانه بما يلقنه أبواه من الشرائع والأديان، فيعرب بها، وينسب إليها»[4].

وفطر السموات والارض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها، فذكر كونه فاطر السموات والارض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له، فذكر علمه سبحانه وتعالى بالغيب والشهادة، وإن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه، وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه

(١) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٤٥.
(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة ص١٥١ .
(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي ص ٧٣.
(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ابن بطة العكبري ٢/ ٧٢.

وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئا من ماله»[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

ثالثًا: الله تعالى فاطر الخلق:

إن الإنسان بكل إدراكاته الحسية والعقلية يؤمن بأن له خالقًا عظيمًا بالفطرة، فالله تبارك وتعالى - فاطر الخلق، وقد وردت عدة آيات كريمات بهذا الخصوص تبين بأن الله سبحانه وتعالى هو فاطر الخلق. وهاهنا وضمن هذا السياق يعني مفهوم الفطرة: (البداية)؛ فالله هو الذي يبدئ الأشياء بدلالة قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

«وهذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير وهو احتجاج عليهم بأن حال آلهتهم على الضد من صفات الله تعالى؛ فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور، وأنه المستحق للإلهية بسبب ذلك الانفراد، بين هنا أن آلهتهم مسلوبة من صفات الكمال، وأن الله متصف بها»[2]؛ فهو قادر على إعادتهم لأنه هو الفاطر المبدع[3].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

ونجد بأن «المعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى، واستحقوا بذلك العبادة كما استحقها سبحانه؛ ليكون ذلك منشأ لخطئهم، بل إنما جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلًا عما يقدر عليه الخالق، والمقصود هو الإنكار والنفي هو والمقيد على ما نص عليه غير واحد من المحققين، وفي الانتصاف أن ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ في سياق الإنكار جيء به للتهكم؛ فإن غير الله تعالى لا يخلق شيئًا ولا مساويًا ولا منحطًا، وقد كان يكفي في الإنكار لولا

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٨٤.

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) انظر: فتح القدير ٦/ ٤٦٠.

ذلك أن الآلهة التي اتخذوها لا تخلق.»[(١)].

ففي ذلك دلالة واضحة جد الوضوح على القدرة الباهرة لله تبارك وتعالى.

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٧].

ففي ذلك انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية؛ لأن أمرها أعجب وأغرب، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب؛ وذلك للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلا لحكمة بالغة، وأن الحكيم لا يهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيئاتهم، وأن جعله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا؛ لأن عالم الجزاء كائن فيها، ومخلوقاته مستقرة فيها، والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سموت سير الكواكب[(٢)].

ومن ذلك أيضًا قوله جل وعلا: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠] ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٢٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٦ - ٢٧.

الفطرة والايمان بالله

يعالج هذا المحور إحدى القضايا الجوهرية، وهي قضية دور الفطرة وما حققته من مكتسبات في بنية الإنسان؛ فبعد ما آمن الإنسان بأن الله عز وجل فاطر الموجودات وأقر إقرارًا يقينيًا بذلك لا يشوبه غبار الشرك والالحاد، وإن لهذا الفاطر سبحانه حقوقًا وواجبات يؤديها المخلوق، يأتي الإنسان وقد وصل إلى الدرجة القصوى من الإيمان بذلك، فينعكس عليه ويكون موثرًا في بنائه الكلي الحسي والمعنوي، فنجد هاهنا دور الفطرة في الإيمان بالله تبارك وتعالى واقعًا سلوكيًا ملموسًا.

أولًا: الفطرة والإيمان بالله:

إن صاحب الفطرة السليمة يجب أن يكون مؤمنًا بالله - سبحانه وتعالى بوصفه الخالق لكل شيء؛ لذلك نجد بأن «كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها»[(١)].

و«أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق وإيثاره على ما سواه فلقد ركز في فطرته الإقرار بالخالق، وهو التوحيد، ومحبة القصاص وهو العدل، وإذا ثبت ذلك ثبت أن الفطرة نفسها مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة مقوٍ لها، وقد بينا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين يدعون العباد إلى موجب هذه الفطرة.

فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل، ولابد بما فيها من المقتضي لذلك، كمن دعا جائعًا أو ظمآنًا إلى شراب أو طعام لذيذ نافع، لا تبعة فيه عليه، ولا يكلفه ثمنه، فإنه ما لم يحصل هناك مانع فإنه يجيبه ولا بد ومن المعلوم إن كل نفس قابلة لمعرفة الحق وإرادة الخير، ومجرد التعليم لا يوجب تلك القابلية، فلولا أن في النفس قوة تقبل ذلك لم يحصل لها القبول، فإن لحصوله في المحل شروطًا مقبولة، وذلك القبول هو كونه مستعدًا مهيئًا له مستعدًا لحصوله فيه»[(٢)].

وأما بالنسبة لقضية «دلالة الفطرة على ثبوت صفات الكمال لله؛ فلأن النفوس السليمة مجبولة ومفطورة على محبة الله،

(١) شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص٨٠.

(٢) الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

وتعظيمه، وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته»[(١)].

و«الله تعالى فطر الخلق كلهم: العرب، والعجم حتى البهائم على الإيمان به وبعلوه، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يمينًا، ولا شمالًا، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء»[(٢)].

والإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوحدانيته، واستحقاقه للعبادة أيضًا؛ لأن وجوده جل وعلا لا شك فيه ولا ريب، وقد دلت على وجوده سبحانه وتعالى: الفطرة، والعقل، والشرع، والحس[(٣)].

وإن «أمر الدين غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبره، وأنه لم يخلقه باطلًا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة. فلابد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيرًا وإن شرًا»[(٤)].

وإن «نداء الإيمان محبب إلى قلوب المؤمنين الصادقين العاملين المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه نداء الفطرة، ويحمل أعظم رسالة، ويؤدي أفضل وظيفة، إنه الداعي إلى الله تبارك وتعالى وإلى الخير كله، وإلى النور والطمأنينة، والحياة السعيدة في الدنيا، ويبشر بالحياة الكريمة الأبدية في الآخرة»[(٥)].

فله جزاء عاجل (دنيوي) وجزاء آجل (أخروي)؛ فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى إلهًا يستحق الخضوع أمر ثابت مستقر في النفوس في أصل الفطرة الإنسانية؛ ذلك لأن من الفطرة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فالفطرة فطرتان، فطرة تتعلق بالقلب وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه من الموجودات، وفطرة عملية عبارة عن مجموعة خصال أخلاقية، فالأولى تزكي الروح وتطهر القلب بالإيمان بالله، والثانية تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها[(٦)].

وفي حال استعمل الإنسان عقله وحسه يدرك بأن معرفة الله - جل وعلا - فطرية، والمقصود بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقًا مدبرًا، وتستوجب إيمانه المطلق به، وهي صفة

(١) فتح رب البرية، ابن عثيمين ص٢٦.
(٢) المصدر السابق ٤٢.
(٣) انظر: الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه، عبدالله الأثري ١/ ١١٤.
(٤) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص٤٠.
(٥) المصدر السابق ص١٧٦.
(٦) تحفة المودود، ابن القيم ص١٦١.

في حد ذاتها مغروزة في الإنسان، تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وفي الوقت الذي يعلم فيه علم اليقين بالبراهين القاطعة أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق والتأله له أعظم المنافع، يتعين بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به[1].

وقال في ذلك ابن أبي العز الحنفي في معرض تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) «وهذا الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه. منها، أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًا، وتارةً ما يكون باطلًا، وهو حساسٌ متحركٌ بالإرادات، ولا بد له من أحدهما، ولا بد له من مرجحٍ لأحدهما.

ونعلم أنه إذا عرض على كل أحدٍ أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذٍ فالاعتراف بوجود الصانع الإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسدٌ قطعًا، فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به»[2].

وأدلة ذلك كثيرة في الخطاب القرآني منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

«أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل.

ويدل عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل»[3].

لذا فإن «الفطرة هي العهد الذي أخذ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، وكلّ مقرٌّ بأن له صانعًا مدبرًا، وإن عبد ما سواه ظنًا منه أنه يقربه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقالوا: أي الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكل مولودٍ في العالم على ذلك الإقرار،

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٤٥٨.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٣٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤١.

وهو الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها»[(١)].

فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

و«المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية»[(٢)].

وكذلك «الإشهاد على الأنفس يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: ٩٠].

أي: صدقت والإيمان لا ينفع حينئذٍ، والتوبة مقبولةٌ قبل رؤية البأس[(٤)].

و«هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونًا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولًا»[(٥)].

و«أن ذلك الإقرار كان مبنيًا على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهًا، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقروا بوجوده، فكان هذا محض التقليد.

فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولةً منه، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمًا لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق»[(٦)].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ۝٤٧﴾ [الشورى: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١) شرح السنة، البغوي ١/ ١٥٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٨٩.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٦٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٧٧.
(٥) مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٩٦.
(٦) المصدر السابق ١١ / ١٣٨.

﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١].

فإن «معنى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: وحدوا ربكم أن معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

أي: «ذلوا يا قوم لله بالطاعة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ يقول: ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويأتي دور الفطرة المركزي في حياة الإنسان ويتضح مدى إيمانه بربه إذا ما نزل به كرب أو حلت به مصيبة، فيلجأ مؤمنًا بالله تبارك وتعالى بقلب منكسر خاشع سائلًا ربه أن ينجيه ويخلصه من هذا الكرب أو تلك المصيبة، بدلالة قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

وتعني «أمن يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء؟

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلًا بعد جيل، وأمةً بعد أمة.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ أي: أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؟

برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والقفار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ أي: ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ؟ أي أإلهٌ مع الله يقدر على شيءٍ من ذلك؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق»[3].

«فيلمس وجدانهم، وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم، وواقع أحوالهم، فالمضطر

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٢.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٥.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١.

في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه، أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة، فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

هو وحده دون سواه يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق، والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء، وفترات الغفلة، يغفلون عنها، فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة.

فأما حين تلجئهم الشدة، ويضطرهم الكرب، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منيبين، مهما يكونوا من قبل غافلين، أو مكابرين، والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل، حقائق خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق البهيجة، وجعل الأرض قرارا، والجبال رواسي، وإجراء الأنهار، والحاجزين البحرين. فالتجاء المضطر إلى الله، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق. هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء»[(١)].

و«﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ معناه بشرط إن شاء على المعتقد في الإجابة، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل، والسوء عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف: ٥٠].

لذلك أثبت «في الفطرة حسن العدل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٦٥٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٧.

والانصاف، والصدق والبر، والاحسان والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونصر المظلوم، ومواساة اهل الحاجة والفاقة، وأداء الامانات، ومقابلة الاحسان بالإحسان، والاساءة بالعفو والصفح، والصبر في مواطن الصبر، والبذل في مواطن البذل، والانتقام في موضع الانتقام، والحلم في موضع الحلم، والسكينة والوقار، والرأفة والرفق، والتؤدة، وحسن الاخلاق، وجميل المعاشرة مع الاقارب والاباعد، وستر العورات، وإقالة العثرات، والايثار عند الحاجات، واغاثة اللهفات، وتفريج الكربات، والتعاون على انواع الخير والبر، والشجاعة والسماحة، والبصيرة والثبات، والعزيمة، والقوة في الحق، واللين لأهله، والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم، والاصلاح بين الناس، والسعي في إصلاح ذات البين، وتعظيم من يستحق التعظيم، وإهانة من يستحق الاهانة، وتنزيل الناس منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وأخذ ما سهل عليهم، وطوعت به أنفسهم، من الأعمال والأموال والأخلاق، ولإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، واحتمال جفوتهم، واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق، فأقربهم إليه أولاهم بالحق، وإن كان بعيدًا، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبًا قريبًا.

إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات، والمناكحات، والجنايات، وما اودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ما سواه واثبت في الفطر علمها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما اثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما اثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكلمة مطابقة التفصيل بجملته، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان»[1].

وإن لأهمية الفطرة ودورها الإيماني كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح أو أمسى: **(أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين)**[2].

تقريرًا لمكانة الفطرة وأنه لا يمكن لها إذا كانت صحيحة نقية أن تشوبها عوارض الأهواء ونوازع ووساوس الشيطان «فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٧٧، رقم ١٥٣٦٠، والنسائي في الكبرى، ٩/ ٥، رقم ٩٧٤٣.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٩٠.

وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة، ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها، وردها إلى حالتها، التي خلقت عليها، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها»[1].

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٥٨.

الانحراف عن الفطرة

عند التأمل في قضية الفطرة الإنسانية التي فطر الله تبارك وتعالى العباد عليها نجدها متكاملة، ترتقي بالإنسان إلى أعلى مراتب الرقي والتقدم؛ ولكن في حال سار عليها، ولم يعكر صفوها بالانحرافات والضلالات الشيطانية، ولهذا الانحراف بالفطرة عن مسارها الإلهي أسباب. وقد وردت هذه الأسباب في الخطاب القرآني في عدة مواضع بشكل أو بآخر، وبعد ذلك يشعر الإنسان بنتائج الانحراف الذي مارسه على الفطرة؛ لذا يكون له آثار جوهرية في حياة الإنسان.

أولًا: أسباب الانحراف عن الفطرة:

إن من أهم أسباب الانحراف عن الفطرة «القلق الناتج عن مخالفة الفطرة بالعصيان لقد خلق الله عباده على فطرة سوية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس:٧]»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة»[3].

وفي ذلك إشارة لصفة التسوية في مقادير تكوين الفطرة الإنسانية التي أودعها الله -

(٢) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية، الجربوع ٢/ ٤٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٩.

عز وجل في النفس الإنسانية؛ فعندما يتدخل الإنسان بتغيير هذه الصفة أي: صفة التسوية القويمة، يعصي خالقه ويعرض نفسه لمخاطر غضب الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة. لقد أرشد الله تبارك وتعالى هذه النفس إلى فجورها وتقواها وبين لها ذلك وهداها إلى ما قدر لها (١).

والأصل في الإنسان هو التوحيد «وإذا كان الفقه هو معرفة الرخصة عن دليل فإن التوحيد هو الفطرة من غير تبديل» (٢).

ومن أنكر وجحد الله تعالى فإنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، وقد جاء التصريح بذلك في الخطاب القرآني بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

«والمقصود: أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرًا، ففي ذلك مثلٌ للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول» (٣).

وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال عن كفار قريش: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

بل إن كلمة (كفر) مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في لسان العرب؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحجب الشبهات والشهوات. ومن أهم أسباب انحراف الفطرة في القرآن الكريم (٤):

١ . الغفلة والنسيان.

وقد بينت النصوص القرآنية ذلك بأن حالتي الغفلة والنسيان من أهم ما يطرأ على الفطرة، حتى يترك العبد الميثاق الأول والآخر بينه وبين ربه بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

«أن هناك عهدًا من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٣٩٩.
(٢) معارج القبول، الحكمي ١/ ٧.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.
(٤) انظر: إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان، الشهراني ص ٢٥ - ٢٧.

فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال. وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف. إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحده ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله- وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه- بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة»[(١)].

ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

والمعنى: وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

«فنسوا حظًا مما في التوراة قاله مجاهد. وقيل: أنساهم نصيبًا من الكتاب بسبب معاصيهم، وعن ابن مسعود: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٩٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٦٦.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٩١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٦٢.

[الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: ٥١].

٢. التربية على العقائد الباطلة.

وقد حكى القرآن الكريم عن ذلك في معرض حديثه عن المشركين بأنهم اتبعوا آثار آبائهم، وأنهم تمسكوا بذلك، واعتبروه دينًا يعبد بلا حجة ولا برهان، واليوم في وقتنا الحاضر اتبعت الشعوب الإسلامية مناهج الملاحدة الوضعية، ومن هذه المناهج (الشيوعية).

«إنها جناية كبرى ارتكبتها الشيوعية في حق الأخلاق والقيم، وخالفوا الفطرة التي جبل عليها البشر على امتداد تاريخهم من حب الخير وبغض الشر، وما يتبعهما من صفات وسلوك فاضل»[(١)].

و«إن الإنسان حينما يقف عاجزًا عن معرفة سر هذا الكون، ويتفكر في خلق الله والأرض والنجوم وسائر الأفلاك، وتتابع الليل والنهار، والحياة والموت، وسائر ما أوجده الله في هذا الكون، إذا فعل الإنسان ذلك يجد نفسه عاجزًا عن إدراك كل هذا، وحينئذ يعرف بفطرته أن هناك موجد عظيم لهذا الكون هو أقوى منه، يستحق أنه يخضع له، وأن يعبده ويرجو ثوابه ويخاف عقابه، لا أن يعتقد أن المادة خلقته؛ فإن التفكر في كل ذلك يهدي إلى الاعتراف بخالق عظيم قدير حكيم، لا أن للمادة معه مشاركة؛ بل هي مخلوقة له حدثت بعد أن لم تكن، وهذا هو ما اعترف به الملاحدة في أنفسهم، وجحدوه ظاهرًا تعصبًا لنظرياتهم الفاسدة، وقد ذكر الله عز وجل كثيرًا من عجائب هذا الكون، ورغب الناس في التفكر فيه واستخلاص العبر»[(٢)].

ونجد بأن «الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تؤمن بوجود الله خالقها ومدبرها، ومن أنكر ذلك فإنما يغالط نفسه ويشقيها، فالشيوعي - مثلًا - يعيش في هذه الحياة تعسًا، ومصيره بعد الموت إلى النار، جزاء تكذيبه بربه الذي خلقه من العدم، ورباه بالنعم إلا إن تاب إلى الله، وآمن به وبدينه ورسوله»[(٣)].

لذا «هكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع وتضافرت العوامل التي أدت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئًا بعد ذلك

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ٢/ ١١١٨.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٨٣.

(٣) دين الحق، عبد الرحمن آل عمر ص١٠.

التوحيد، وكان انحرافًا عنه»[1].

«ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلا، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة»[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

٣. إتباع سبل الشيطان.

قال تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٨].

«قال ابن عباس: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ «أعماله»[3]، لا تجعلوها تجركم.

«أي: لا تقتدوا بها في اتباع الهوى، فإنه صريحٌ في أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهدا ليس من باب اتباع خطوات الشيطان، فضلًا عن كونه تقولًا وافتراءً على الله تعالى، وإنما نزل فيهم»[4].

نهي مقصود ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دومًا، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة»[5].

ونجد بأن «اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله، كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة، وما أشبهها.

و﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أعماله التي يعملها، ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر»[6].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

والمقصود «أن كيد الشيطان كان ضعيفًا، لأن الله ينصر أولياءه، والشيطان ينصر أولياءه، ولا شك أن نصرة الشيطان، لأوليائه أضعف من نصرة الله لأوليائه، ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د.عثمان جمعة ضميرية ١/ ٢٢٠.
(٢) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث: ١/ ١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٠٨.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٧.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ١٠٢.
(٦) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ٢٣٣.

وجه الدهر، وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلة، وأما الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقرض أثرهم، ولا يبقى في الدنيا رسمهم ولا ظلمهم، والكيد السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال عليه يقال: كاده يكيده إذا سعى في إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه. وفائدة إدخال كان في قوله: كان ضعيفًا للتأكيد لضعف كيده، يعني أنه منذ كان موصوفا بالضعف والذلة»[1].

«إنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته؛ فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته، ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك»[2].

«ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين، ضعيف لا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

خطاب مباشر «﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لا يمحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم. ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾»[4].

«تحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون»[5].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

«تعليلٌ لخذلانه أو تحقيقٌ لضلالتهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دلالةٌ على أن الكافر المخطىء والمعاند سواءٌ في استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر»[6].

«والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٧.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٨٣ - ٨٤.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٤.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٢٤.

بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم»[(١)]

ثانيًا: نماذج قرآنية في الانحراف عن الفطرة:

١ . عبادة الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤].

«أي: لا تطعه، فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، ومن أطاع من هو عاصٍ لله سبحانه فهو عاصٍ لله، والعاصي حقيقٌ بأن تسلب عنه النعم، وتحل به النقم.

قال الكسائي: العصي والعاصي بمعنًى واحدٍ. ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ قال الفراء: معنى أخاف هنا أعلم.

وقال الأكثرون: إن الخوف هنا محمولٌ على ظاهره لأن إبراهيم غير جازمٍ بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازمًا بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعنة، فتكون بهذا السبب مواليًا، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، وليس هناك ولاية حقيقية»[(٢)].

ونجد بأن «المراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحًا عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه، ففي الكلام إيجاز لأن معناه: لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالًا معلومًا»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

ويكون علاج هذا الانحراف بالرجوع

(١) فتح القدير ٢/ ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٩٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١١٦.

إلى الصراط المستقيم بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم فاتبعوا جملته وتفصيله، ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات»[1].

و«هو تعقيب على تلك النواهي والأوامر التي أمر الله سبحانه النبى الكريم أن يتلوها على الناس. فهذه المأمورات وتلك المنهيات هي شريعة لله، وهى الصراط المستقيم الذي دعا لله عباده إلى الاستقامة عليه، فمن اجتنب المنهيات، وأتى المأمورات، فهو على صراط الله، وعلى شريعة الله، ومن انحرف عن هذا الصراط، فقد ضل وغوى، وكان من الهالكين وفى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أمر بإتيان الأوامر وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ نهى عن إتيان المنهيات وفى التعبير عن سبيل الله «بالصراط» والتعبير عن الطرق الخارجة عنه بالسبل- إشارة إلى أن طريق الله «صراط» أي طريق معد ومهيأ للسالكين، تقوم عليه منارات هدى، وإشارات هداية أما هذه السبل التي لا تستقيم على هذا الصراط، فهي طرق لا معلم فيها، ولا شارة عليها، يركبها الراكب فيتخبط، ويتعثر، ويضل ولهذا جاء التعبير عن صراط الله بلفظ المفرد، لأنه واحد لا غير، إذ الحق حق ووجهه واحد، وطريقه واحدة، وأما الباطل، فهو أباطيل متعدد الوجوه، مختلف السبل»[2].

٢. الغلو في الدين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

نلحظ أن «الغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين. ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين. وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم: فاليهود طولبوا باتباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد عليهما السلام،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٨٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٤٨.

والنصارى طولبوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم»[1].

و«إنما معناه في الدين الذي أنتم مطلوبون به فكأنه اسم جنس وأضافه إليهم بيانا أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أمروا بالثبوت عليه دون غلو وإنما أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يوحدوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلكوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام، ثم بين تعالى أمر المسيح وأنه «رسول الله وكلمته»[2].

٣. المبالغة في طلب الرزق.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى: ٢٧].

«معناه: وسع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ طغوا وعصوا»[3].

«﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطرًا، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء، وهذا على الغالب، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية.

ولكن ينزل بقدرٍ بتقدير، ما يشاء كما اقتضته مشيئته. إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم؛ فيقدر لهم ما يناسب شأنهم»[4].

٤. التمسك بالدنيا.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤].

لقد «زين للناس حب الشهوات أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها»[5].

«حب الشهوات: يعني المشتهيات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتهى من النساء.

إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، وقوله: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، ووجه حبه ظاهر لأنه يتكثر به، ويعضده، ويقوم مقامه. وقد جعل الله تعالى في قلب

(١) التحرير والتنوير ٦/ ٥١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٧.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٨١.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨.

الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد، ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك.

﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ جمع قنطار وسمي قنطارا من الإحكام والعقد يقال: قنطرته إذا أحكمته، ومنه القنطرة المحكمة الطاق، واختلفوا في القنطار هل محدود أو غير محدود؟ على قولين:

أحدهما: أنه محدود، ثم اختلفوا في حده، فروي عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس: ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم، وبه قال الحسن، وقال سعيد بن جبير: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، وقال سعيد بن المسيب وقتادة: هو ثمانون ألفا وقال مجاهد: سبعون ألفا. وقال السدي: هو أربعة آلاف مثقال.

والقول الثاني: إن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار مال الكثير بعضه على بعض، وروي عن أبي عبيدة أنه حكي عن العرب أن القنطار وزن لا يحد، وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره.

وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال.

وقال أبو نصرة: القنطار ملء مسك ثور ذهبًا أو فضة، وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة.

وقيل: المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة، والمقنطرة المضاعفة أن تكون ستة أو تسعة، وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة من الذهب والفضة. إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء، وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده، وهي صفة كمال وهي محبوبة.

وقيل: سمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة لأنها تنفض أي تتفرق.

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط، سميت الأفراس خيلا لاختيالها في مشيتها، وقيل: لأن الخيل لا يركبها أحد إلا وجد في نفسه مخيلة عجبًا.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي: المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

وقيل: فيه إشارة إلى أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى»[(١)].

(١) لباب التأويل ١/ ٢٣١.

الاستقامة على الفطرة

في هذا المبحث نجد بأن المفاهيم تغيرت عن مفاهيم المبحث السابق بخصوص الفطرة، فهناك تناولنا الانحراف عن الفطرة: أسبابها، ونماذجها، وأثرها في القرآن الكريم، أما هنا فنعالج وسائل الاستقامة والمحافظة على الفطرة الإلهية نقية طاهرة من الأدران، وأثر هذه الاستقامة في بناء الإنسان مع بيان نماذج من وجوه الاستقامة على الفطرة في العباد.

أولًا: وسائل الاستقامة على الفطرة:

على المسلم أن يحسن الظن بالناس، ولا يستغرب وجود الاستقامة على الفطرة فيهم؛ لأن «الفطرة السلامة والاستقامة»[(١)].

وكذلك فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يوجب سلامة الفطرة الإنسانية وحسن قصدها؛ ولكن هناك عدة وسائل للاستقامة على الفطرة السليمة، تبدأ:

١ . التربية الصالحة.

إن التربية الصالحة تنطلق من حسن اختيار الزوجة الصالحة؛ لأن الزوجة الصالحة تعد تربة طيبة لبذور صالحة، فإذا وضعنا هذه البذور الصالحة في تربة صالحة، نضمن بإذن الله تبارك وتعالى وجود ذرية صالحة؛ ولذا لا نعجب من تركيز الإسلام ممثلًا بخطابه القرآني على اختيار الزوجة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونجد استمرار الحث على حسن اختيار الزوجة في الخطاب النبوي الشريف؛ فقد ورد ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**)[(٢)].

فهو يخاطب النفس الإنسانية بحسب ما تفكر به، فالنفس ترغب بالمال والحسب والجمال، وآخر شيء تفكر فيه الدين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الدين هو المعيار في الاختيار، وإن تأخر، فجعل الظفر لا يكون إلا به بأسلوب التشكيل الاستعاري في قوله: (تربت يداك) أي افتقرت، ثم بعد ذلك يأتي دور التربية ابتداء من سن الطفولة التي يقول علماء النفس وعلماء الاجتماع عنها: إن السن السابعة هي السن المناسبة

(١) التمهيد، ابن عبد البر ١٨/ ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب باب الأكفاء في الدين، ٧/ ٧، رقم ٥٠٩٠.

لتربية الأطفال في البيت وفي المسجد أيضًا.

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)**[1].

ثم لا يزال يلزم الأب أن يتعاهد الذرية تربية وإعدادًا وتجهيزًا وإصلاحًا حتى يأتي سن العاشرة، فلابد من أن يزيد في أمره لأولاده بالصلاة حتى يعيشوا مع الصالحين في المساجد وإذا بلغ احدهم الحلم فلابد أن يكون جاهزًا ليميز المعيار الواضح بين الكفر والإيمان.

فالأب مسؤول عن تربية أولاده، وإدامة الفطرة السليمة فيهم بدلالة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)**، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠][2].

فلا تترك الفطرة عرضة لهوى النفس، فتضبط حاجاتها وغرائزها من الآباء «فأخبر أن أصل ولادتهم ونشأتهم على الفطرة، وأن التهويد والتنصير والتمجيس طارئٌ طرأ على الفطرة وعارضٌ عرض لها، واقتضى هذا العارض الذي عرض للفطرة أمورًا استلزمت ترتيب آثارها عليها بحسب قوتها وضعفها، فالآلام المترتبة على ذلك من جنس الآلام والعقوبات المترتبة على خروج البدن عن صحته، وهو إنما خلق على الصحة والاعتدال، فإذا استمر على ذلك لم يعرض له ألمٌ.

وكذلك القلب فطر على الفطرة الصحيحة، فلما عرض له الفساد ترتب على ذلك العارض أثره من الآلام والعقوبات، ولا ريب أن ذلك العارض ليس في أصل الفطرة بحيث يستحيل زواله، بل هو ممكن الزوال، والناس في زواله، فحين عاد إلى موجب الفطرة أجاب الداعي من غير توقفٍ.

ومنهم من توقف لقوة العارض فاحتاج مع الدعوة إلى موعظةٍ تتضمن ترهيبه وترغيبه.

ومنهم من غلبت عليه المادة الفاسدة فاحتاج مع ذلك إلى المجادلة.

ومنهم من كان العارض أشد من ذلك

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ١/ ١٣٣، رقم ٤٩٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢١، رقم ٥٨٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

فعدل معه إلى الجلاد والمحاربة ونوع من العقوبة، فأزال ذلك تلك المادة وأعاد الفطر إلى صحتها.

ومنهم من كان فساد فطرته قد استحكم وتمكن، فصار له بمنزلة الصفة الثابتة، ولم يكن بدٌّ من أن يحتمي عنه ليزول ذلك الخبث ويتخلص منه، ويعود على ما خلق عليه أولًا؛ ولهذا لما خرج خبث الموحدين من أهل الكبائر بسرعةٍ؛ تعجل خروجهم من النار، وعاد إلى ما خلقوا عليه أولًا من كمال النشأة وزوال موجب هذا العذاب، فلم يبق لهم مصلحةٌ في التعذيب بعد ذلك.

وأما المشركون: فلما كان العارض استحكم فيهم، وصار كالهيئة والصفة استمروا في النار، تحمى عليهم أشد الحمو لقوة ذلك الخبث»[(١)].

٢. التمسك بالقرآن والسنة.

إن التمسك بالوحي هو أول أسباب المحافظة على الفطرة «فإن الفطرة -وهي طريق صحيح ومصدر معتبر في ذلك- قد يطرأ عليها ما يغشيها ويحرفها عن صوابها، فتحتاج إلى ما يجلوها، ويصحح مسارها، ويمنعها من الانحراف، وذلك هو الوحي»القرآن والسنة» الذي تكفل الله تعالى بإنزاله هداية للناس ورحمة بهم»[(٢)].

من ذلك قول الله سبحانه وتعالى بعد أن أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض بعد أن وسوس الشيطان لهما فأكلا من الشجرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، وفي موضع آخر نجد قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

وقد رتب على هداه عدة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن أتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

أما من ضل وكفر فتوعده الله بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩].

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٢٥٧.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د.عثمان جمعة ضميرية: ١/ ١٦٠.

و(أصحاب النار) أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينصرون[1].

ويطالعنا حديث نبوي شريف في السياق نفسه فيه دلالة قاطعة على وجوب التمسك بالله - عز وجل والخضوع له قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن البراء بن عازبٍ، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به). قال: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: (لا، ونبيك الذي أرسلت)[2].

إن من عواصم الفطرة من التغير والانتكاسة لزوم شريعة الإسلام، وعدم الحيدة عنها قليلًا كان ذلك الحيد أو كثيرًا؛ فإن طريق النجاة في لزومها علمًا وعملًا، ونظرية وتطبيقًا في الأمن والخوف، والسلم والحرب، فالشريعة موضوعة لسير الناس عليها بوصفها منهج حياة، وهي مستقيمة لا تنحرف وواسعة لا تضيق، بدلالة قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

إن إتباع شرع الله تعالى والتقيد بالمنهاج الرباني، وترك ما سواه من السبل والمناهج الجاهلية الإلحادية الخارجة عن الفطرة السليمة التي أنكرت وجود إله قادر على تدبير شئون عباده، أو أشركت معه غيره، وقامت على مناهج عقلية وفلسفية قاصرة؛ لأن الكمال لله، وزعموا الاستغناء عن خالقهم ومدبر شؤونهم فاستغنى الله عنهم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب باب فضل من بات على الوضوء، ١/ ٥٨، رقم ٢٤٧.

فجعلت الشيوعية شعارها (لا إله والكون مادة)، ونفت بالكلية وجود الإله، وتعتنق معظم الشعوب الرأسمالية عقيدة التثليث والإيمان بثلاثة آلهة (الأب والابن وروح القدس)، وتتخذ العلمانية منهج حياة، أي تقر بوجود إله خالق للعباد ولكنه عاجز عن تدبير شؤون عباده - حاشا لله، وللأسف الشديد نجد كثيرًا من المجتمعات الإسلامية التي تدعي الإسلام ادعاء تمارس هذه المناهج وتتخذها منهج حياة.

لقد شرع الله عز وجل أفضل الشرائع، وهدى الناس لأقوم السبل بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا شك بأن الشريعة الإسلامية هي وحدها الكفيلة بإصلاح الدين والدنيا، وإسعاد الإنسان في الآخرة والأولى، وذلك لما تنفرد به من العقيدة الصحيحة والشعائر الجليلة والشريعة العادلة.

ونجد أن من أعرض عن هذه الشرعة والمنهاج توعده الله بالعقوبة قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

ومن فطرة الإنسان أن يتبع ما يهديه للحق، ويجلب له المصلحة، فمتى أبصر طريقًا أيقن أو ظن بأنها موصلة إلى مقصود لم يتركها إلى غيره، وقد أدرك السلف الصالح بأن من الفطرة أن يلزم المسلم شرع الله تعالى، ولا ينحرف عنه قيد أنملة، سواء أكان ذلك الانحراف بسبب الجهل أم بداعي التقصير، فمثلًا أداء الصلاة في وقتها من الفطرة السليمة، والعقيدة الإسلامية تقضي بأن توقيت العبادات من حقوق الله تعالى.

فجميع العبادات الزمانية والمكانية كلها لله عز وجل والتقيد بوقتها مظهر من مظاهر الفطرة. ويمكننا قياس ذلك على بقية الشرائع التي جاء بها الإسلام، كالحدود والمعاملات والمرافعات وغيرها، وهي تنفع الناس، والله يعلم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

ودليل ذلك نجده في قوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤].

«فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟»[1].

٤ . جهاد الشيطان.

إن الشيطان يلقي في القلوب من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٦.

الوساوس والخواطر الفاسدة ما لا يعلم خطورتها إلا الله تعالى، والمؤمن الموقن هو من يدفع تلك الوساوس والوسائل (الشيطانية) ويصون قلبه أن يدخله شيء من تلك الوساوس والخواطر. وجهاد الشيطان مرتبتان: إحداهما: الجهاد من خلال دفع ما يلقى إلى العابد من الشبهات والريب القادحة بالإيمان، والثانية: الجهاد المتمثل في دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فإن الجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ثانيًا: نماذج قرآنية في الاستقامة على الفطرة

١. التوحيد والاستقامة:.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

«اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة، وذكر شبهات المنكرين، وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة، والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وهاهنا رفع الواسطة من البين، وذكر أنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضًا من غير واسطةٍ، واعلم أن هذه الآيات دالةٌ على أن من آمن بالله وعمل صالحا فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوفٌ ولا حزنٌ، ولهذا قال أهل التحقيق إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال»[2].

و«﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل، وتوقف اعتباره على التوحيد. فلا خوفٌ عليهم من لحوق مكروه. ولا هم يحزنون على فوات محبوب، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٣.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف: ١٤]. من اكتساب الفضائل العلمية والعملية»[1].

٢. الإيمان والعمل الصالح.

إن للإيمان والعمل الصالح أثر في الاستقامة على الفطرة في الخطاب القرآني؛ لذلك نجد اقترانهما في أغلب المواضع القرآنية.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

و«مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ الآية، و«البشارة» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بشرة المخاطب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «البشارة» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

إما تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتسود به وجوههم، وتظلم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدخان: ٤٨ - ٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ إما للرسول صلى الله عليه وسلم؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشر أيها النبي؛ أو بشر أيها المخاطب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله.

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله - عز وجل المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد»[2].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١٣.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة، ١/ ٩٠.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧].

٣. الإيمان والابتعاد عن سبل الضلالة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥].

«إن هؤلاء الجهال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيء منه بل بقوا مصرين على جهلهم مجدين على جهالاتهم وضلالتهم، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهيه، فلا يضركم ضلالتهم وجهالتهم.

فلهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ قوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب»[1].

٤. تلبية دعوة الله والرسول.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

أن «﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ على هذا المعنى كان هذا جاريًا مجرى إيضاح الواضحات وأنه عبثٌ، فوجب حمله على فائدةٍ زائدةٍ، وهي الوجوب صونًا لهذا النص عن التعطيل، ويتأكد هذا بأن قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جارٍ مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب»[2]، و«المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية»[3].

٥. اقامة الصلاة والإنفاق.

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٤٨.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ٤٧١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٩٣.

﴿وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٣١].

«أي إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرطٌ مقدرٌ، تقول: أطع الله يدخلك الجنة، أي إن أطعته يدخلك الجنة، هذا قول الفراء»[1].

و«يقول تعالى آمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يومٌ وهو يوم القيامة لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ أي ولا يقبل من أحدٍ فديةٌ بأن تباع نفسه»[2].

٦. التقوى والقول السديد.

لقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠] «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧١].

وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم»[3].

و«﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلًا عما يؤذي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصدًا إلى الحق من سد يسد سدادًا، والمراد النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصد ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. ومن يطع الله ورسوله في الأوامر والنواهي. فقد فاز فوزًا عظيمًا يعيش في الدنيا حميدًا وفي الآخرة سعيدا»[4].

ثالثًا: أثر الاستقامة على الفطرة:

إن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق غاية عظمى، تتمثل في استقامة النفس

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٦٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٤/ ٤٣٨.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٣٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٠.

الإنسانية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة؛ وذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بممارسة شرائع الإسلام وإتباع تعاليمه، والانقياد لأوامره، والابتعاد عن نواهيه؛ فالاستقامة إذن مرحلة ثانية بعد الإيمان؛ لأنها أثر من آثاره، ونتيجة من نتائجه، فهي بمثابة التربية النقية الضابطة لكل متعلقات فطرة الله سبحانه وتعالى تؤدي في المحصلة النهائية إلى تطهير القلب والنية لترسم السلوك الإنساني.

فطهارة الخارج تدعو أولًا إلى طهارة الداخل، وطهارة الإنسان الفرد مدعاة لطهارة المجتمع عمومًا؛ لأنه صورة مصغرة لهذا المجتمع، فالاستقامة على الفطرة تبني إنسانًا مثاليًا كما أراده الله، وبخلافه نجد إنسانًا تعلوه المعاصي وأوهام الدنيا وزينتها الخداعة؛ لأنها زائلة ومتاعها غرور.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

فقد «قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان»[(١)].

وقد ورد عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك - وفي حديث أبي أسامة غيرك - قال: (قل: آمنت بالله، فاستقم)[(٢)].

فهذه الاستقامة الإيمانية لا تتحقق إلا من خلال التفقه بالدين ومعرفة أموره، والاحاطة بتعاليمه، ورعاية الأخلاق وتطبيقها في الواقع، ليصبح بذلك قدوة صالحة وأسوة

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٢/ ٣٦٩.
(٢) اخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، ١/ ٦٥، رقم ٣٨.

حسنة، ومن يتمتع بكل ما ذكرنا يحصل على السعادة وعدم الحزن والبشرى بالجنة بدلالة قوله مسلم تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول تعالى في هذا السياق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله من شريعة لهم ولم يشركوا به شيئًا[1].

موضوعات ذات صلة

الأسرة، الإسلام، الألوهية، التوحيد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧/ ١٦١.





عناصر الموضوع

المجلد السادس والعشرون

مفهوم الفقه

أولًا: المعنى اللغوي:

يدل أصل مادة (فقه) على إدراك الشيء والعلم به، تقول: فقهت الحديث أفقهه، وكل علم بشيءٍ فهو فقهٌ، ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالمٍ بالحلال والحرام: فقيهٌ[١].

والفقه: العلم في الدين، يقال: فقه الرجل يفقه فقهًا فهو فقيهٌ، وفقه يفقه فقهًا إذا فهم، وأفقهته: بينت له، والتفقه: تعلم الفقه[٢].

والفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، كما غلب النجم على الثريا[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: الفقه: في الاصطلاح: «هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وقيل: هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل»[٤]، والفقه: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٢.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٧٠، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٢٦٣

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٢٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٤٣، المخصص، ابن سيده ١/ ٢٦٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٩٨.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٦٨.

وانظر: الإبهاج في شرح المنهاج، البيضاوي ١/ ٢٨، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين السبكي ص ٢٤٤.

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني ص ٦٤٢- ٦٤٣.

الفقه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾ [طه:٢٧-٢٨]

وجاء الفقه في الاستعمال القرآني بمعناه في اللغة، وهو إدراك الشيء والعلم به[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٢٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلامة: النسابة، وهو من العلم[١]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا:عرفته»[٢].

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم:هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال:هو حصول صورة الشيء في العقل»[٣].

الصلة بين العلم والفقه:

الفقه هو العلم، وهو العلم النافذ الذي يخترق العوائق لإدراك لب الدين[٤].

٢ الفهم:

الفهم لغة:

العلم بالشيء ومعرفته[٥].

وفي لسان العرب:الفهم معرفتك الشيء، وهو حسن تصور المعنى[٦].

الفهم اصطلاحًا:

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والقدرة على التفسير والشرح وإدراك المعلومات التي تعرض، أو إدراك ما يعنيه شخص بالقول أو بالعمل أو بالاستنباط[٧].

الصلة بين الفهم والفقه:

الفقه والفهم بمعنى واحد[٨].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٨٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٩٠.
(٣) التعريفات ص ١٩١.
(٤) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٤٨٤.
(٥) انظر: المعجم العربي الأساسي، ص ٩٥٣.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٥٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٢٠.
(٨) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٤٣.

٣ الإدراك:

الإدراك لغةً:

أدرك المعنى بعقله: فهمه وتصوره عقله على الوجه الصحيح[(١)].

الإدراك اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الإدراك: إحاطة الشيء بكماله»[(٢)].

الصلة بين الإدراك والفقه:

الإدراك يكون من خلال الإحاطة بالشيء بكماله، ولا يشترط ذلك في الفقه.

٤ الاستنباط:

الاستنباط لغةً:

كلمة تدل على استخراج شيء. واستنبطت الماء: استخرجته[(٣)].

الاستنباط اصطلاحًا:

هو استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح[(٤)].

الصلة بين الاستنباط والفقه:

الاستنباط كالفقه يحتاج إلى فهم وتدبر، إلا أن الإستنباط فيه مبالغة وشدة عنه في الفقه.

٥ الجهل:

الجهل لغة:

ضد العلم، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير علم، وجهلت الشيء: إذا لم تعرفه[(٥)].

الجهل اصطلاحًا:

«أن تعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه»[(٦)].

الصلة بين الجهل والفقه:

الجهل نقيض العلم أي عدم العلم بالشيء، وأما الفقه فيعني العلم به.

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٧٤٠.
(٢) التعريفات ص ١٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٨١.
(٤) انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد الطيار ص١٦٠.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣٢٢.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩.
وانظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٩٠.

الفقه نعمة ربانية

كثير من الناس يعاني من سقم الفهم للقضايا والأحداث والأشخاص، فيقع بسبب ذلك في أخطاء الحكم على الآخرين، أو التفسير للمواقف والأحداث، وإذا كان سوء الفهم سببًا في كثير من الأخطاء والخلافات، فإن حسن الفهم، وصحته من أهم أسباب سلامة الموقف، والبعد عن الخلافات.

إن فهم ما يقول غيرنا ضروري لتحديد الموقف الصحيح منهم، وهذا يحتاج إلى عمق التفكير وصدق التأمل، وعدم التسرع في الحكم على الأشياء، وفي حياتنا اليومية مواقف محتدمة لا سبب لاحتدامها إلا سوء الفهم للموقف، أو الرأي، أو الكلمة، مع ما يصحب ذلك ويتبعه من سوء الظن، وعدم سلامة الصدر.

قال ابن القيم: «صحة الفهم وحسن القصد من اعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده بل ما اعطي عبد عطاء بعد الاسلام أفضل، ولا أجل منهما بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية»(١).

قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩]

لن ينسى التاريخ الإنساني الدور القيادي العظيم والجهاد والتضحيات للرسل والأنبياء عليهم السلام، فلولاهم لكان الناس في حيرة وضلال، ونزاع مستمر واقتتال، ربما أدى إلى انقراض النوع البشري، وكان من فضل الله وإنعامه: أنه أعد هؤلاء الصفوة القادة إعدادا رائعا خاصا، ليكونوا أهلا للقيادة، وأسوة حسنة للبشرية، وأمدهم بنعم كثيرة، فضلا عن نعمة النبوة والرسالة، منها الحكم والقضاء بين الناس، والعلم والمعرفة السديدة، وعزة النفس وقوة الإرادة، ووسائل الكسب الشريف.

ومن هذه النعم على داود وسليمان عليهما السلام قضية الحكم في رعي راع زرع قوم، في جنح الليل، وكان الله عالما

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٦٩.

تام العلم بالقضاء والمقضي فيه، شاهدًا بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية، وكان القضاء صادرا من الأب داوود، والابن سليمان، اللذين كان كل منهما ملكًا عدلًا، نبيًا، يحكم بالحق بين الناس.

واتجه كل من داوود وسليمان في حكمه وجهة معينة من النظر السديد، فإن داوود عليه السلام قضى بتملك الغنم لصاحب الزرع، وسليمان عليه السلام قضى بتسليم الغنم مدة عام إلى صاحب الحرث (الزرع) ينتفع بألبانها وأولادها وأصوافها، وتسليم الزرع للراعي، يستفيد مما تنتجه الأرض، ويتعهدها بالسقاية والخدمة، حتى يعود الزرع إلى ما كان عليه قبل الرعي، وكان قضاء سليمان أولى وأرفق وأحكم[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

يبين المولى عز وجل في هذه الآيات كيف حرم الكفار من نعمة الفهم بسبب كفرهم بالله، وعدم إيمانهم فبين سبحانه أنه يحمي نبيه صلى الله عليه وسلم من مشركي مكة الذين كانوا يؤذونه، في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد الحرام، ويريدون مد اليد إليه، فلا تخف أيها النبي، فإنك إذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا، أي حائلًا حاجزًا، يمنع قلوبهم من فهم القرآن وتدبر آياته، ومستورًا على أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحجب بقدرة الله وكفايته، وجعلنا على قلوبهم أغطية، بحيث لا يتسرب إليها فهم مدارك القرآن، ومعرفة أسراره وغاياته، وجعلنا في آذانهم ثقلًا، أو صممًا يمنع من سماع الصوت، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حفهم الله به، فعبر عن كثرة ذلك وعظمه بأنهم بمثابة من غطي قلبه، وصمت أذنه، والإضلال بسبب الضلال الذي سلكوه، وساروا في فلكه بغيًا وعنادًا[2].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

لا شبهة أن للعالم منزلة عظيمة عند الله لا تكون لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

ولذلك فإنه يقتدي بالعلم في كل أفعاله،

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٦٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٣٥٣.

ولا يقتدى بغير العالم؛ لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ منه غيره[1].

عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلًا، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[2].

قال الإمام البغوي: «فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل مثل العالم كمثل المطر، ومثل قلوب الناس فيه، كمثل الأرض في قبول الماء، فشبه من تحمل العلم والحديث، وتفقه فيه بالأرض الطيبة، أصابها المطر فتنبت، وانتفع بها الناس، وشبه من تحمله ولم يتفقه بالأرض الصلبة التي لا تنبت، ولكنها تمسك الماء، فيأخذه الناس، وينتفعون به، وشبه من لم يفهم، ولم يحمل بالقيعان التي لا تنبت، ولا تمسك الماء، فهو الذي لا خير فيه»[3].

قال ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان قوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا؛ فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه[4].

وكما توصل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بقوله للمرأة التي حملت كتاب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من عَلِم وعَلم، ١/ ٢٧، رقم ٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب القضائل، باب مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٢٨٢، ٤/ ١٧٨٧.
(٣) انظر: شرح السنة ١/ ٢٨٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٦.

حاطب ما أنكرته: (لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها)[1].

إلى استخراج الكتاب منها[2].

وعن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي بن أبي طالبٍ: هل عندكم كتابٌ؟ قال: (لا، إلا كتاب الله، أو فهمٌ أعطيه رجلٌ مسلمٌ، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلمٌ بكافرٍ)[3].

وهنالك ضوابط يتحقق بها الفهم الصحيح، حينما يحرص عليها الإنسان سيكون قادرًا على الإفادة من هذه النعمة العظيمة في حياته، ومن تلك الضوابط:

- التريث وعدم الاستعجال في تفسير ما يسمع المرء، أو يقرأ من الأقوال.
- التأمل فيما سمع أو قرأ حتى يتمكن من الوصول إلى المعنى المراد.
- إعادة الاستماع، أو القراءة أكثر من مرة، حتى يتمكن الإنسان من الفهم الصحيح.
- استخدام ميزان (حسن الظن) و(سلامة الصدر) في الحكم على الأقوال والأفعال.
- مراقبة الله عز وجل والخوف منه، وهذا ضابط مهم يكتنف الضوابط الأخرى ويوجهها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ٤/ ٥٩، رقم ٣٠٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر، ٤/ ١٩٤١، رقم ٢٤٩٤.

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١/ ٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم ١١١، ١/ ٣٣.

نسبة الفقه للقلوب

لقد نسب الله الفقه للقلوب في أكثر من آية، ليدلل على أن محل الفقه والفهم والتدبر هي القلوب، ومن هذه الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

يبين المولى عز وجل في هذه الآية كيف أنه خلق النار-التي يعذب الله فيها من يستحق العذاب في الآخرة-كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فيتفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته[1].

قال المراغي في تفسيره: «أي إنهم لا يفقهون بقلوبهم ما تزكو به أنفسهم من توحيد الله المبعد لها عن الخرافات والأوهام وعن الذلة والصغار، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته فلا تذل بدعاء غيره ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه فى خلقه، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين للفتوى فى المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها، ولا يتوجه في طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة كالرقى والعزائم والتبخيرات وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات والدعاء إليهم بما يعد من العبادات فالله يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤١].

كما لا يفقهون بقلوبهم الحياة الروحية واللذات المعنوية الموصلة إلى السعادة الأبدية: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٧].

ولا يفقهون أن ترك الشرور والمنكرات

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص١٧٤.

والحرص على فعل الخيرات هو مناط السعادة فى الدنيا والآخرة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية البدنية الصحيحة. ولا يفقهون سنن الله فى الاجتماع وتأثير العقائد الدينية فى جمع الكلمة وقوة الجماعة ولا سيما فى عهد النبوات وزمن المعجزات، ولا يفقهون معنى الآيات الإلهية فى الأنفس والآفاق ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علمية وكونية وما أودعه منها كتابه»[1].

وقال الزمخشري في تفسيره: « ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسماعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم -لإعراقهم في الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار- مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار»[2].

وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن محل العلم هو القلب؛ لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم، مما يدل على أن محل الفهم والفقه هو القلب[3].

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون:٣].

يبين المولى عز وجل حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم بالله ورسوله جنة، ثم كفروا بشكهم في ذلك وتكذيبهم به[4].

أي: ما نعي عليهم من مساوئهم بأنهم آمنوا أي ظاهرًا ثم كفروا أي سرًا فطبع على قلوبهم أي ختم عليها بما مرنوا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيئات المنكرة، فحجبوا عن الحق فهم لا يفقهون أي حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين[5].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

تبين الآية أن الذي ينفع عند الله والذي ينجو به العبد من العقاب ويستحق جزيل الثواب يوم القيامة القلب السليم، ومعناه الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته

(١) تفسير المراغي ٩/ ١١٣- ١١٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٧٩.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٤.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٣٥.

تابعة لمحبة الله وهواه تابعًا لما جاء عن الله[١].

وعن النعمان بن بشيرٍ، قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا وإن في الجسد مضغةً:إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢].

فيه أن العقل والفهم إنما هو فى القلب وموطنه، وما فى الرأس منه إنما هو عن القلب ومنه سببه[٣].

وجاء في شرح هذا الحديث «فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإذا كان قلبه سليما، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوق للشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدًا، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب، ولهذا يقال:القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم»[٤].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ١٥٩٩، ٢/ ١٢١٩.

(٣) انظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ١/ ١١٧.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٢١٠.

مجالات الفقه

إن مجالات الفقه متعددة ومتنوعة، ومن هذه المجالات:

أولًا: عظمة الله والإيمان به:

لا شك أن من أعظم مجالات الفهم والمعرفة التفكر في عظمة الله تعالى وتقديسه وتنزيهه عن كل ما لايليق به سبحانه، والإيمان به.

قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤].

ففي هذه الآية ينزه الله عز وجل نفسه عما وصفه به المشركون من خلال بيان أن السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجن، يعظمون الله ويجلونه، وأنتم أيها المشركون مع إنعامه عليكم، وجميل أياديه عندكم، تفترون عليه بما تفترون، وأنه ما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ما عدا تسبيح من كان يسبح بمثل ألستكم.

ثم بين المولى عز وجل حلمه فهو لا يعجل بالعقوبة على خلقه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجل هؤلاء المشركين الذين يدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبة فهو الحليم الغفور الذي يستر عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفو منه لهم[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة:٢٥٥].

أي:الله هو الذى يستحق أن يعبد دون سواه، وهو الباقى القائم على شئون خلقه دائمًا، الذى لا يغفل أبدًا، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنه لا يتصف بالنقص فى شئ، وهو المختص بملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك أحد، وبهذا لا يستطيع أى مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو سبحانه وتعالى محيط بكل شئ عالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئًا من علم الله إلا ما أراد أن يعلم به من يرتضيه، وسلطانه واسع يشمل السموات والأرض، ولا يصعب عليه تدبير ذلك لأنه المتعالى عن النقص والعجز، العظيم بجلاله وسلطانه[(٢)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٥.
(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٦١.

ثانيًا: القرآن:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول والمرجع الأساس في الفقه والعلم والمعرفة؛ لأنه كلام الله الذي لا يدانيه كلام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩].

« هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان. يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادا وأزواجا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها، وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام»[(١)].

ولهذا نجد أن المولى عز وجل عاقب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٥.

الكفار والمشركين بأن جعل على قلوبهم أغطية حتى لا تفقه القرآن؛ لأنهم لا يستحقون هذه النعمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾ [الأنعام:٢٥].

والمعنى والمقصد من هذه الآية أن مشركي مكة كانوا في أعجز موقف، حين حاولوا رد الحق القرآني بالدعوى المجردة، ومنهم فريق كانوا يستمعون للنبي صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات الغباء وصمم الآذان، يرون الآيات الناطقة بالحق فلا يؤمنون بها.

وإذا جاؤوا للمجادلة أي المقابلة في الاحتجاج، قابلوا بدعوى مجردة فارغة من البرهان المقبول، والعقل السليم لأن الله تعالى -بسبب عنادهم وإصرارهم على شركهم- جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم ثقلا أو صمما عن السماع النافع لهم، كما شبههم القرآن بحال الطيور الناعقة بما لا تعي ولا تفهم.

لقد حُجِزُوا عن فهم القرآن وقبوله وتدبر معانيه بسبب التقليد الأعمى للأسلاف، وإعراضهم الناشئ عن تصميم وعناد وحزم ألا ينظروا فيما يسمعون نظرة تأمل وإمعان، ليميزوا بين الحق والباطل(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ [التوبة:١٢٧].

أي: «وإذا أنزلت سورة قرآنية فيها فضيحة أسرارهم، تعجبوا وتأملوا وتسللوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وتلفتوا متغامزين قائلين:هل يراكم الرسول أو المؤمنون إذا خرجتم؟! ثم ينصرفون عن طريق الاهتداء، ويتولون عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، ولا يفهمون شيئا عن الله ولا عن رسوله، ومن أعرض عن ساحة الإيمان والخير، أعرض الله عنه، وصرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان، وعن الخير والنور، وهذا إما دعاء عليهم به، أو إخبار عن أحوالهم، وذلك الصرف الإلهي بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦].

أي: صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٣٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٩٣٤.

مانعًا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، وجعلنا في آذانهم صممًا وثقلًا يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه لأن غلافًا وضع بينها وبين النور، فلم تدرك وتتدبر في بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا في آذانهم وقرًا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

ويصح أن نقول إن الكلام السامي ممثل لحالهم في عدم فقههم للقرآن، وعدم سماعهم لآياته سماع فهم وتدبر وتعرف لبلاغته بحال من جعل الله تعالى على قلبه غشاوة فلا يصل إلى الحق، وحال من في آذانه ثقل فلا يسمع[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ [الكهف: ٥٧].

ولا أحد أشد ظلمًا ممن وعظ بآيات ربه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قدمته يداه من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها، إنا جعلنا على قلوبهم أغطية، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير، وجعلنا في آذانهم ما يشبه الصمم، فلم يسمعوه ولم ينتفعوا به، وإن تدعهم إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا إليه أبدًا[2].

جاء في تفسير الشعراوي: «﴿يَفْقَهُوهُ﴾ يفهموه، يفهموا آيات الله؛ لأنهم سبق أن ذكروا بها فأعرضوا عنها، فحرمهم الله فقهها وفهمها، وقوله تعالى: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..﴾ أي: صمم فلا يسمعون، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا أمر بدهي، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم، وسد عليهم منافذ العلم والهداية؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق، فيستقبلها قلبك بالرضا، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام، فتسمع بالأذن، وتقبل بالقلب، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزامًا بما أمرت به، وما دام في الأذن وقر وصممٌ فلن تسمع، وإن سمعت شيئًا أنكره القلب، والجوارح لا تنفعل إلا بما شحن به القلب من عقائد»[3].

ثالثًا: كلام الرسل:

إن كلام الرسل يعتبر من أعظم المجالات للفقه والفهم والاعتبار والاتعاظ كيف لا وهم خير خلق الله، وقد أمرنا الله سبحانه

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٩٣-٤٣٩٤.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٠٠.

(٣) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٤٤.

وتعالى باتباعهم والإيمان بهم، وعدم التفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافةً، وختم بي النبيون)[1].

قال الله تعالى وهو يبين كفر قوم شعيب حين ردوا على نبيهم عليه السلام قوله واستخفوا به، فكانت سببًا في انتقام الله منهم.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١﴾ [هود:٩١].

في هذه الآية يحدثنا المولى عز وجل عن رد قوم شعيب عليه السلام عليه حين دعاهم للإيمان والتوحيد، فقالوا يا شعيب ما نفهم كثيرًا مما تقول كوجوب التوحيد، وحرمة البخس، وما ذكرت دليلًا عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم، وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه، وأنك ضعيف لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا، أو مهينًا لا عز لك، ولولا قومك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة، لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه، وما أنت علينا بعزيز فتمنعنا عزتك عن الرجم، وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب، والتهديد[2].

وقال الله تعالى وهو يبين دعوة موسى عليه السلام ربه أن يحل عقدة من لسانه من أجل أن يفقه القوم قوله، فقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾ [طه:٢٧-٢٨].

وكان في لسانه عليه السلام ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون، وقد أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام قوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص:٣٤].

فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة، والبيان عن المعاني[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، ٩/ ٣٦، رقم ٧٠١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ، ١/ ٣٧١، رقم ٥٢٣.

(٢) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٣/ ١٤٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص

قال ابن كثير: «وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢]. أي: يفصح بالكلام»[1].

وقال تعالى في معرض حديثه عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه قائلا لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦١-٦٢].

فقال: «﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي: لست ضالًا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة.

ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها.

ولهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون»[2].

وقال تعالى وهو يتحدث عن النبي صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة، هو الذي بدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم منها، وجعلكم عمارا لها، فاسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، وارجعوا إليه بالتوبة النصوح. إن ربي قريب لمن أخلص له العبادة، ورغب إليه في

٥٠٤.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٣.

التوبة، مجيب له إذا دعاه[1].

وقال تعالى مبينا كيفية مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨].

ألم تر إلى من عمى عن أدلة الإيمان وجادل إبراهيم خليل الله فى ألوهية ربه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه -الذى وهبه ربه- من نور الفطرة إلى ظلام الكفر فعندما قال له إبراهيم:إن الله يحيى ويميت، بنفخ الروح فى الجسم وإخراجها منه، قال:أنا أحيى وأميت بالعفو والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته:إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب إن كنت إلها كما تدعى.

فتحير وانقطع جدله من قوة الحجة التى كشفت عجزه وغروره، والله لا يوفق المصرين المعاندين لاتباع الحق[2].

وهكذا نجد أن في أقوال الرسل مجالا واسعًا للعلم والمعرفة والهداية لأحسن السبل، كما أن فيها العبرة والموعظة الحسنة في جميع مناحي الحياة.

رابعًا: الآيات الكونية:

النظر في الآيات الكونية والتفكر والتدبر فيها يعتبر من مجالات الفقه والمعرفة، كما قال تعالى في آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران:١٩٠].

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فذكر هذه الآية»[3].

قال ابن عميرٍ لعائشة رضي الله عنها: (أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي، قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٢٢٨.

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥٨.

يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟، قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠]) الآية كلها[١].

وكما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت:٥٣].

قد تعددت تأويلات المفسرين في هذه الآية حيث قالوا: إنها عنت آيات الله ودلائل وحدانيته وربوبيته في مختلف مشاهد الكون ونواميسه، وفي تركيب أجسامهم أنفسهم، كما قالوا إنها عنت ما تحقق من وعد الله ووعيده بما كان من هلاك طواغيت الكفر منهم في بدر وغيرها وفتح مكة، واعتراف جمهور العرب بأن الإسلام هو دين الحق، ودخولهم فيه ثم انتصار الإسلام، وانتشاره في آفاق الدنيا.

وكلا القولين وجيه ووارد، والقول الثاني متسق مع البشائر والتطمينات القرآنية العديدة[٢].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾ [الأنعام:٦٥].

يبين المولى سبحانه وتعالى أنه هو وحده القادر على أن يبعث عليكم في أي وقت يريده عذابًا من فوقكم بإسقاط السماء قطعًا أو شيء منها كالحجارة التي حصب بها قوم لوط وأصحاب الفيل أو بتسليط أكابركم، أو من تحت أرجلكم بالخسف أو إثارة الحيات أو غيرها من الأرض كما وقع لبعض من سلف، أو بتسليط سفلتكم وعبيدكم عليكم، أو أن يجعلكم متفرقين، كل شيعة على هوى، فيكون ذلك سببًا للقتل فيساوي في ذلك بين الحرم وغيره، ويصير التخطف بالنهب والغارات عامًا، كل هذا التصريف في الوجوه البديعة النافعة البليغة ليكون حالهم حال من يرجى فهمه وانتفاعه به، كان هذا العذاب أو القرآن المشتمل على الوعد والوعيد والأسباب المبينة للخلق جميع ما ينفعهم ليلزموه وما يضرهم ليحذروه[٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التوبة، رقم ٦٢٠، ٢/ ٣٨٦.
وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ١٤٧.

(٢) انظر: التفسير الحديث، عزة دروزة ٤/ ٤٣٣.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ١٤٣- ١٤٥.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾ [الأنعام:٩٨].

أي: الله هو الذي أنشأكم من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام، فلكم استقرار في الأصلاب، أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام، أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع، فمنكم قار ومنكم مستودع، لأن الاستقرار منا دون الاستيداع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر[(١)].

وقال الله تعالى وهو يحدثنا عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه للتوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح:١٥-٢٠].

«ما لكم لا تخشون الله وقدرته على كل شيء؟ وما لكم لا ترهبون سطوته فتؤمنوا به وتصدقوا برسله؟ وهو القادر على كل شيء، وهو الذي خلقكم في أطوار مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة، ألم يخلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجكم أطفالا ثم كنتم شيوخا، أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء فما لكم لا تخافون عظمة الله؟ ولا تؤمنون بيوم القيامة! ثم لفت نظرهم إلى هذا الكون بعد أن نبههم إلى ما في أنفسهم من آيات فقال:ألم تروا السماء كيف خلقت؟ لقد خلقها الله سبع سموات طباقا، ما ترى فيها من نقص ولا تفاوت، وجعل القمر في إحداهن نورًا، وجعل الشمس في أخرى سراجًا وهاجًا.

يا سبحان الله لقد جعل الحكيم العليم للقمر نورًا، وللشمس سراجًا، لأن الدنيا ستصبح بنور الشمس على أنه نور قوى شديد، ونور القمر بسيط يضيء في الليل نوعا ما، وهو نور منعكس ليس من ذات القمر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس:٥].

وقد توصل العلم إلى بعض الحقائق الثابتة في كتاب الله ثم لفت نظرهم إلى أنفسهم فقال: والله أنبتكم من الأرض نباتًا نعم هو خلقنا من تراب، فعناصرنا المادية تراب مخلوط بماء، ثم كانت النطفة، والنطفة خلاصة الدم، والدم من الغذاء والغذاء من الأرض، فالله سبحانه أنبت

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ١٧٤.

الإنسان من الأرض نباتا كالشجر، ولكنه ميزه عنه بالحياة الحيوانية، ثم كمله بالعقل والتفكير، وشرفه بالرسالات الإلهية، فما لكم لا تؤمنون، لأي سبب تكفرون.

ثم بعد هذا يعيدكم إلى الأرض أمواتا، ثم يخرجكم منها إخراجا للبعث والجزاء ثم لفت نظرهم إلى الأرض التي أقلتهم فقال:لقد جعلت لكم الأرض بساطًا، فهي ممهدة للعيش، ميسرة سهلة للانتقال، لتسلكوا منها طرقا واسعة توصلكم إلى أغراضكم»[1].

وقال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾ [الرحمن:١٩-٢١].

والمراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر الملح. والبرزخ: الحاجز الذي يحجز بينهما، بقدرة الله تعالى. والمعنى: خلق الله تعاليالبحرين، وأرسلهما بقدرته في مجاريهما، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالأخر، ومع ذلك لم يختلطا، بل يبقى المالح على ملوحته. والعذب على عذوبته، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يفصل بينهما، بحواجز من أجرام الأرض، أو بخواص في كل منهما، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز، من أن يختلطا، ولولا ذلك لاختلطًا وامتزجًا، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله تعالى، ورحمته بعباده، إذ أبقى الله تعاليالمالح على ملوحته، والعذب على عذوبته، لينتفع الناس بكل منهما في مجال الانتفاع به فالماء العذب ينتفع به في الشراب للناس والدواب والنبات والماء الملح ينتفع به في أشياء أخرى، كاستخراج الملح منه، وفي غير ذلك من المنافع ومن بديع صنع الله في هذا الكون، أنك تشاهد البحار الهائلة على سطح الأرض، والأنهار الكثيرة، ومع ذلك فكل نوع منهما باق على خصائصه، مع أن كلا منهما قد يلتقي بالآخر. والمراد بالبرزخ بينهما: الفاصل بين الماءين: الحلو والملح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما في كل منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به وهذا من مسائل الثقل النوعي[2].

قال سيد قطب في تفسيره: «والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب، ويشمل الأول البحار والمحيطات، ويشمل الثاني الأنهار. ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله.

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة

---

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٧٥٤-٧٥٥.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٣٦.



الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافا. فهو مقدر تقديرا عجيبا. الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ويشغل اليابس الربع. وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور-ومعظمها سام-فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع- ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء-أي المحيط-ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهي التي تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله. وأعظمها الأنهار.

والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب. وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة، من نبات وحيوان وإنسان وتصب جميع الأنهار-تقريبا-في البحار. وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها. ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله. فلا يبغيان»[1].

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

أي: أبعثكم -أيها الناس- بعد الموت أشد في تقديركم أم خلق السماء؟ رفعها فوقكم كالبناء، وأعلى سقفها في الهواء لا تفاوت فيها ولا فطور، وأظلم ليلها بغروب شمسها، وأبرز نهارها بشروقها. والأرض بعد خلق السماء بسطها، وأودع فيها منافعها، وفجر فيها عيون الماء، وأنبت فيها ما يرعى من النباتات، وأثبت فيها الجبال أوتادًا لها. خلق سبحانه كل هذه النعم منفعة لكم ولأنعامكم.

إن إعادة خلقكم يوم القيامة أهون على الله من خلق هذه الأشياء، وكله على الله هين يسير[2].

خامسًا: الأحكام الشرعية:

تعتبر الأحكام الشرعية مجال من مجالات الفقه والفهم والتدبر لما تضمنته

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥٢- ٣٤٥٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٥٨٤.

من حكم وفوائد وعلل.

ففي فريضة الصلاة: قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥]

أي: اتل ما أنزل إليك من هذا القرآن، واعمل به، وأد الصلاة بحدودها، إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات؛ وذلك لأن المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء. والله يعلم ما تصنعون من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه[1].

وفي فريضة الصيام: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣]

أي:يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم حيث كان الصوم مفروضًا على من تقدمنا من الأمم لعلكم بسبب هذا الصيام تتقون الله تعالى، وتخشون غضبه، وتعملون بأوامره؛

ومن هذا يعلم أن الصيام يبعث على الإيمان الصادق، ويرقق القلب، ويصفي النفس، ويعين على خشية الله تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياء في تحقيق مآربهم، والأولياء في تهذيب نفوسهم، والخاصة في شفاء قلوبهم، والعامة في شفاء جسومهم[2].

وفي حكم القصاص قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:١٧٩]

أي: وفي شرع القصاص لكم-وهو قتل القاتل-حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النفوس. وفي الكتب المتقدمة:القتل أنفى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز[3].

وفي مجال تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠]

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إنما الخمر:وهي كل مسكر يغطي العقل، والميسر:وهو القمار، وذلك يشمل المراهنات ونحوها، مما

(١) انظر: المصدر السابق ص ٤٠١.

(٢) انظر: أوضح التفاسير ص ٣٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٢.

فيه عوض من الجانبين، وصدٌّ عن ذكر الله، والأنصاب:وهي الحجارة التي كان المشركون يذبحون عندها تعظيمًا لها، وما ينصب للعبادة تقربًا إليه، والأزلام:وهي القداح التي يستقسم بها الكفار قبل الإقدام على الشيء، أو الإحجام عنه، إن ذلك كله إثمٌ من تزيين الشيطان، فابتعدوا عن هذه الآثام، لعلكم تفوزون بالجنة[1].

وفي مجال آداب الاستئذان: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور:٢٧].

النداء للذين آمنوا، وفي ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشى إزعاجها، فعليكم أن تطلبوا الأنس بأهلها وتزيلوا الوحشة التي تحدثها المفاجأة، والسين والتاء للطلب، وقيل حتى تستأذنوا ونقول:الاستئناس أدق في التعريف وأدل على الاستعلام، لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس فطلب الأنس وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن في تحقيق طلب الإذن، والاستجابة بالإذن فعلًا.

وإن هذا يتضمن في معناه ومغزاه النهي عن التجسس والتحسس، وظن السوء، وأنه يجب أن يظن خيرًا.

وإنه من تمام الاستئناس السلام، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يدخل بيتا سلم ثلاث مرات، ولا يكتفي بسلام واحد إعلامًا لمن يدخل عليهم، واستئناسًا لهم، وإزالة لوحشة المفاجأة[2].

كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(الاستئذان ثلاثٌ، فإن أذن لك، وإلا فارجع)**[3].

وفي مجال أحكام القتال: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

أي:إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفًا فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزمًا إلا في حال التوجه إلى

(١) انظر: التفسير الميسر ص ١٢٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الإستئذان، ٣/ ١٦٩٦، رقم ٢١٥٤.

قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغره مكيدة وهو من باب «الحرب خدعة» أو منضمًا إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم فقد رجع بسخطٍ عظيم ومقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم وبئس المرجع والمآل[1].

وسائل تحصيل الفقه

وسائل تحصيل الفقه متعددة وكثيرة يمكن تلخيصها في الآتي:

١ . التعلم على أيدي الراسخين في الفقه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢٢].

أي: وما كان ينبغي للمؤمنين في غير النفير العام أن يخرجوا جميعًا للقتال، فلولا نفر وخرج للقتال من كل فرقة كبيرة كالقبيلة أو البلد جماعة قليلة يقدر عددها بقدر الظروف والملابسات، وذلك ليتأتى للمؤمنين في جملتهم التفقه في الدين والوقف على أسرار التنزيل، فيكون حول النبي صلى الله عليه وسلم جماعة يتعلمون منه الأحكام، ويأخذون عنه القرآن حتى إذا ما رجع المجاهدون من الميدان بلغوهم ما نزل من القرآن وأوقفوهم على ما جد من الأحكام، وذلك كله رجاء أن يحذروا عقاب الله ويخافوا بطشه.

ومن هنا نعلم أن الآيات تشير إلى وجوب الجهاد العام إذا ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وكذا الحاكم العام للغزو،

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٦١.

أي: في حالة النفير العام وهذه تقدر بظروفها أما في غيرها فيخرج للجهاد بعض الشعب لا كله، وتشير الآية إلى أن تعلم العلم أمر واجب على الأمة جميعًا وجوبًا لا يقل عن وجوب الجهاد والدفاع عن الوطن واجب مقدس، فإن الوطن يحتاج إلى من يناضل عنه بالسيف وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان، بل إن تقوية الروح المعنوية، وغرس الوطنية وحب التضحية، وخلق جيل يرى أن حب الوطن من الإيمان، وأن الدفاع عنه واجب مقدس. هذا أساس بناء الأمة، ودعامة استقلالها.

وتشير الآية الكريمة إلى أن غاية طلب العلم هو التفقه في الدين، وفهم أسراره فهما تصلح به نفس العالم حتى يكون ربانيًا وقرآنيًا، وأن أثر ذلك في الخارج هو الدعوة إلى الله، وإنذار قومك إذا رجعت إليهم، فتعلمهم، وتثقفهم، وتهديهم، وتربيهم على حب الخير، وعلى حب العمل والجد، وأن الله يحب المؤمن القوى في نفسه وعقله وخلقه وعلمه وبدنه، وهذه هي مهمة الرسل الكرام.

وإن وضع الآية التي تشير إلى العلم والتعلم في وسط آيات الجهاد والقتال لمن المعجزات التي كشف عنها هذا العصر، فإن الحروب اليوم تعتمد على العلم والفقه الحربي أكثر مما تعتمد على السلاح[1].

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور[2].

دلت الآية على الأحكام التالية:

١. الجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، إذ لو نفر الكل لتعطلت مصالح الأمة، وتضررت الأسر والأولاد، فليخرج فريق من المسلمين للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين، ويحفظون الحريم، ويصونون مصلحة البلاد، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع.

٢. وجوب طلب العلم، والتفقه في القرآن والسنة، وهو فرض على الكفاية لا على الأعيان بدليل قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ٢/ ٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٥.

[النحل:٤٣]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم)[1]. والطائفة وإن أطلقت على الاثنين والواحد في اللغة، فلا شك إن المراد بها هنا جماعة لقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ فجاء بضمير الجماعة، ولأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب.

٣. يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم لأن الآية أمرت بإنذارهم إلى الدين الحق، وعليهم أن يحذروا الجهل والمعصية، ويرغبوا في قبول الدين، فغرض المعلم الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم اكتساب الخشية.

وطلب العلم ينقسم قسمين:

- فرض على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام.
- وفرض على الكفاية؛ كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه.

وطلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل، عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[2].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافرٍ)[3][4].

٢. التفكر والتدبر.

ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩].

القرآن فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٤، ١/ ٨١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٢٧، رقم ٣٩١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل العلم على العبادة، رقم ٢٦٨٤، ٥/ ٤٨.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ٧٨-٨٠.



إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

أنزله الله ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

وأولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب[1].

٣. الجد والاجتهاد.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم:١٢].

أي: يا يحي خذ الكتاب بجد واجتهاد، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب، فإن بركة العلم في العمل به، وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا فهم الكتاب، والعمل بأحكامه[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

أي: الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، لنرشدهم إلى الطرق الموصلة إلينا.

دلت الآية على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين[3].

٤ . الدعاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه:١١٤].

ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٢.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ٩/ ٢٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٦.

على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة وهي من الله والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت[1]، قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: (اللهم فقهه في الدين)[2].

٥. التخلي عن الذنوب والمعاصي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أي: واتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم في الدارين وحفظ أموالكم، ولولا هديه لكم لم تعلموا شيئًا، وهو العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئًا من الأحكام فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد، وجلب المصالح لمن اتبع شرعه وهداه[3].

جاء في تفسير الماتريدي: « علم الموهبة، ويقصد به العلم اللدني الرباني، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥].

الذي يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ويفتح قلبه لفهم أسراره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينال هذا العلم من كان في قلبه بدعة أو كبر أو حب للدنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وما أجمل قول الشافعي رحمه الله: قال الإمام الشافعي رضي الله عنه ورحمه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي»[4].

(١) انظر: المصدر السابق ص ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، ١/ ٤١، رقم ١٤٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٣/ ٧٧.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٢٧٥.

موانع الفقه

لا شك أن الفقه نعمة من الله عز وجل لا يعطاها إلا من أخلص العبادة لله والتزم الطاعات واجتنب المحرمات، ولهذا ينبغي لمن أراد الحصول على الفقه والفهم أن يبتعد عن كل أسباب وموانع الفقه وهي كثيرة ومتعددة يمكن أن نجملها في الأمور الآتية:

١ . الكفر.

إن أعداء الإسلام من كفار ومشركين في كل زمان ومكان قد حرموا من نعمة الفقه والفهم؛ لأنهم يعادون الله ويحاربون أوليائه ظنًا منهم أنهم بهذا يحققون السعادة لأنفسهم من خلال استغلال ثروات بلاد المسلمين واستعمارها، وقد غفل هؤلاء أن الحرب على الله ورسله هي حرب خاسرة وأن معيشتهم ستكون ضنكا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال:٦٥].

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، وحثهم عليه حثًا شديدًا حتى يبذلوا النفس والنفيس في سبيل الله طيبة نفوسهم بهذا، وذلك ببيان فضيلة الجهاد وأنهم ينتظرون في الجهاد إحدى الحسنيين: إما الشهادة، ويا لها من شرف!! وإما الغنيمة والنصر. واعلموا أن الواجب عليكم أن الواحد يقاتل عشرة من الكفار، إذ هناك فرق شاسع بين من يقاتل عن عقيدة ثابتة ونفس مطمئنة، وبين من يقاتل مكرها أو مأجورا أو لغرض دنيوى بسيط.

إن يكن منكم عشرون صابرون محتسبون أجرهم عند الله يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة صابرة على هذا الشرط يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بالله وبرسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، ذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون الأسرار الحربية ونظامها الذي يكفل النجاح، وهم قوم لا يفقهون عن عقيدة وحجة، ثم هم لا يؤمنون بالبعث[١].

ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:٦٦].

فأصبح على المجاهد أن يثبت أمام اثنين.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ١/ ٨٤٣.

[المنافقون:٣].

تبين الآية كيف أن المنافقين حين ارتدوا عن الإيمان وأصبحوا كافرين حرموا من نعمة الفقه، أي:ما نعي عليهم من مساوئهم بأنهم آمنوا، أي:ظاهرًا ثم كفروا، أي:سرًا (فطبع على قلوبهم) أي: ختم عليها بما مرنوا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيئات المنكرة، فحجبوا عن الحق فهم لا يفقهون، أي:حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين[1].

٢. النفاق.

إن ظاهرة النفاق من أخبث الظواهر وشرها لما يشكله المنافقون من خطر على الإسلام من حيث مشابهتم للكفار في كفرهم والزيادة عليهم في أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٨-٩].

وقال الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون:٧].

وهذا من شدة عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمين لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قالوا بزعمهم الفاسد:لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعى هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور فبين تعالى أنه يؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ولكن المنافقين لا يفقهون فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

وإذا أنزلت سورة قرآنية فيها فضيحة أسرارهم، تعجبوا وتأملوا وتسللوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وتلفتوا متغامزين قائلين:هل يراكم الرسول أو المؤمنون إذا خرجتم؟! ثم ينصرفون عن طريق الاهتداء، ويتولون عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٣٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٥.

يقبلونه ولا يفهمونه، ولا يفهمون شيئًا عن الله ولا عن رسوله، ومن أعرض عن ساحة الإيمان والخير، أعرض الله عنه، وصرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان، وعن الخير والنور، وهذا إما دعاء عليهم به، أو إخبار عن أحوالهم، وذلك الصرف الإلهي بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه[1].

وقال الله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧].

وإذا كان أولو الطول والسعة والقوة في أبدانهم قد قالوا ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ولا تستنفرنا في جهادك الذي بعدت فيه الشقة، وعظمت فيه المشقة، فقد﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، والخوالف جمع خالفة، وهي المرأة المتخلفة عن الجهاد، ويطلق على ما لا خير فيه، أي أنهم رضوا أن يكونوا كالنساء القاعدات في البيوت، والأشياء التي لا خير فيها ولا منفعة، أي رضوا بحياة الدعة والاسترخاء ولو كان معها الذلة، وتركوا حياة الكد والتعب ولو كان فيها العزة.

وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي أنه بهذه الحال وأخواتها، مما فروا فيها من الجهاد فرار الجبناء، فسدت نفوسهم، وأغلقت قلوبهم عن حب الخير والعيش الكريم، وبني للمجهول للإشارة إلى الأسباب المتراكمة التي توالت على نفوسهم، وطبعتها على النفاق، فطبع مع النفاق الذلة والاستهزاء والكذب، وإخلاف الوعد، وإن مدوا أعناقهم للذلة.

إن النفاق يولد الجبن، والجبن يولد المذلة والكذب وكل قبائح النفس، ولذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ و (الفاء) تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأن طبع القلب على النفاق يفسد الفكر، فلا ينظر إلى عواقب الأمور، ولا ما تنتهي إليه، وأعيد الضمير في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ لتأكيد وصفهم، وثبوت حالهم، والفقه كما ذكرنا هو العلم بلباب الأمور وغايتها، فهم لم يعرفوا أن موقفهم لو سلك المؤمنون مسلكه لذلوا، ولذهبت ريحهم، ولم يدركوا أنهم بما يفعلون يقون أنفسهم من مشقة الجهاد، ولكن يكونون مهينين في الدنيا، وتنالهم جهنم وبئس المصير[2].

٣. الطبع على القلوب.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٣٤.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٣.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام:٢٥].

والمعنى والمقصد من هذه الآية أن مشركي مكة كانوا في أعجز موقف، حين حاولوا رد الحق القرآني بالدعوى المجردة، ومنهم فريق كانوا يستمعون للنبي صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات الغباء وصمم الآذان، يرون الآيات الناطقة بالحق فلا يؤمنون بها، وإذا جاؤوا للمجادلة أي المقابلة في الاحتجاج، قابلوا بدعوى مجردة فارغة من البرهان المقبول، والعقل السليم لأن الله تعالى-بسبب عنادهم وإصرارهم على شركهم-جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم ثقلا أو صمما عن السماع النافع لهم.

فمهما رأوا من الآيات البينات والبراهين الصادعة بالحق لا يؤمنوا بها، وصاروا بلا فهم ولا إنصاف، وإذا جاؤوا يحاجون النبي ويناظرونه في الحق وفي دعوته، قالوا قولًا تافهًا: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من أخبار الأولين وأقاصيصهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ، وما هي إلا نوع من خرافات وأباطيل القدماء، وهم بهذا الموقف اللاعقلاني والدعائي بمجرد الأقاويل المبطلة، ينهون الناس عن اتباع الحق الأبلج وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد للقرآن، ويبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون، ولا يتركون غيرهم ينتفع[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء:٤٦].

أي: صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافا مانعا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، وفي آذانهم صمما وثقلا فيها يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه؛ لأن غلافا وضع بينها وبين النور، فلم تفقه أي لم تدرك وتتدبر في بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

وإذا ذكرت ربك الذي خلقك وخلقهم وربهم وحده من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعتراهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرين على أدبارهم نافرين من الحق، يسارعون بالتولي والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لا بإقبالهم، وهذا النص يصور شخصًا رأى شيئًا فهاله ما رأى فولى مدبرًا، رجع مدبرًا نافرًا كأنه رأى شيئًا مخيفًا، اقشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٣٩.

الحق، وإقبالهم على الوثنية الباطلة، فالأوهام التي استكنت في نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حسبوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن وعظ بآيات ربه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قدمته يداه من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها، إنا جعلنا على قلوبهم أغطية، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير، وجعلنا في آذانهم ما يشبه الصمم، فلم يسمعوه ولم ينتفعوا به، وإن تدعهم إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا إليه أبدًا[2].

٤ . عجمة اللسان.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف:٩٣].

قال المفسرون: ذهب ذو القرنين متوجهًا من المشرق، قاصدًا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قومًا، لا يكادون يفقهون قولًا لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم، وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم[3].

قال الشعراوي في تفسيره: « أي:لا يعرفون الكلام، ولا يفقهون القول؛ لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم، وهؤلاء لا يقولون كلامًا، ولا يفهمون ما يقال لهم، ومعنى: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ لا يقربون من أن يفهموا، فلا ينفي عنهم الفهم، بل مجرد القرب من الفهم، وكأنه لا أمل في أن يفهمهم، لكن يكف نفى عنهم الكلام، ثم قال بعدها مباشرة: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف:٩٤]. فأثبت لهم القول؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة، واحتال على أن يجعل من حركاتهم كلامًا يفهمه وينفذ لهم ما يريدون، ولا شك أن هذه العملية احتاجت منه جهدًا وصبرًا حتى

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٩٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٠٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

يفهمهم ويفهم منهم، وإلا فقد كان في وسعه أن ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون، فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير، والذي لا يألو جهدًا في نفع القوم وهدايتهم.

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس»[1].

ولهذا ينبغي على الداعية أن يحسن الكلام، وأن يكون الكلام مطابقًا لواقع الحال كما هو مفهوم البلاغة.

ولهذا نجد أن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم كما جاء في الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافةً، وختم بي النبيون)[2].

(جوامع الكلم): القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني[3].

أثر الفقه الصحيح على الفرد والأمة

ما من شك في أن للفقه الصحيح أثرًا كبيرًا وفعالًا على الفرد والأمة، ولهذا نجد أن أول آيات القرآن نزولًا، كانت دعوة صريحة للقراءة والعلم والتعلم، كما قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥].

وما يستتبع ذلك من تطبيق لما نتعلمه ونتوصل إليه، وآثار ذلك على الفرد والأمة.

ومن هذه الآثار:

١. الاستقام والمسؤلية الفردية، قال الله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥].

٢. عدم الاغترار بالدنيا والركون إليها، قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد:٢٠]

٣. تبني مجتمعًا موحدًا ومتماسكًا ومستقيمًا، قال الله تعالى: ﴿نَسَخ

---

(١) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، ٩/ ٣٦، رقم ٧٠١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ، ١/ ٣٧١، رقم ٥٢٣.

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم ٥/ ٥.

﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤].

٤. الفقه الصحيح يشعر الإنسان أن الكون كله مسبح لله مما يدفعه إلى التمسك بهذا الدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء:٤٤]

٥. ترسخ مفهوم القضاء والقدر، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء:٧٨].

٦. الفقه الصحيح يشعر الإنسان أن ما أخطأه لم يكن يصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطؤه فلا يجزع، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة:٥١]

٧. ترسخ مفهوم المساواة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [الأنعام:٩٨].

٨. الفقه الصحيح يرسخ مفهوم المساواة بين الشعوب من حيث الإنسانية فكلنا خلقنا من آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

٩. الصبر والثبات عند ملاقاة الأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنفال:٦٥].

١٠. الفقه الصحيح يزرع في نفس الإنسان الشجاعة والصبر والثبات عند ملاقاة الأعداء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال:١٥]

١١. الفقه الصحيح يحذر من التخلف، والتقاعس عن فريضة الجهاد، ومحاربة أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾

[التوبة:٨١]، وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧].

١٢. البذل والعطاء بلا خوف ولا وجل، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون:٧].

١٣. الفقه الصحيح يدفع صاحبه إلى البذل والعطاء في سبيل الله دون خشية من فقر أو عوز، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١]

١٤. نشر العلم بين أبناء المجتمع، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

١٥. الفقه الصحيح يدعو إلى العلم والتعلم، وبيان فضل العلماء وعظيم أجرهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

موضوعات ذات صلة.

الجاهلية، الحكمة، السؤال، العلم



عناصر الموضوع

مفهوم الفلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (فلح) تدل على معنيين:

أحدهما: يدل على شقٍ.

والآخر: على فوزٍ وبقاء[1].

فمن إطلاقات المعنى الأول: الفلح: الشق والقطع. والفلح: الشق في وسط الشفة السفلى، فيقال: رجلٌ أفلح، وامرأةٌ فلحاء. وسمي الأكار فلاحا؛ لأنه يشق الأرض، ومنه قولهم: إن الحديد بالحديد يفلح[2]، والفلح: النجش، وهو زيادة المكتري ليزيد غيره فيغر به[3].

ومن إطلاقات المعنى الثاني: الفلاح: البقاء في الخير، وفلاح الدهر: بقاؤه. ومنه (حي على الفلاح) أي: هلم على بقاء الخير[4]، وقيل: الفوز بالبقاء الدائم[5]. وقيل: النجاة[6].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الفلاح اصطلاحًا: اسمٌ جامع للظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب[7].

فلفظ الفلاح إذًا يعم كل فلاح في الدنيا والآخرة، ومن ثم لم يكن «في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلمة الفلاح»[8].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٠.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٢٣٣، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٥٥.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٤٧.
(٤) العين، الفراهيدي ٣/ ٢٣٣.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٤٦.
(٦) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٩٢.
وانظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ١٨٦.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٢.
(٨) شرح السنة، البغوي ١٣/ ٩٤.



الفلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فلح) في القرآني الكريم (٤٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون:١]
الفعل المضارع	٢٣	﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام:٢١]
اسم الفاعل	١٣	﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٥]

وجاء الفلاح في الاستعمال القرآني بمعنى البقاء والفوز والسعادة[٢]، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. أي: «قد أدرك الذين صدقوا الله ورسوله الخلود في جنات ربهم، وفازوا بطلبتهم لديه»[٣]. وقال ابن كثير: «قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح»[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٢٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفوز:

الفوز لغة:

الفاء والواو والزاء كلمتان متضادتان. فالأولى النجاة والأخرى الهلكة، فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات وهلك[(١)].

الفوز اصطلاحًا:

«الظفر بالخير مع حصول السلامة»[(٢)].

الصلة بين الفوز والفلاح:

الفوز قريب لمعنى الفلاح، إلا أن لفظ الفلاح يختص بنوع من الفوز: وهو الفوز بالأمر العظيم الذي يغتبط به[(٣)]، ويتطلب اجتهاد في تحصيله، ويلحظ فيه معنى البقاء والدوام.

٢ النصر:

النصر لغة:

النون والصاد والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على إتيان خيرٍ وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم[(٤)].

النصر اصطلاحًا:

العون. ويختص لفظ النصر بأنه إعانة في مقابل العدو المتربص، إما بالظفر عليه، وإما بدفع مضرته[(٥)].

وقيل: هو الفوز والغلبة على الأعداء.

الصلة بين النصر والفلاح:

أن النصر أخص من الفلاح؛ فالنصر الظفر على العدو، والفلاح أعم من ذلك.

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٣٦٧.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٧.

(٣) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٤٣٥.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٠٨، الفروق اللغوية، العسكري ص١٨٩، الكليات، الكفوي ص٩٠٩.

٣ النجاة:

النجاة لغة:

«أصل النجاء: الانفصال من الشيء، ومنه: نجا فلان من فلان وأنجيته، ونجيته»[١].

فالنجاة هي الخلاص من كل مخوفٍ مرهوبٍ ونظيرها السلامة[٢].

النجاة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النجاة والفلاح:

النجاة جزء من معنى الفلاح، المشتمل على الظفر بالمحبوب والسلامة من المرهوب.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٩٢.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢١٠.

منزلة الفلاح

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن منزلة الفلاح، والترغيب في تحصيله، ومن ذلك:

١. ذكر الأسباب التي تعين على تحصيل الفلاح.

قال جل وعز: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٢. التنويه بصفات عباد الله المفلحين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

٣. التنويه بذكر الثواب العظيم المقارن للفلاح في الدنيا والآخرة.

قال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

٤. ذكر نماذج مشرقة ممن اتصفوا بصفات الفلاح.

كالصحابة رضي الله عنهم عمومًا، ويلحق بهم من صنع صنيعهم ممن جاء بعدهم. قال جل ثناؤه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكالأنصار خصوصًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٥. الترهيب من الأعمال التي تمنع من تحقق الفلاح، وتكون سببًا من أسباب حرمانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

٦. التخويف من نقيض وصف الفلاح ومقابله وهو الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

وقال جل وعز: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

٧. التخويف من الآثار السيئة لمخالفة بعض أسباب الفلاح، كالاختلاف والفرقة والتنازع.

قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

أسباب الفلاح

الأسباب: جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره[١]. والمقصود به هنا الأعمال التي توصل إلى تحقيق الفلاح بإذن الله، وهي على ضربين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

أولًا: أعمال القلوب:

وهي حركة القلب وإرادته الموافقة لما استقر فيه من العلم والتصديق[٢].

وضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لذلك مثالًا بقوله: «فأما قول القلب: فهو التصديق الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول، وتوقيره، وخشية الله، والإنابة إليه، والإخلاص له، والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول»[٣].

ومن أعمال القلوب التي جعلها الله جل

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٥٨.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٢٨، ٦٧٢، ١٠/ ٢٧١، ٧٣٦.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٦٧٢.

ثناؤه سببًا في تحقق أصل الفلاح وكماله:

١ . الإيمان.

وهو السبب الأعظم في كل فلاح دنيوي وأخروي، فكلما قوي الإيمان في قلب العبد واستحكم، كلما كمل فلاحه، وقد ذكر هذا السبب في موضعين من القرآن الكريم، وجاء ذكره فيهما في سياقين مختلفين:

السياق الأول: ذكر فيه الإيمان المطلق، والمراد به الدين جميعه، فهو بمعنى الإسلام، ويدخل فيه حينئذ الأعمال الظاهرة والباطنة. وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

والسياق الثاني: ذكر فيه الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح، في قوله جل ثناؤه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

والمراد به أصل الإيمان في القلب، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره[١].

وقد نص الله جل وعز في مواطن من كتابه الكريم على بعض أصول هذا الإيمان بمفردها، وعلق عليها تحقق ذلك الفلاح، ومنها:

٨. الإيمان بالغيب.

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

والمقصود به التصديق بكل ما غاب عن العبد مما لا تدركه الحواس ولا العقول وحدها؛ لأنه لا يعرف إلا بوحي الله إلى رسله، ومن ذلك ما أخبر الله به في كتابه العزيز، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه، والإيمان بالحياة بعد الممات[٢].

٩. الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

والمعنى أي: يصدقون بما جئت به من الله جل وعز، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم[٣].

وقد أمر الله جل ثناؤه بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وأخبر تبارك وتعالى أن الرسول صلى

(١) المصدر السابق ٧/ ٥٥١ وما بعده.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٢.

(٣) روي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٠.

الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذا الأصل العظيم، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي قرن المؤمنين هنا بالرسول صلى الله عليه وسلم، والإخبار عنهم جميعا بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين[(١)].

١٠. الإيمان باليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

والآخرة: اسم لما يكون بعد الموت، واليقين: هو العلم التام الذي لا يتطرق إليه شك. والمعنى: يوقنون بكل ما أعده الله لخلقه يوم القيامة، فهم موقنون بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، والثواب والعقاب. وخص الإيمان باليوم الآخر بالذكر مع دخوله في عموم الإيمان بالغيب، والإيمان بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أحد أركان الإيمان؛ وأعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل[(٢)].

١١. الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، ونصرته، وإتباع ما جاء به.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

اشتملت هذه الآية على أربعة أفعال، هي من أسباب حصول الفلاح في الدنيا والآخرة، وهي:

تصديق النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، والإقرار بنبوته، وتوقيره وتعظيمه، ونصرته على من يعاديه، ويلحق به تعظيم سنته صلى الله عليه وسلم ونصرتها، ثم إتباع القرآن وما تضمنه من شرائع الإسلام التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الآية أيضًا تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم؛ لأنهم أول وأعظم من تحققت فيهم هذه الصفات، ويلحق بهم من نصر دينه من بعدهم[(٣)].

ويدخل تحت هذا الأصل من أصول الإيمان: التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لحكم الله جل ثناؤه ، وحكم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ٤٨٣.

رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فإن من صفات المؤمنين الصادقين، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم، أنهم حين يدعون إلى ما جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم بذلك، سواء وافق ذلك الحكم أهواءهم، أم خالفها = يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج، وبدون أدنى تردد أو تباطؤ[1]. وهذا شرط الإيمان، قال جل وعز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٢ . التقوى.

وهي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من غضب ربه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، بفعل كل ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وترك كل ما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم[2].

وقد تكرر هذا السبب خمس مرات، في سياقات متنوعة:

١ . تقوى الله في مجانبة عادات الجاهلية، وخطوات المبتدعين الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام[3]، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٢ . تقوى الله في مجانبة ما حرمه الله من المعاملات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٣ . تقوى الله في ملازمة الصبر، والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤ . تقوى الله في ملازمة فعل الطاعات، وترك المحرمات، والجهاد في سبيل الله، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٢.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/ ٣٩، جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٣٩٨.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٦٧.

﴿تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

٥. تقوى الله في مجانبة كل ما كان صفته الخبث والرداءة، والخسة والفساد، من الاعتقادات، والأقوال، والأعمال القبيحة، والنفوس الخبيثة، والأموال المحرمة[١]، قال جل ثناؤه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وتقوى الله لما كانت جماع كل خيرٍ، وكانت تجمع حقوق الله وحقوق العباد؛ علق الفلاح عليها في جميع هذه الآيات تعلق المسبب بسببه؛ إيذانًا بأن تحقق التقوى سببٌ في تحقق الفلاح، وأن العبد كلما جاهد نفسه، واجتهد في تحقيق تقوى مولاه، كان فلاحه أكمل، وسعادته أعظم.

٣. الصبر والمصابرة.

الصبر من خصال الخير عظيمةٌ، التي لا يعلم جزاءها إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

من هدي إليه فقد هدي إلى خير عظيم، قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وقد جاء في موطنٍ واحدٍ تعليق الفلاح على مجموعة أمورٍ منها الصبر والمصابرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

والمراد بالصبر هنا الصبر على جميع معاني طاعة الله جل ثناؤه، فيما أمر به، وفيما نهى عنه، فيدخل فيه الصبر على الجهاد، والصبر على الصلوات وفرائض الإسلام، والصبر على المصائب، والصبر على فعل الخير. فلا يدع ذلك الدين، وتلك الطاعة لشدةٍ تعتريه ولا لرخاء حتى يأتيه اليقين. أما المصابرة فهي مصابرة أعداء الله، أهل الكفر والضلال، مع النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته، حتى يتحقق موعود الله، بإعلاء كلمته ودينه، والظفر والنصر لعباده للمؤمنين، والخزي لأعدائهم[٢].

٤. مطالعة آلاء الله ونعمائه[٣].

وهو من الذكر القلبي الذي يدخل تحت عموم قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إذ علق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة على تذكر نعم الله والتفكر فيها، وفي ذلك سرٌ لطيفٌ، وهو أن ذكر النعم، وإدامة النظر فيها، واستشعار عظمتها، يبعث في النفس تعظيم المنعم سبحانه، ومحبته، والخضوع له، والمداومة على شكره بالقلب واللسان

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٦، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٧.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٩٥.

والجوارح، فتقابل تلك النعم حينئذٍ بالطاعات.

٥ . التوبة.

وقد علق الفلاح بالتوبة تعلق المسبب بسببه في موضعين اثنين، وتنوع المراد بالتوبة في هاتين الآيتين لتنوع الخطاب والسياق القرآني فيهما:

أولًا: التوبة من الشرك: وجاء ذلك في آية مكية كان الخطاب فيها للمشركين، قال جل ثناؤه: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٤-٦٧].

فذكر تعالى في هذه الآية: صورة التوبة التامة، التي يكون فيها الجمع بين ترك القبيح، وتحري الجميل[1]. فهو جمع بين ترك الشرك، وبين الإيمان وإخلاص العبادة لله، مع قيامه بالعمل الصالح.

ثانيًا: التوبة من التقصير والغفلة[2]، التي لا يسلم منها إنسانٌ، وجاء ذلك في آيةٍ مدنية، كان الخطاب فيها لأهل الإيمان، فقال عز من قائل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فخاطب الله تعالى خيار خلقه أن يتوبوا إليه؛ بالرجوع إلى طاعته سبحانه في امتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وبالرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا. وفي خطاب المؤمنين وأمرهم بالتوبة الدليل على أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، وفي قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾، الحث على الإخلاص في أن تكون التوبة لله وحده، لا لأجل مقاصد فاسدة كالسلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك[3].

٦ . الإخلاص.

وقد جاء في سياق آيات الفلاح في القرآن الكريم التنبيه على مثال له: بالإخلاص في النفقة، فقال عز من قائل: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وذلك بأن يتوخى المسلم بنفقته -يوم يعطي ويطعم- إرضاء الرب جل ثناؤه، والطمع فيما عنده، فلا الرياء مقصده ولا السمعة، ولا الفخر باعثه ولا الشهرة، ولا مكافأة يد سابقة، قال جل ثناؤه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾

(١) المصدر السابق.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٧.

[الليل: ١٧- ٢٠].

إنما يبغي بذلك كله وجه الله، لا يريد جزاءً ولا شكورا، قال جل وعز: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

٧. الخشوع.

وقد علق الفلاح عليه في موطن واحد، في قوله جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والخشوع في الصلاة إنما يتحصل لمن فرغ قلبه للصلاة، واشتغل بها عما عداها، فأحضر قلبه بين يدي مولاه، واستحضر قربه وعظمته جل جلاله، وتدبر جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، فتنتفي بذلك الخواطر والأفكار الرديئة[١].

وإنما ذكر الخشوع مع الصلاة؛ لأنه بها أعلق، فهي أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته؛ ولذلك قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين، وفيه التنويه بشأن الخشوع، ومجيء ذلك في صورة الجملة الاسمية دلالة على ثبات الخشوع لهم ودوامه، وأنه أصبح لهم خلقًا[٢].

٨. موالاة الله ورسوله والمؤمنين، والبراءة ممن حاد الله ورسوله.

لما كان الحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان؛ أخبر الله جل ثناؤه أن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ومحبتهم ولو كانوا أقرب الناس[٣]، وأنه لا يجتمع في قلب المؤمن محبة الله، ومحبة من حاد الله ورسوله، وخالف أمر الله ونهيه، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن لوازم نهي المؤمنين عن مودة الكفار وموالاتهم؛ أن يكون ولاء المؤمن لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال جل وعز: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وعلق سبحانه على تحقق هذه الصفة كل فلاح دنيوي وأخروي، فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٠.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١١٥.

﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ثانيًا: أعمال الجوارح:

التوبة والإيمان والعمل الصالح، هذه ثلاثة أسباب علق الله جل ثناؤه عليها جميعًا الفلاح، وجمع بينها في آيةٍ واحدة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

والمتأمل فيها يتبين مدى الترابط بينها؛ فالإيمان كلما قوي بعث في النفس روح الأمل، فتجد العبد يعيش روحانية عالية تجذبه جذبًا إلى المبادرة للتوبة، والمسابقة في الأعمال الصالحات. فهو يعيش بين لحظات ندمٍ على ما مضى، يكفرها بتوبةٍ وضراعة لمولاه، ويعيش فرحة أملٍ تدفعه لحياةٍ أفضل، يغتنم فيها عمره.

والعمل الصالح هو أن يعمل بما أمره الله بعمله في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم[(١)]، فيؤدي الفرائض، ويكثر من النوافل، ويجتنب المعاصي، وكلما كانت حاله أكمل، كان فلاحه وفوزه وسعادته في الدنيا والآخرة أكبر. وقد

اشتملت آيات القرآن الكريم على أفعال للجوارح علق الله جل وعز عليها معاقد الفلاح، وفيما يلي ذكرها:

١ . الصلاة.

وهي من أعظم مباني الإسلام، التي علق عليها الفلاح، وقد جاء ذلك في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وتنوعت أساليبه في ذلك:

٦ . علق الفلاح على إقامة الصلاة.

قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٤-٥].

وإقامة الصلاة؛ إقامتها ظاهرًا وباطنًا، إقامتها ظاهرا: بأداء حدودها، وفروضها، والواجب فيها، على ما فرضت عليه[(٢)]. وإقامتها باطنا: بحضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها[(٣)].

وقد جاء التنبيه على أن هذه الإقامة

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١.

الظاهرة والباطنة للصلاة هي من أسباب تحقق الفلاح وذلك في قوله جل وعز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

٧. علق الفلاح على الركوع والسجود.

قال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وخصا بالذكر من بين سائر أعمال الصلاة؛ لأنهما أعظم أركانها وأشرفها؛ إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية، وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ تنبيه على أن الصلاة أهم العبادات، فهي عماد الدين[١].

٨. علق الفلاح على تعلق القلب بالصلاة واهتمامه بها.

وهذا من الرباط الذي يدخل تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد فسر الرباط في قولٍ بأنه انتظار الصلاة بعد الصلاة؛ لأن كل من صبر على أمرٍ، ولازمه وثبت عليه، يقال: ربط قلبه عليه، وربط نفسه[٢]. ويدل له ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات)؟. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط)[٣].

٢. النفقة في سبيل الله.

وعلق الفلاح عليها في موضعين من القرآن الكريم، في قوله جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

ولفظ النفقة في الآية عامٌ في جميع النفقات الممدوح بها، والمحمود عليها[٤]، ويشمل ذلك النفقات الواجبة والمستحبة، التي تبذل احتسابا وتقربًا إلى الله جل وعلا، على قدر ميسورهم وجهدهم. وأعلى تلك النفقة قدرًا الزكاة، فإن أحب الأعمال إلى الله الفرائض.

وقد بين سبحانه ذلك في سورة لقمان فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٥٣٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم ٢٥١، ١/ ٢١٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٠.

وإنما علق الفلاح على الزكاة والنفقة في سبيل الله؛ لما اجتمع فيها من تزكية للنفس وتطهيرها من الصفات الرذيلة، والإحسان إلى الخلق، وبها يتبين أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج محبوبه من المال، لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله(١).

٣. ذكر الله تعالى.

وقد علق الفلاح على ذكر الله في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها جاء ذكره فيها مقرونًا بعبادات هي من أعظم العبادات في الإسلام، فقد جاء مقرونًا بالجهاد في قوله جل وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وبالصلاة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

ومقرونًا بالإيمان وطهارة النفس من الشرك وبالصلاة معًا في قوله جل ثناؤه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤- ١٥].

وكثرة الذكر جاء بيانها في القرآن الكريم بأن يذكر العبد ربه في كل أحواله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣].

والذكر تربية للروح، به تتصل بخالقها، وفيه تظهر قوتها، وبسببه يتنزل المدد من خالق الأرض والسماء، ويأخذ الأسباب المادية والروحية يتحقق النصر والظفر على الأعداء، والإنسان المسكين إذا فقد حظه من ربه خسر كل شيءٍ من أمره(٢).

وكثرة الذكر سببٌ في انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وزوال الهم والغم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والموطن الرابع الذي علق فيه الفلاح على ذكر الله، كان الذكر فيها خاصًا، وهو ذكر آلاء الله ونعمه، قال سبحانه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إذ يستشعر العبد بقلبه عظيم منن الله عليه، فيعظم حبه ورجاءه له، وينطلق لسانه بالثناء على النعماء، وتقبل جوارحه على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٦.

(٢) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٥٤٧، ٥/ ٧٨.

الطاعة، فهو يذكر فيشكر، ويتحدث بفضل الله تعالى عليه، كما في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

٤ . الجهاد في سبيل الله.

وهو من أجل الطاعات وأفضل القربات؛ لما فيه من المصالح العاجلة، والمنافع الآجلة؛ إذ فيه محقٌّ لأعداء الله، وإعزاز للدين، وصون لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، مع ما فيه من المشقة العظيمة، من بذل للنفوس والأموال، ومفارقة للأهل والأوطان[١].

ولما كان الجهاد في سبيل الله كذلك وعد بالفلاح وعلق عليه في القرآن الكريم وعلى بعض أحواله وصفاته، في أربعة مواضع منه، وتنوعت الأساليب في ذلك:

١ . علق الفلاح على الرباط في سبيل الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. والمرابطة في الآية: «مرابطة الغزو في نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين»[٢]، وقد وردت الأخبار في بيان ثوابه، والترغيب فيه، فروى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[٣].

وروى مسلم، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن رسوله الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)[٤].

٢ . علق الفلاح على فعل الجهاد في سبيل الله مقرونا بغيره من الأعمال الصالحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]. والجهاد: بذل الجهد في قتال الأعداء من الكفار والمشركين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي التام في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد[٥]. ويدخل تحت لفظ الجهاد بذل الجهد واستفراغ

(١) أحكام الجهاد وفضائله، العز بن عبد السلام، ص٥٣، ٥٤، ٥٨

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم ٢٧٣٥، ٣/ ١٠٥٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، رقم ١٩١٣، ٣/ ١٥٢٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٠.

الوسع في مجاهدة الشيطان وخطواته، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء لحملها على فعل الطاعة وترك المعصية[1].

٣. علق الفلاح على الثبات عند لقاء الأعداء، وهو من عوامل الظفر والفوز في الدنيا، وقد جاء ذكر هذا السبب في موضع واحدٍ، مقرونًا بالإكثار من ذكر الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤. وعد الله المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بكل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

٥. فعل الخير والدعوة إليه.

وقد جاء عد ذلك من أسباب تحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، في قوله جل ثناؤه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

والخير «اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه»[2]، وروي عن مقاتل بن حيان تفسير الدعوة إلى الخير بالدعوة إلى الإسلام[3]، ومراده بالدعوة إليه: الدعوة إلى خصال الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده[4].

وفعل الخير والدعوة إليه صورة من صور تكاتف الأمة وتلاحمها في السعي إلى الرقي بأبنائها في مدارج الكمال، وتكميل جوانب النقص والحرمان، والجمع بينهما سبيل الأنبياء والمصلحين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٢.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧.
ونقل ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣١٢ قول أبي سليمان الدمشقي في تفسير الخير: بالعمل بطاعة الله. وهو من قبيل اختلاف العبارة والمعنى واحد، فطاعة الله في أمره ونهيه هو امتثال لشرائع الإسلام.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٦١، التحرير والتنوير ٤/ ٤٠.
واستدل ابن عاشور رحمه الله على أن الخير اسمٌ يجمع خصال الإسلام، بقول حذيفة اليمان رضي الله عنه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرٍ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟» الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، رقم ٦٦٧٣، ٦/ ٢٥٩٥. ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، رقم ١٨٤٧، ٣/ ١٤٧٥.

دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في موضع واحد عده من أسباب تحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة لأهل الخير والطاعة، وتركه مع القدرة سبب في حلول العقاب، ومنع إجابة الدعاء، والسؤال عنه يوم القيامة.

وهو صفة الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين، قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

«والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما»[(١)].

والمقصود به الأمر بكل ما يقرب العباد إلى الجنة، ويبعدهم من النار، والنهي عن كل ما يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة.

ومن أعظم الأمر بالمعروف: الدعوة إلى الله وحده، وعبادته لا شريك له، والدعوة إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ودينه الذي جاء به من عند الله. وأعظم النهي عن المنكر: النهي عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، ثم الأمر بعد ذلك درجات، فيؤمر بكل ما هو طاعة لربهم، وينهى عن كل ما هو معصية لربهم[(٢)].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٦١، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧، محاسن التأويل القاسمي ٥/ ١٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٢.

صفات المفلحين

أولًا: زكاة النفس، ووقايتها من الشح:

من صفات المفلحين أن أنفسهم أنفس زكية؛ لأنهم يسعون في تهذيبها وتزكيتها، قال جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ومادة زكى في اللغة تدل على النماء والطهارة[١].

ولفظ التزكية في الآيات عامٌّ يدخل فيه تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان الذي هو ضد الكفر، وبالطاعة التي هي ضد المعصية، وبالأخلاق الحميدة التي هي ضد الأخلاق الرذيلة، ويدخل فيه تزكية العمل بمتابعة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ومن الصفات التي لها آثارٌ ذميمة، وجاءت النصوص بذمها، والثناء على من زكى نفسه فتطهر منها، وتحلى بضدها صفة الشح؛ وقد جاء التصريح بأن توقي شح النفس من صفات المفلحين.

قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧، غريب القرآن، ابن قتيبة ص٣١.

[التغابن: ١٦].

وفي إضافة الشح إلى النفس، دلالة على أنه من طباع النفوس وغرائزها، ويدل لذلك قوله سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفي قول: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ إشارة إلى إمكان التوقي منه[٢]، ودفعه بمجاهدة النفس.

و«الشح هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه»[٣].

ويترتب على ذلك ضيق النفس وعدم إرادتها بل وكراهتها وصول الخير إلى الغير. وهذا أساس الشر والهلاك الظاهر والباطن؛ إذ يحمل صاحبه على البخل؛ بامتناعه عن نفع غيره، وعلى الظلم بإلحاق الضرر بالمنعم عليه في نفسه وماله وعرضه، ويحمل على الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمني زواله، والذي يجمع بين سيئتي البخل والظلم، فإذا كان الحال كذلك بين الأقارب كانت قطيعة الرحم[٤].

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٥٦.

(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص٧٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٣٤، ٢٨/ ١٤٤. ويدل لذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨، ٤/ ١٩٦٦ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم،

وأعظم نفوسٍ برئت من هذه الصفة، هي نفوس الأنصار أهل الدار، أنصار النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد زكاهم الله جل ثناؤه في كتابه الكريم بذلك، فقال عز من قائلٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثانيًا: المسارعة إلى الخيرات:

حث الله عزو جل عباده المؤمنين على فعل الخير، والسعي في طلب كل وسيلة تقرب إليه سبحانه، من الإيمان به، ومحبته، وطاعته، والعمل بما يرضيه، وعلق على هذا تحقق الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال عز من قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وجاء الحث فيهما بصورة الأمر في قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟﴾، الذي يتضمن معنى المسارعة والسابقة إلى فعل الطاعات والاستكثار من الخيرات[١].

وفي هذا دلالة أن من صفات المؤمنين المفلحين: المسابقة والمسارعة إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة. وقد ندب الله جل وعلا إلى هذه الصفة، فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وأثنى الله جل ثناؤه على أنبياءه عليهم السلام، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأثنى سبحانه على عباده المؤمنين من أهل الكتاب بهذه الصفة فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وعلى المؤمنين من هذه الأمة فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ومن لازم هذه المسارعة في الخيرات الاستكثار من الأعمال الصالحة، قال جل ثناؤه: في وصف عباده المفلحين: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

ثالثًا: أداء الأمانات والحقوق:

عظم الله جل ثناؤه شأن الحقوق وأمر

حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧١.

بالقيام بها، ومن ذلك قوله جل وعز: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وعظم سبحانه شأن من يرعى هذه الحقوق ويقوم بحقها، وجعل ذلك مناطًا للمدح في كتابه الكريم، فجاء في موطنين وصف المؤمنين المستحقين للفلاح بهذه الصفة.

الآية الأولى: قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

فاشتملت هذه الآية على صفتين من صفات عباد الله المفلحين:

١. أداء الأمانة.

وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، من فرائضه التي ائتمن الناس عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][1]، «وهي أمانة التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله»[2]. فجميع ما أوجبه الله على عبده فهو أمانة.

ومنها الاستجابة التامة، والسمع والطاعة المطلقة لحكم الله، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ويدخل في الأمانة أيضًا حفظ الجوارح من كل ما لا يرضي الله تعالى[3]. ومنها حفظ ما أؤتمن عليه من أمانات الناس الحسية كالأموال، والمعنوية كالأسرار، وتعاهدها بالرعاية، والمحافظة وعدم التضييع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨][4].

٢. الوفاء بالعهد.

وهو «حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدًا»، والوفاء به إتمامه وعدم نقض حفظه[5].

ولفظ الآية عام في جميع ما أخذ على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٩.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣١٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٩١، ٨٧٨.

الإنسان العهد بحفظه من حقوق الله -جل وعلا-، قال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

«وذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[١]، ومن الوفاء بالعهد حفظ ما بينه وبين الناس من حقوق والتزامات، يجب عليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه إهمالها والتفريط فيها[٢].

الآية الثانية: قال تبارك وتعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

فجعل الله جل ثناؤه من صفات عباده المفلحين القيام بحق القريب في الصلة والإحسان إليه بوجوه البر المتنوعة، وحق المحتاج والغريب المنقطع به الطريق في الزكاة والصدقة. فإن لم يكن عنده مالٌ يؤتيه للقريب والمحتاج فلا أقل من أن يرفق بهم بفعله وقوله، بكلام لين سهل، فيقول لهم معروفًا، ويعدهم خيرًا.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣١٩.

رابعًا: البعد عن المحرمات، وحفظ الفروج:

١. البعد من المحرمات.

وقد تنوعت الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في التنبيه والدلالة على هذه الصفة:

- جعل التقوى من أسباب حصول الفلاح للعبد، وتقوى الله «هو الامتناع عن المحارم، وتحري الواجبات»[٣]، وذكر الله في كتابه الكريم صورًا لبعض تلك المحرمات، منها: اتباع خطوات المبتدعين في الدين، كحال أهل الجاهلية الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام، ومقارفة الخبيث والرديء من الاعتقادات، والأقوال، والأعمال، ومجانبة ما حرمه الله من المعاملات كالربا.
- جاء التصريح بنفي أصل الفلاح أو كماله عمن ارتكب بعض المحرمات، كالكفر والردة عن الدين، والخمر، والميسر، والربا، والزنا. وفي هذا دلالة على أن من أخص صفات المفلحين البعد عن المحرمات.
- أن الله جل ثناؤه أثنى على المؤمنين بهذه الصفة فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٣٨.

﴿خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣].

«واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح»[1]، فيدخل فيه الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[2]. والإعراض عن اللغو هو بالبعد عنه، بأن لا يفعله، ولا يرضى به، ولا يخالط من يأتيه، كما قال -عز من قائل-: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢][3]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

- جاءت هذه الصفة في سياق شرطي، وأنه كلما تحققت هذه الصفة؛ عظم الفلاح في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. ويدخل تحت معنى هذه الآية، أن النفس جبلت على التطلع والحرص على ما تهواه وتشتهيه، فمن تابع نفسه في هواها، ولم يحجزه إيمانه، يوشك أن يقع في الحرام، فتزين له نفسه الزنا، والسرقة، وأكل أموال الناس ظلمًا[4]. ومن وفقه الله ووقاه حرص نفسه، فألجمها بلجام الإيمان، لم يحمله ذلك الشح على فعل الحرام، بل كان هو أشد مباعدة له، وتحقق له موعود الله، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

٢. حفظ الفروج.

فقد أمر الله جل ثناؤه بحفظ الفروج، فقال جل وعز: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾[النور: ٣٠].

وأثنى سبحانه على الحافظين لها، فقال: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

«ولما كانت هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل»[5]، ضمن النبي صلى الله عليه وسلم لمن حفظ فرجه الجنة، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من توكل لي ما بين رجليه، وما بين لحييه، توكلت له بالجنة)[6]. وأعظم الناس حفظًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦٢.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ١٠٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٨، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٨٨.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ١٠/ ٣١٢١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

لفروجهم هم المفلحون من عباد الله؛ لذلك وصفهم الله جل وعز به، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وذكر من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

ومفهوم الآية يتضمن أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين. ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم. فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك[1]، فكيف بجميعه.

وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٢٩ - ٣٠].

وتارة يكون بحفظه من النظر إليه[2]، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: **(احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)**[3].

موانع الفلاح. وأسباب حرمانه

نفي مطلق الفلاح عن الحي المعين مهما بلغ في ظلمه وكفره، ومشاقته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم حق لله وحده جل ثناؤه ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه، وهو يعلم خاتمة كل أحدٍ، ورحمته وسعت كل من أقبل إليه بالإيمان.

ويدل لهذا المعنى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: **(كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله)؟** فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][4].

وبالتتبع والاستقراء لآيات الفلاح في القرآن الكريم يمكن حصر موانع الفلاح وأسباب حرمانه، وتصنيفها فيما يلي:

المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم ٦٤٢٢، ٦/ ٢٤٩٧.

(١) الداء والدواء، ابن القيم ص٣٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣/ ٢٣٥، وأبو داود في سننه، كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، رقم ٤٠١٧، ٦/ ١٣٤، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، رقم ٢٦٧٠، ٥/ ٩٧، وابن ماجه في سننه، كتاب أبواب النكاح، باب التستر عند الجماع، رقم ١٩٢٠، ٣/ ١٠٦.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم ١٧٩١، ٣/ ١٤١٧.

أولًا: الكفر والردة:

١. الكفر.

وقد جاء التصريح بعده من موانع الفلاح في موضعين من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

وإنما كان الكفر من موانع الفلاح؛ لأنه أعظم ما ينافي الإيمان وتوحيد الله الذي من أجله خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب. ولفظ الكفر في هاتين الآيتين يشمل شرك من يدعو مع الله إلهًا آخر، لا برهان له به، والتكذيب بالرسل عليهم السلام، وبما وعدوا من ثواب الآخرة كما هو شأن قارون، وهذا أعظم الكفر. ويشمل كذلك الكفران بنعمة الله وجحودها[١].

وقد بين الله تعالى في موطن آخر أن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي من عمل الشيطان، وعلق سبحانه الفلاح والفوز على البعد عن هذه المعبودات واجتنابها، وصرف العبادة له وحده، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢. الردة.

وهي الرجوع من الإسلام إلى الكفر[٢]، وجاء التصريح بنفي الفلاح عمن ارتد عن دينه في موضع واحدٍ، قال الله جل ثناؤه في قصة الفتية الذين آمنوا بالله، وفروا بدينهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]. أي ولن تدركوا السعادة والفوز في الدنيا والآخرة إن عدتم إلى الكفر بعد إذ أنقذكم الله منه؛ لأن الكفر يحبط العمل ويوجب الخلود في النار، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثانيًا: ارتكاب الكبائر:

الكبائر: جمع كبيرة، وهي كل ذنب ترتب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة[٣]. والتلبس بهذه الكبائر من أعظم الموانع التي تحرم العبد كمال الفلاح في الدنيا والآخرة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٣٤، تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٥٠.

وفيما يلي ذكر لتلك الكبائر:

١ . الخمر والميسر.

الخمر: كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان. والميسر: كل المغالبات القولية أو الفعلية التي يكون فيها العوض من الطرفين[(١)]. وقد علق الفلاح على اجتناب الخمر والميسر في قوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وإنما كانت الخمر والميسر مانعة من تحقق كمال الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة لما اشتملت عليه من الآثار السيئة والآثام الكبيرة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ففيها فتح لأبواب الشر والفساد بوقوع العداوة والبغضاء، والفرقة والاختلاف، وربما آلت بأصحابها إلى القتل والنهب والعقوق والقطيعة، وهذا عنوان الشقاء، وفيهما أيضًا صدٌّ عن سبل الفلاح، وعن أبواب الخير العظيمة، وهذا عنوان الحرمان والخيبة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[المائدة: ٩١].

٢ . الربا.

وهو الزيادة في أشياء مخصوصة، والزيادة على الدين مقابل الأجل[(٢)]، وهو من كبائر الذنوب التي تحول بين العبد وبين الفلاح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ومنه ترك الربا، كي تنجو من عقابه، وتظفروا بالخلود في جناته. وفيه إشارة إلى أن من لم يترك الربا لم يحصل له كمال الفلاح في الدنيا والآخرة. وإنما كان الربا من موانع كمال الفلاح؛ لأن المتعامل به فاته الاتباع والانقياد لأمر الله، وهذا أعظم خصال أهل الإيمان.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وصاحب الربا على خطرٍ من شؤم مخالفته لأمر الله جل ثناؤه، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٨ وذكر أنه استثني من ذلك مسابقة الخيل والإبل والسهام، فهي مباحة؛ لكونها معينة على الجهاد؛ ولهذا رخص فيها الشارع.

(٢) الربا في المعاملات المصرفية، عمر المترك ص٤٣.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فهو متوعد في الدنيا بنقص المال وذهاب بركته.

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومتوعد في الآخرة بحرمان نعيم الجنان ودخول النار.

قال جل وعز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣. التعدي على أعراض الناس بالزنا والفجور.

الزنا من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومانع من موانع كمال الفلاح في الدنيا والآخرة، قال سبحانه في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، جملة تعليلية، وهي التعليل الثاني الذي يعلل به يوسف عليه السلام سبب امتناعه عما تطلبه منه امرأة العزيز.

ونفي الفلاح عن الظالمين يعم كل ظالم، وأولى من يدخل تحته في هذا السياق من قابل الإحسان بالإساءة، فخان من أحسن إليه، وتعدى على عرضه وشرفه. وسمي ذلك ظلمًا؛ لأنه فعل ما ليس له فعله، فتجاوز ما أحله الله إلى ما حرمه، ووضع الشيء في غير موضعه.

قال جل وعز: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

وإنما كان الزنا من موانع كمال الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنه بفعله لهذه الفاحشة قد تعدى حدود الله، وانتقص من إيمانه بقدر هذه المعصية، ولأن الله جل ثناؤه قد رتب على الزنا أنواع العقوبات الدنيوية والأخروية، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

وعقوبته مغلظة، فيقتل بأشنع القتلات، الرجم حتى الموت، أو الجلد بمشهدٍ من المؤمنين في موقف لا تأخذهم الرحمة له

من إقامته عليه، قال سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ثالثًا: الظلم، افتراء الكذب على الله، الاجرام:

١ . الظلم.

وهو وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدولٍ عن وقته أو مكانه، والظالم هو الذي أزال الحق عن جهته وأخذ ما ليس له، ويطلق الظلم على كثير التجاوز وقليله[١].

وهو من أعظم موانع الفلاح في القرآن الكريم، وقد جاء التصريح به في أربعة مواضع:

ثلاثة منها أطلق فيها الظلم وأريد به الكفر بالله، وهو أعظم الظلم على الإطلاق. وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧].

وأما الموطن الرابع فأطلق الظلم فيه وأريد به فاحشة الزنا، وذلك في قوله جل ثناؤه: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وتنوع المراد بالظلم في هذه الآيات؛ إيذانٌ بأن الفلاح المنفي عن الظالم تتفاوت درجته بتفاوت الظلم نفسه، فالكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم ينفى عنه أصل الفلاح المقتضي للخلود في النار، والحرمان من دخول الجنة، بينما نفي الفلاح عن أفراد الظلم التي هي دون الكفر هو من باب نفي كمال الفلاح الدنيوي والأخروي.

وعموم نفي الفلاح عن الظالم سنة ربانية لا تتخلف ولا تتبدل أبدًا، فالظالم وإن تمتع في دنياه بما تمتع به، فنهايته فيه الاضمحلال والتلف[٢]، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)[٣].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٢٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٤٠٩، ٤/١٧٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب

٢ . افتراء الكذب على الله.

«الفري: قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما معًا، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن الكريم في الكذب والشرك والظلم»(١).

وافتراء الكذب على الله تعالى والتكذيب بآياته من أعظم صور الظلم؛ لذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقد جاء التصريح بعده من موانع الفلاح في موضعين اثنين من القرآن الكريم:

الأول: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

وافتراء الكذب على الله في الآية عامٌّ يشمل جميع صوره، وأقربها من جهة السياق من اختلق على الله الكذب في نسبة الولد له سبحانه ، وفي ادعاء الشريك والشفيع له.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وافتراء الكذب على الله هو بتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، ثم نسبة ذلك إليه سبحانه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والخطاب في هاتين الآيتين للكفار، والفلاح المنفي عنهم هو مطلق الفلاح الدنيوي والأخروي، والمقتضي للخلود في النار، والحرمان من دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقد ذكر الله جل ثناؤه بعض وجوه نفي الفلاح الدنيوي عن المفترين الكذب عليه سبحانه، فهم متوعدون بالغضب والذلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وهم أيضًا متوعدون بعذاب يستأصلهم، قال سبحانه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ

تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧ .

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٣٤ .

﴿خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

ولما كان نفي الفلاح الدنيوي عن الذين يفترون على الله الكذب عامٌّ، بين جل ثناؤه أن ما قد يحصل لبعضهم من صور التنعم الظاهر في الدنيا، هو متاعٌ قليلٌ على سبيل الاستدراج والإملاء[1]، فقال جل وعز: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

٢. الإجرام.

الجيم والراء والميم أصلٌ واحد بمعنى القطع، ومنه قولهم: جرم، أي كسب؛ لأن الشيء الذي يحوزه كأنه يقتطعه[2]. ثم أطلق الفعل على كل اكتسابٍ مكروه، ولا يكاد يستعمل في الكسب المحمود[3].

وقد جاء عده من موانع الفلاح في موضع واحد، في قوله جل ثناؤه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

والمراد بالمجرمين هنا الكفار[4] الذين اكتسبوا الإثم بكفرهم بالله. ولفظ افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته في الآية عام، ومنه تحريف كلام الله ثم نسبته إليه سبحانه، وادعاء النبوة والوحي من الله[5]، والتكذيب بآيات القرآن التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ تذييل للوعيد يتنزل منزلة التعليل، أي لا ينجح ولا يفوز بحاجته من اتصف بصفة الإجرام. وهذا النفي للفلاح يختلف بحسب حال الفاعل للإجرام، فإن كان كافرًا، قد اكتسب بكفره وتكذيبه الآثام كما في سياق هذه الآية، فالمراد بنفي الفلاح عنه؛ نفي أصله، وإن كان من اتصف بصفة الإجرام قد اكتسب من الذنوب واجترح من السيئات التي لم تبلغ درجة الكفر والتكذيب، فهو على خطر الوعيد، وحقيق بأن يدخل تحت هذا القدر من الآية، ويكون المراد بنفي الفلاح عنه نفي كماله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٨٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٧.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٤١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٤، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٣.

رابعًا: السحر:

السحر في اللغة صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، ويطلق على كل ما لطف مأخذه ودق[1]. والسحر أنواعٌ فمنه ما هو تخييل، ومنه ما له حقيقة وتأثير، وهو محرمٌ بالإجماع[2]، وما كان منه من نوع السحر الحقيقي فهو من الكفر البين؛ لأنه لا يتحقق إلا بالوقوع في الشرك، كمعاونة الشياطين للساحر مقابل ما يقدمه لهم من طاعة وخضوع في مخالفة الشرع[3]. والسحر من موانع تحقق الفلاح الدنيوي والأخروي، وقد جاء التصريح بذلك في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وذلك في سياق الرد على فرعون وملئه المكذبين بما أوتي موسى عليه السلام من الآيات، والقائلين له: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]. ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وضمن ذلك معنى التكذيب والتوبيخ والتجهيل لقولهم[4]، ثم لما نفى موسى عليه السلام عن آيات الله أن تكون سحرًا، ارتقى فأبان لهم فساد السحر نفسه، وسوء عاقبة معالجيه تحقيرًا لهم؛ لأنهم كانوا يعظمون شأنه، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[5].

والموضع الثاني: في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

أي: لا يظفر الساحر ولا يحصل له مقصوده بالسحر أينما كان، وقيل عدم فلاحه: بأن يقتل الساحر حيث وجد، وهو من التفسير باللازم[6].

ونفي الفلاح في هاتين الآيتين يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد سبحانه ذلك بالتعميم في كل الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر[7].

وإنما كان السحر الحقيقي من موانع الفلاح؛ لأنه قد انتفى عنه بسحره هذا أصل

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٧٠، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨٤.

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ١٢/ ٣٠٠، شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ١٧٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٣٨٤، السحر، أحمد الحمد ص١٨٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٩/ ٧٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٦٨.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٠.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٠٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١١/ ٨٧.

(٧) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.

الإيمان الموجب لكل فوز وسعادة في الدنيا والآخرة، فليس للسحرة في الآخرة حظ ولا نصيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما حظهم في الدنيا فالذلة والصغار، وعدم تحقق ما يسعون إليه ويهدفون، قال سبحانه عن حال سحرة فرعون قبل إيمانهم وسجودهم لرب العالمين: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١١٩].

ثواب المفلحين

أثنى الله تبارك وتعالى على عباده الذين قاموا بأسباب الفلاح، واتصفوا بصفات المفلحين، وبين في مواطن من كتابه الكريم عظم ذلك الثواب الذي ظفروا بطرف منه وهم أحياء في الدنيا، وينتظرون الفوز الأكبر به في الآخرة، ويمكن النظر إلى ماهية ذلك الثواب من خلال ما يلي:

أولًا: ثواب المفلحين في الدنيا:

١ . الاهتداء إلى الطريق المستقيم.

من أعظم النعم التي امتن الله بها على عباده المؤمنين نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم. قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وسؤال هذه الهداية من الله عز وجل من أعظم مطالب العباد، واضطرارهم إليها فوق كل ضرورة[١].

وقد أكرم الله جل ثناؤه المتقين من عباده والمحسنين؛ القائمين بأسباب الفلاح الظاهرة والباطنة على الكمال، أن وفقهم للهداية التامة فقال جل وعلا: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٢.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

فمن الهداية التامة: هداية الدلالة والبيان المتضمنة تعليم المؤمن ما لا يعلم من الحق إجمالًا وتفصيلًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمعنى: «لنبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة»[١].

ومن الهداية التامة: هداية التوفيق والإلهام، والمتضمنة إلهامه الحق، والتوفيق لإتباعه، والعمل بعلمه، والثبات عليه إلى الممات[٢]. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. «والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم»[٣].

٢ . الحصول على الخيرات والذكر الحسن.

أثنى الله جل وعز على عباده المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح في الجهاد بالمال والنفس، ووصفهم بأنهم المفلحون الفلاح المطلق، الذي تكاملت فيه أسبابه، وتحققت صفاته، فهم الذين ظفروا وفازوا بكل مطلوب لهم في الدنيا والآخرة، ومنه الحصول على الخيرات الكثيرة المتتابعة، كما في قوله جل وعلا: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

والخيرات جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء[٤]، واللام فيه للاستغراق؛ للدلالة على كثرة وتنوع ما يمنحون من المحاسن والفضائل في الدنيا والآخرة، وأولاها بالذكر والدخول تحت عموم هذا اللفظ تلكم الخيرات المتعلقة بالإيمان والجهاد في سبيل الله، كالعزة، والنصر على الأعداء، وإقامة الحق والعدل بدين الله، والتمتع بالغنائم، والسيادة في الأرض، ومنها الذكر في الدنيا، والثناء الحسن، وسلوك الناس طريقهم[٥].

ثانيًا: ثواب المفلحين في الآخرة:

١ . ثقل الموازين يوم القيامة.

تجازى الخلائق في الآخرة بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فمن ثقلت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٦.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٢، الوعد الأخروي، عيسى السعدي ١/ ٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٢٤٩.
(٥) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٥٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٩١.

موازينه بالأعمال الصالحة، ورجحت حسناته على سيئاته، فهو من تحقق له الفوز بالنجاة من النار ودخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وقد أخبر الله جل ثناؤه في موضعين اثنين من كتابه الكريم أن ثقل الموازين بالحسنات يوم القيامة وما ترتب عليه، هو من الفلاح الذي ظفر به المفلحون من عباده فقال عز من قائل: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

٢. وراثة الفردوس.

وعد الله جل ثناؤه عباده المؤمنين الذين حققوا أسباب الفلاح في الدنيا بالظفر والفوز بالنعيم المقيم في الآخرة، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

أي: هم الأحقاء بأن يسموا وراثًا دون من عداهم ممن لم يتصف بتلك الصفات من المؤمنين[1].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٢.

ثم بين الله جل وعز ما يرثونه على سبيل التفخيم والتأكيد[2]، فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١].

والفردوس هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر[3]. وهو أوسط الجنة وأعلاها منزلًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)**[4]. ووراثة عباد الله المفلحين لجنة الفردوس بأن يرثوا منازل أهل النار في الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله) فذلك قوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾**[5].

موضوعات ذات صلة

الخسران، الصلاح، النجاة، النصر

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء)، رقم ٦٩٨٧، ٦/ ٢٧٠٠.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب صفة الجنة، رقم ٤٣٤١، ٥/ ٣٨٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠١٠، رقم ٥٧٩٩.